الحشاشين

الباحث عن الفردوس

رواية

محمود أمين

محمود أمين

الحشاشين

دار بصمة

تصميم: عبد الرحمن حافظ



الباحث عن الفردوس

هم يغيرون مظهرهم.. كالشياطين التي تتحول إلى ملائكة من النور، وذلك أنهم يحاكون الحركات والثياب واللغات والعادات والتصرفات التي تأتيها الأمم والأقوام المختلفة، وهكذا يتخفون في ثياب الشاة لتنفيذ أغراضهم.

من نصيحة القس "بروكاردوس" لملك فرنسا محذرا إياه من الحشاشين.
(من كتاب الحشاشون.. فرقة ثورية في تاريخ الإسلام لبرنارد لويس).

- - - -

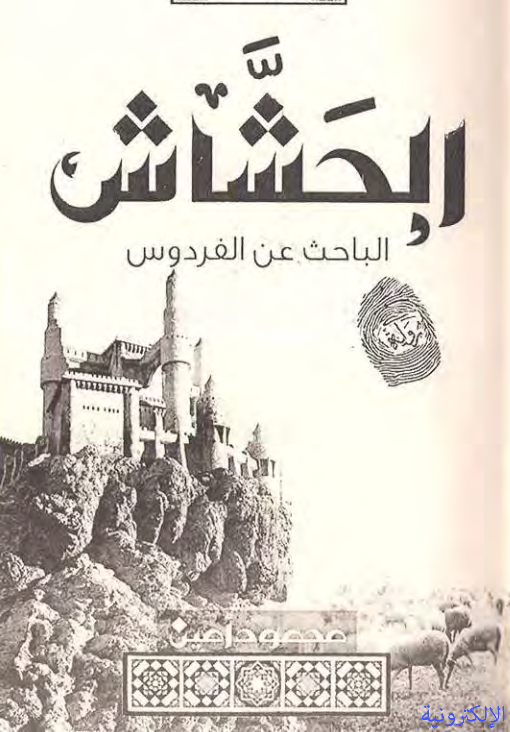
جلس "نسيم" على الأرض تحت الكوة التي كان يضرب منها السهام وأسند ظهره على الجدار وقال لعبد الرحمن:

ــ تصويبك ليس سيئا.. لكنك تحتاج إلى المزيد من التدريب.

ثم أضاف وهو ينهض من على الأرض:

ــ سوف نبيت هنا أنا وأنت من اليوم، في الليل سوف نبدل بيننا نوبات الحراسة من هذه الكوة، لو شككت في أي شيء، أو رأيت أي حركة أثناء نومي لا تتردد وأيقظني على الفور، سوف نذهب الآن لإحضار ما سنحتاجه في مكوثنا هنا، والذي أظن أنه سيطول.





أمين، محمود.

الحشّاش: رواية / محمود أمين_ القاهرة:

بصمة للنشر والتوزيع، 2015.

311 ص؛ 20 سم

تدمك: 1 – 950 – 851 – 977 – 978

1 ـ القصص العربية.

أ.العنوان 813

رقم الإيداع: 09816 / 2015

بصمة للنشر والتوزيع

تليفون: 01282211053 – 01158699902 – 01003734421

E-mail:darbasmanashr@Gmail.com

https://www.dar-basma.com

الفِردوس..

أراها في عينيها..

وحبها..

هبة الله لي.

قبل البداية

تبدأ قصتنا في قرية فقيرة في الشمال الفارسي بالقرب من قلعة «ألوه أموت» أو «ألموت»، التي يعني اسمها في لسان أهل الديلم - والديلم اسم منطقة واقعة في شمال الهضبة الإيرانية -: «تعليم النسر»، لكن قبل أن نبدأ من الشمال الفارسي، وحتى نكون على دراية كاملة بالأحداث التي أدت بنا للبداية من هذه القلعة، يجب أن نبتعد كثيراً عن فارس، حتى نصل إلى الشمال الأفريقي، حيث ظهرت الدعوة الإسماعيلية.

والإسماعيلية هي فرقة من فرق الشيعة، استطاعت في فترة من الزمان أن تنشر دعوتها في الشمال الأفريقي، وقد استطاع داعي دعاتها، أبو عبد الله علي بن حوشب الشيعي، أن ينشر هذه الدعوة في المغرب وشمال أفريقيا تقريبًا بين عامي 888 و897م، واستطاع «أبو عبد الله» في تلك الفترة أن يكوّن جيشًا قويًا ويهزم دولة الأغالبة عام 904م، التي كانت موجودة في شمال أفريقيا في ذلك الوقت، وأرسل لرجل يدعى «عبيد الله» كانوا يدّعون أنه من نسل فاطمة، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه هو المهدي.

وصل «عبيد الله» إلى مدينة «سلجماسة» بالمغرب، فقابله الوالي بحفاوة، لكن بعد انتصار «أبو عبد الله» على الأغالبة خاف الوالي من نفوذ الإسماعيليين فسجن «عبيد الله» لكن «أبو عبد الله» حرره وبايعه على أنه هو المهدي أمير المؤمنين.

وكما يقولون، فلو توقفت الحرب بين الأعداء فإنها لا تتوقف بين الحلفاء؛ ففي عام 906م شعر «عبيد الله» بنمو نفوذ «أبو عبد الله» فأمر بقتله، وعندما ثار أتباعه قتلهم، وبذلك تكوّنت الدولة الفاطمية الشيعية صاحبة العقيدة الإسماعيلية في الشمال الأفريقي، وكانت أنظارهم دائمًا تتجه إلى «مصر».

وبعد محاولات طويلة، استطاع «جوهر الصقلي»، القائد الشيعي، أن يدخل الإسكندرية سنة 966م في جيش قوامه مائة ألف فارس، وعندما وصلت أنباء قدوم «جوهر الصقلي» إلى الوزير المصري «جعفر بن الفرات» آثر التصالح مع «جوهر الصقلي» الذي أمّنهم على أموالهم وعاهدهم على عدم إرغام المصريين على اعتناق دين الشيعة الإسماعيلية، لكنهم كعادتهم سوف يحنثون بعهدهم فيما بعدُ.

وبدأ عهد جديد لمصر في ظل الحكم العبيدي، نسبة إلى «عبيد الله»، الأب الروحي للخلافة الفاطمية، ووُضع الأساس لبناء مدينة

«المنصورية»، شمال الفسطاط، وأسس القصر الذي سينزل به «المعز لدين الله الفاطمي»، الخليفة الفاطمي في تلك الأيام، وعُرف باسم القصر الشرقي الكبير.

ظلت القاهرة تُعرف بـ«المنصورية» أربع سنوات، ثم سماها «المعز» القاهرة تفاؤلًا بأنها ستقهر الدولة العباسية، وجعل القائد «جوهر الصقلي» بسور القاهرة أربعة أبواب: باب «النصر»، باب «الفتوح»، باب «زويلة»، باب «القوس».. ثم بدأ بناء الجامع الأزهر سنة 967م، وتم بناؤه في سنتين، وذلك ليكون خاصًّا بشعائر المذهب العبيدي، خشية إثارة المصريين إذا ظهرت هذه الشعائر في مساجدهم، وأقيمت الصلاة في الجامع الأزهر لأول مرة في رمضان سنة 969م، وتحولت الدعوة على المنابر إلى الخليفة المعز، وحفر اسم الخليفة العبيدي الشيعي على النقود بدلًا من اسم الخليفة العباسي، كذلك منع «جوهر الصقلي» الناس من لبس السواد، شعار العباسيين، وزيد في الخطبة على عادة الشيعة: «اللهم صلِّ على محمد النبي المصطفى، وعلى عليٍّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرًا، اللهم صلِّ على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين».

هنا يأتي سؤال مهم: كيف كان حال الخلافة العباسية في ذلك الوقت؟ وكيف سكتت على اقتلاع «مصر» التي تعتبر القنطرة الموصلة بين شقي الخلافة؟

حتى لا نطيل كثيراً، فقد كانت في حال يُرثى له؛ ففي سنة 942م دخل القائد الشيعي «أحمد بن بويه» بغداد، والخليفة هو «المستكفي بالله»، فبايعه «أحمد» وحلف له الخليفة بالسلطنة.. وهكذا أصبح الخليفة صورة والحاكم الحقيقي هو «أحمد بن بويه».

وسيطر البويهيون - نسبة إلى «بويه» - على الأمور حتى ظهور السلاجقة السُنّة، الذين استطاعوا القضاء على الأسرة البويهية، وكان ذلك في عام 1055م عندما استنجد الخليفة العباسي بالسلطان السلجوقي «طغرلبك»، الذي دخل بغداد وقضى على النفوذ البويهي واعترف الخليفة به سلطانًا على جميع المناطق التي تحت يده، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة.. وهكذا دخل العراق ضمن دائرة نفوذ السلاجقة العظام، وأصبحت الخلافة ممزقة بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة، أما الخليفة نفسه فصورة ليس له من الأمر شيء.

في تلك الفترة تقريبًا وُلد «حسن الصباح» في مدينة «قم» الفارسية، كان والده ينتمي للعقيدة الاثني عشرية الشيعية - التي تختلف عن العقيدة

الإسماعيلية - وكانت مدينة «قم» معقلًا قويًا لها، لكن عندما كان «حسن الصباح» طفلًا أخذه والده إلى مدينة «الري»، التي كانت مركزًا للنشاط الإسماعيلي، التقى «حسن الصباح» رجلًا يُدعى «عميرة زاراب» في صغره فزعزع ثقته وإيمانه بالعقيدة الاثني عشرية، لكنه ظلَّ على عقيدته حتى أصابه مرض شديد تحوّل بعده إلى العقيدة الإسماعيلية وأدى يمين الولاء للإمام الفاطمي أمام مبشر إسماعيلي.. وفي سنة 1072م، وصل كبير الدعاة الإسماعيليين إلى «الري» فقابل «حسن الصباح» وحدد له مهمته وطلب منه الذهاب إلى القاهرة التي كانت معقلًا للإسماعيليين تحت الحكم الفاطمي.

وصل إلى القاهرة في سنة 1078م، واستُقبل بحفاوة في البلاط الفاطمي، لكنه بعد أن ظل بها ثلاث سنوات تركها بعد خلافه مع أمير الجيوش «بدر الجمالي».

عندما عاد «حسن الصباح» إلى فارس، بدأ في تركيز دعوته على أقصى الشمال الفارسي، وعلى إقليم «الديلم» بالتحديد؛ حيث كان أهله متأثرين بالدعوة الإسماعيلية بالفعل، لكن كان هناك شيء مهم يشغله.

كان يريد معقلًا قويًا منيعًا لدعوته، حصنًا يمكّنه من مواجهة خطر السلاجقة، وبعد بحث وتفكير طويلين وقع اختياره على قلعة «ألموت».

التي استطاع «حسن الصباح» الاستيلاء عليها بعد خدعة قائدها ويمساعدة أتباعه الذين كانوا بداخلها، وكان ذلك في سنة 1090م.

وحتى ننظر إلى الصورة في النهاية باختصار شديد؛ فالشمال الأفريقي كان تحت حكم الإسماعيليين، وكان الشيعة الاثنا عشرية ينتشرون في إيران، وكذلك الإسماعيليون، وكانت إيران بشكل عام في تنازع مستمر بين السنة وفرق الشيعة، وبقيت معظم الخلافة تحت نفوذ السلاجقة السنّة.

هل أبيع الصبي؟!

مدينة «سافا» في الهضبة الشمالية من بلاد فارس، على مسافة ليست بالبعيدة عن مدينتي «الري» و«قُم»، على الرغم من أن تلك المدينة الصغيرة كانت تحت حكم السلاجقة السنة، فإنها كانت معقلًا للشيعة الاثني عشرية الذين كانوا يعيشون فيها بسلام.

كان «سعد» من هؤلاء الشيعة الذين يعيشون في تلك المدينة، وهو تاجر بسيط، كل ما يريده أن يمر يومه بسلام حتى يعود إلى زوجته «أميمة» وابنه «عبد الرحمن» اللذين كان يعشقهما بجنون، كان «سعد» يرى أنه يجب ألا يحصل على المزيد من النعيم في هذه الدنيا بعد حصوله على زوجته وولده، حتى يكون هناك معنى للنعيم في الآخرة، فلو حصل على المزيد من النعيم معهما فهذا معناه أنه في الفردوس.. هذا من وجهة نظره بالطبع، لما يشعر به من طمأنينة وسعادة معهما؛ لذلك فإنه لا يكاد ينتهي من عمله حتى يفر من الدنيا كلها إلى داره التي كان يعتبرها نموذجًا مصغرًا للجنّة على تلك الأرض الفانية، كانت الساعات التي يقضيها في العمل تمر بطيئة ومملة لأنه بعيد عنهما فيها.

كان يعود في كل ليلة ليجد زوجته تقرأ الشعر مع «عبد الرحمن»؛ فقد كانت تحب الشعر لأقصى درجة، وتعلّمه «عبد الرحمن» باستمرار، حتى إن الصبي الذي اقترب من العاشرة صار شاعرًا من كثرة ما حفظ منه، وهذه كانت نقطة الخلاف الوحيدة بين «سعد» وزوجته، لكن الأمر لم يصل إلى حد الاختلاف والشجار، بل كان الأمر بينهما يؤخذ من باب الدعابة ليس إلّا؛ فـ«سعد» كان يريد لابنه أن يكون تاجرًا محنكًا مثله، والأفضل بالطبع في نظر «سعد» لو كان لئيمًا، تاجرًا متمرسًا مثل أبيه يعرف كيف يتعامل مع البائع والمشتري، يشتري بأقل الأسعار ويبيع بأعلاها من دون أن يثير حفيظة الزبون، لكنه كلما أراد أن يأخذه معه إلى الدكان استعطفته «أميمة» حتى يتركه لها، لم تكُن تقوى على فراقه فتقول لزوجها بدلال:

- هل ستتركني في الدار بمفردي، بلا أنيس أو رجل يحميني؟!

وكان «سعد» لا يقوى على أن يرفض لها مطلبًا، بالأخص لو طلبته بدلال، فيترك لها الصبي وهو يعرف أن أمه تريده معها حتى تدللـه؛ فقد كان كل ما يفعله الصبي بعد أن يتركه والده هو اللعب مع أصدقاء له بالقرب من البيت وقراءة الشعر مع والدته التي علّمته اللغتين العربية والفارسية. كان والده يخشى أن يشب الصبي على هذا فيكون أقرب

للفتيات، لكنه كما قلنا لا يريد أو يقوى على إغضاب «أميمة»، أو مجرد إشعارها بالضيق؛ فذلك يؤثر عليه هو أكثر مما يؤثر عليها.

في ذلك اليوم، عاد «سعد» مسرعًا إلى الدار كعادته، لكنه عندما اقترب من الدار شاهد على ضوء القمر الخافت ظل رجل يقف بالقرب من الدار كأنه ينتظره، رجل يتلفَّت حوله ولا يهدأ، شعر «سعد» بالقلق وتوجس خيفةً منه، تحسس الخنجر الذي يخبئه تحت عباءته دائمًا خوفًا من أن يباغته أحد اللصوص ليلًا في أثناء عودته بالمال الذي يجمعه طوال اليوم، هو معروف بالسوق، ومعروف أنه بالتأكيد يعود بالكثير من المال كل ليلة، كان «سعد» ضخم الجثة قوي البنيان؛ لذلك لم يخشَ الرجل الواقف في الظلام، الذي يظهر عليه أنه أصغر منه حجمًا بكثير، كل ما كان يخشاه أن يكون هناك غيره مختبئًا في مكان ما؛ لذلك ظل يتلفَّت حوله هو الآخر خشية أن يكون هناك غير هذا الرجل، لاحظ «سعد» أن الرجل ما إن رآه يقترب منه حتى اتجه نحوه وقال له، متسائلًا بأمل، من قبل حتى أن يصل إليه:

- السلام عليكم.. هل أنت السيد «سعد» التاجر؟

أجابه «سعد» وقد بدأ القلق الذي كان يساوره في الزوال، وكأن معرفة الرجل لاسمه كفيلة بإزالة هذا القلق:

- نعم.. أي خدمة يا سيدي؟

لاحظ «سعد» ابتسامة الرجل على الرغم من الظلام ويده الممدودة بالسلام، وصوت الرجل يقول وكأنه قد وجد ضالته بعد عناء طويل:

- أنا من بلدة أخيك «حميد»، جئت في مهمة ما، عندما عرف أخوك أنني قادم إلى «سافا» وأنني ليس لي أحد بها أخبرني عنك، وقال لي إنه يمكنك مساعدتي.

تهللت أسارير «سعد» وسلّم على الرجل بحفاوة وهو يقول له:

- أنا تحت أمرك في كل ما تطلب.. كيف حال أخي؟ أنا لم أسافر إليه منذ فترة طويلة.

أجابه الرجل وأسنانه لا تزال تضيء ظلمة الليل:

- بخير حال، يُرسل إليك السلام.

كان التعب الشديد يبدو ظاهرًا على قسمات الرجل وصوته، فقال له «سعد» مشفقًا:

- لا تؤاخذني.. هيا بنا ندخل الدار لتستريح أولًا قبل أن نتكلم.

طرق «سعد» باب الدار فسمع صوت زوجته من الداخل تسأل عن الطارق فأجابها:

- أنا «سعد» ومعي ضيف.

لم يكن يريدها أن تقابله بالعناق الذي تقابله به كل ليلة فور وصوله، ففتحت «أميمة» الباب وتوارت بالداخل، دخل «سعد» ومعه الرجل الذي لم يعرف اسمه حتى الآن، وما إن وطأت قدما الرجل داخل الدار حتى توجّه إلى أريكة فجلس عليها دون حتى أن ينتظر أن يعرض عليه «سعد» الجلوس، كان يبدو عليه أن الإنهاك بلغ منه منتهاه، تركه «سعد» ودخل إلى زوجته التي كانت تقف مستترة تختلس النظرات من خلف جدار، حتى لا يراها الضيف في زينتها التي تكون حريصة عليها وهي في استقبال زوجها، سلّم «سعد» عليها وقبلها ثم سأل عن «عبد الرحمن» فأخبرته أنه نائم، فقال لها:

- حسنًا.. حضّري الطعام للضيف.

فسألته زوجته:

- ومن هذا الضيف؟

أجابها «سعد» وهو يخلع عباءته التي التصق بها غبار السوق:

- إنه من بلدة «حميد» أخي، يقول إنه قادم في مهمة ما، أنا لا أعرف عنه أي شيء حتى الآن، ولا حتى اسمه.. نأكل أولًا ثم أعرف منه وعنه ما أريد.

نظرت إليه «أميمة» في شك وقلق ثم قالت:

- هل هو إسماعيلي؟

هز «سعد» رأسه دلالة على عدم معرفته وهو يقول:

- لا أدري، ولا أريد أن أدخل معه في هذا الكلام، يكفي الخلاف بيني وبين أخي بسبب اتباعه المذهب الإسماعيلي.

فاستطردت الزوجة بقلق:

- أنا لا يهمني الرجل.. لكن الإسماعيليين لا يأتي من ورائهم إلا الشر.

فرد عليها زوجها بضيق:

- هم أيضًا يقولون عنّا الكلام نفسه، يقولون إن أتباع المذهب الاثني عشري لا يأتي من ورائهم إلا الشر.

ثم أضاف متسائلًا بمزيد من الحنق:

- هل سنضيّع الليل في هذا الكلام أم سنأكل لننام ونستريح؟

فعادت الزوجة تسأله بقلق:

- هل سيبيت عندنا؟

فأجابها «سعد» بشك:

- لا أعرف، لكن يبدو أنه ليس له مكان آخر، سوف أعرض عليه المبيت على كل حال.

فهزت الزوجة رأسها بعدم رضا وبدأت في إعداد الطعام، عاد «سعد» إلى

الرجل فوجده قد نزل من على الأريكة وجلس على الأرض مسندًا رأسه إلى كف يده وهو مستند على الأريكة، كان يغالب النوم، فربت على كتفه وهو يقول له:

- تحمّل قليلًا .. سوف نأكل أولًا ثم تدخل لتنام.. اعذرني، لقد نسيت أن أسألك عن اسمك.

كان الرجل مغمض العينين فرد عليه دون أن يفتحهما:

- سوف أطلب منك خدمتين الليلة، الأولى: ألّا تسألني عن أي شيء.

أحس «سعد» بالقلق من كلمات الرجل، لكنه قال له متسائلًا:

- والثانية؟

أجابه الرجل:

- مكان أنام فيه، وغدًا أطلب منك خدمة أخرى لن تراني بعدها.

كانت طريقة الرجل تثير فضول «سعد» وقلقه، فسأله:

- وما هذه الخدمة؟

أجابه الرجل وقد أصبح ممددًا على الأرض:

- مكان رجل معروف عندكم يُدعى «طاهر النجار».

لم يرَ الرجل التجهم والقلق اللذين ارتسما على وجه «سعد»، لم يشعر

الرجل إلا بيد «سعد» تساعده على النهوض وتُدخله غرفة لينام فيها على فراش وثير.

عاد «سعد» إلى زوجته بعد أن أغلق باب الغرفة على الرجل.. كانت «أميمة» تضع الطعام في الأواني فأخبرها أن الرجل قد نام، فقالت له بسعادة لأنها لم تكن مستريحة للضيف:

- حسنًا.. نأكل نحن، فأنا جوعانة وكنت أنتظرك لنأكل معًا.

رد عليها «سعد» بتوتر:

- لا أريد أن آكل.. سوف أذهب للنوم.

لاحظت «أميمة» التغير الظاهر على زوجها، فقالت له متسائلة:

- ما لك؟ يبدو عليك القلق.. هل قال لك ذلك الرجل ما أقلقك؟

أجابها «سعد» وهو يبتلع ريقه بصوت مسموع:

- لم يُرِد أن يخبرني اسمه.

نظرت إليه زوجته بدهشة وقالت:

- شيء غريب.. ما السبب يا تُرى؟ وكيف يبيت عندنا ونحن لا نعرف عنه أي شيء، ولا حتى اسمه؟!

رد عليها «سعد»:

- هناك شيء آخر.

نظرت إليه زوجته متسائلة، فاستطرد:

- يريدني أن أوصله إلى «طاهر النجار».

فاتسعت عينا الزوجة في فزع، ووقع منها الإناء الذي كان بيدها على الأرض.

* * *

كان «سعد» في السوق يجلس أمام دكانه عندما لاحظ الجلبة والناس الذين يجرون في اتجاه وسط السوق، أوقف أحد الرجال الذين يعرفهم وسأله بفضول:

- ماذا هناك؟ لماذا يجري هؤلاء الناس كلهم هكذا؟

ردَّ عليه الرجل بسرعة لأنه كان يريد الذهاب لرؤية الحدث الذي كان الجميع ذاهبين لرؤيته:

- لقد أمر الوزير «نظام الملك» بإعدام «طاهر النجار» في الميدان.

أحس «سعد» بالخوف وعاد يسأل الرجل الذي همَّ بالذهاب لرؤية إعدام «النجار»:

- وما السبب في ذلك؟

كان الرجل يريد الذهاب لأن تلك الأحداث هي وسيلة تسليتهم الوحيدة، فقال له بضجر:

- حكاية طويلة أحكيها لك فيما بعد.. يبدو أنك لا تعرف أي شيء عمّا يحدث في المدينة.

فعاد «سعد» يقول له باستعطاف:

- أرجوك أخبرني بسرعة.. ماذا حدث؟

رد عليه الرجل بتأفف وهو يشعر أنه يُسدي إليه خدمة جليلة:

- حسنًا سوف أخبرك.. لقد أتت مجموعة مكونة من ثمانية عشر إسماعيليًا اعتُقلوا بأمر الشرطة لاشتراكهم في صلوات خاصة، ثم تم الإفراج عنهم، لكنهم أرادوا تجنيد مؤذن، فعندما رفض قتلوه خشية أن يُفشي سرهم.. معظم هؤلاء الرجال أتوا من المناطق القريبة من قلعة «ألموت».. أنت تعرف تلك المنطقة، فقد قلت لي إن أخاك يعيش هناك.

أحس «سعد» كأن الرجل يتهمه بمعرفته بالرجال فرد عليه بكلمات متوترة لم يفهمها الرجل الذي استطرد:

- زعيم هذه الجماعة كان «طاهر النجار»، هو له نشاط مريب من البداية وسمعته سيئة، هل تريد مني شيئًا آخر؟

لم يُجبه «سعد» الذي كان في عالم آخر يفكر في الرجل الذي أتى إليه منذ أيام.. لو كان ذلك الرجل الذي أتى إليه من هؤلاء الرجال وعرفت الشرطة علاقته به فسوف تكون عاقبته سيئة.

دخل إلى الدكان يحاول أن يقنع نفسه بأن كل شيء سوف يمر على خير.. عندها أحس برجل يدخل الدكان بحذر وهو يتلفّت حوله، تصرفات الرجل لا تشير إلى أنه زبون أتى لشراء شيء ما من الدكان، كانت خطواته المترددة تبعث على الريبة والشك، قال له «سعد» بخوف ودقات قلبه تسارع:

- هل تريد شيئًا ما يا سيدي؟

ردّ عليه الرجل بهمس كأنه فحيح أفعى من العالم الآخر:

- الرجل الذي أتى إليك من قرية أخيك ينصحك بالهرب إلى تلك القرية.. الشرطة قبضت عليهم وربما لن يتحملوا أكثر من ذلك.

وقبل أن يقول «سعد» أي شيء اختفى الرجل من أمامه.. أحس «سعد» كأن هناك جبالًا من الهم قد وُضعت على صدره.. لكن عليه أن يفكر بسرعة إذا أراد لنفسه وأسرته النجاة، يوجد تاجر زميل له بالسوق كان يريد شراء دكانه منه منذ زمن بعيد، سوف يبيعه الدكان بالبضاعة، لكنه لن يبيع الدار حتى لا يثير الشكوك من حوله.. سوف يجمع كل ما يستطيع جمعه في أسرع وقت ويفر، هو لا يهمه نفسه بقدر خوفه على زوجته وابنه، كل شيء يمكن تعويضه إلا هما.

***

عندما عاد «سعد» إلى بيته قبل موعده الطبيعي ارتابت زوجته وسألته بقلق:

- لماذا عدت باكرًا اليوم يا حبيبي؟

تأكد «سعد» من أن باب البيت موصد جيدًا ونظر من كوة في جدار البيت فأيقن أنه لا أحد يتبعه، حركاته المتوترة جعلت زوجته تسأله من جديد، لكن هذه المرة بجزع:

- ماذا هناك يا «سعد»؟

جلس «سعد» على الأريكة وسألها وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ما:

- أين «عبد الرحمن»؟ لماذا لا أراه بالمنزل؟

أجابته زوجته والقلق يستبد بها:

- يلعب في الخارج.

انتفض «سعد» واقفًا وانطلق إلى خارج الدار وهو يقول لها بخوف:

- لكني لم أرَه وأنا داخل.

لم ينتظر «سعد» ردّ زوجته، بل خرج على الفور ينادي على ابنه الذي ما إن ظهر من مكان ما خلف الدار حتى أمسكه «سعد» من يده ودخل به إلى الدار والصبي يسأله بدهشة:

- ماذا هناك يا أبي؟

لم يرد «سعد» عليه، أدخله الدار وعاد إلى غلق الباب بإحكام وهو يقول لزوجته:

- تعالَي إلى غرفتنا بسرعة.

تبعته زوجته إلى الغرفة وهي لا تزال لا تفهم ما الذي حلَّ بزوجها، أجلسها على طرف الفراش وحكى لها باختصار ما فهمه من الناس في السوق، وتحذير ذلك الرجل الذي لا يعرفه له، بمجرد أن انتهى من السرد أخرجت زوجته صوتًا كالعويل وهي تضع يدها على صدرها وتقول له بجزع وألم:

- لقد قلت لك إنهم لا يأتي من ورائهم غير المصائب.

أطرق «سعد» إلى الأرض ببصره وقال بندم:

- لم تعُد هناك فائدة من هذا الكلام.

كانت زوجته على وشك البكاء عندما قال لها مشجعًا:

- لا تخافي يا «أميمة»، لقد اتفقت مع تاجر في السوق سوف يأخذ مني الدكان بالبضاعة، سوف يكون معنا المال الكافي لحياة جديدة وآمنة.

فعادت زوجته تقول له بحسرة:

- ونترك ديارنا وأهلنا!

فرد عليها زوجها باستسلام:

- ما باليد حيلة، اجمعي كل ما تستطيعين، سوف أمر على التاجر بالليل لأخذ المال، يجب أن نرحل في أقرب وقت ممكن.

وكان كل ما يشغله سلامتها هي و«عبد الرحمن».

* * *

كانت القافلة تسير على مهل بسبب الجو شديد الحرارة، اقترح البعض على قائد القافلة أن يستريحوا قليلًا ويُريحوا جِمالهم وخيلهم، لكن الرجل رفض.. كان يجِدُّ السير لأنه يعرف أنهم في منطقة خطرة مليئة بقُطّاع الطرق واللصوص، فالمناطق الخاضعة لنفوذ طائفة ما تكون آمنة نوعًا ما، أمّا تلك المناطق بين أولئك وهؤلاء فهي غير آمنة بالمرة.

كان «عبد الرحمن» يجلس في الهودج مع أمه على الجمل الذي يتهادى بهما، بينما والده يسير بالقرب منهما على جواده، أزاح والده الستار قليلًا عن الهودج وقال له مداعبًا:

- ألا تريد أن تأتي معي يا «عبد الرحمن»؟

كان «سعد» قد بدأ يشعر بالراحة النفسية منذ أن خرج من «سافا» ووجد تلك القافلة التي سوف تمر بالقرب من القرية التي يسكنها أخوه، لقد خسر الكثير من المال لأنه كان متعجلًا في بيع دكانه وبضاعته، لكنه

نجا بأهله، وهذا ما يهمه.. سوف يظل مع تلك القافلة حتى أقرب نقطة من القرية فيتركها، سوف يشتري بما معه من مال دارًا جديدة ودكانًا، لا يهمه أن المجتمع الذي هو ذاهب إليه إسماعيلي يختلف في عقيدته عن الشيعة الاثني عشرية، كل ما يهمه أن يشعر بالأمان مع زوجته وابنه..

أراد «عبد الرحمن» الخروج لوالده لكن الأم أمسكت به وهي تقول مبتسمة لـ«سعد»:

- الشمس حارقة عليه بالخارج، سوف يبقى معي.

فقال «سعد» وهو يضحك ويهز رأسه بمرح:

- أمك تدللك بشدة يا «عبد الرحمن»، وهذا لن يصنع منك المقاتل الذي أريده.

فقال له «عبد الرحمن» بتردد:

- لكني أريد أن أكون شاعرًا.

فضحك «سعد» وهو يقول له مداعبًا:

- لا أستطيع أن أمنعك، ما دامت أمك تريد هذا.

ثم أسدل الستار على الهودج من جديد فعاد إلى الهودج الضوء الخافت الذي يميزه عندما تكون ستائره مسدلة.. سألت الأم «عبد الرحمن» بفرح:

- هل تريد أن تكون شاعرًا بالفعل، أم تقول هذا الكلام من أجلي فقط؟

أجابها «عبد الرحمن» بثقة وفخر:

- بل أريد أن أكون شاعرًا من كل قلبي.

فعادت أمه تقول له وهي تهز رأسها بطرب:

- أهم ما يميز الشعراء قلوبهم.. لماذا لا تُسمعني شيئًا مما تحفظ؟

فكّر الولد قليلًا وعندما همّ بالكلام سمع صوت صرخة بالخارج أسكتته وجعلت الخوف يجري في عروقه، نظر إلى أمه بفزع، ضمّته إلى صدرها وهي تقول له بتخوّف وعدم ثقة:

- لا تخَف يا «عبد الرحمن».. والدك بالخارج سوف يحمينا.

لكنها شعرت بالهودج يتمايل بشدة ليسقط من فوق الجمل.. سقط «عبد الرحمن» على رأسه وفقد الوعي، عندما أفاق لم يفهم ما الذي حدث، وجد أمه لا تزال تحتضنه لكنها كانت هذه المرة ساكنة تمامًا.. نظر إلى وجهها الذي كان مغمض العينين.. هزّها فلم ترد عليه.. نظر إليها في عدم فهم، كانت هذه هي أول مرة في حياته يرى فيها الموت رأي العين، ويراه في أحب الأشخاص إلى قلبه.. أمه.

* * *

يعيش «حميد» في قريته الفقيرة القريبة من قلعة «ألموت» مع زوجته

«ماضر» وبناته: «دانة» و«حسناء» و«تغريد»، بالإضافة إلى ابن أخيه «عبد الرحمن».. كان والدا «عبد الرحمن» قد قتلهما اللصوص، ولم يبقَ له في الحياة سوى عمه «حميد».

كانت الحياة في القرية تعتمد على النبلاء الذين يملكون معظم الأراضي أو التجارات، ويعمل لديهم الفقراء من أهل القرية، لم تكن تلك القرى الفقيرة الصغيرة تلفت انتباه أحد في ظل تفكك الخلافة العباسية، غير أن «حسن الصباح» بدأ في بسط سيطرته عليها لتكون بداية دعوته الإسماعيلية.

جلس «حميد» يستريح بجانب نهر «شاه رود» الذي يتدفق بالقرب من قلعة «ألموت» والذي تقع عليه قريته في وادي «رود بار»، كان قد أنهكه التعب بعد يوم عمل طويل في حديقة قلعة أحد نبلاء القرية.. لم يلحظ «حسين» صديقه وهو يقترب منه لانشغاله بالتفكير في ابنته الكبرى «دانة».. انتفض عندما أحس بيد صديقه توضع على كتفه وهو يقول له مداعبًا:

- ما لك يا «حميد»؟ لماذا أنت شارد هكذا؟

نظر إليه «حميد» ورد عليه بحزن وهو يزفر في ضيق:

- أفكر في «دانة».

فعاد «حسين» يسأله باهتمام:

- ابنتك؟! ما لها؟ أليست على ما يُرام؟

فأجابه «حميد» باللهجة البائسة نفسها:

- هي بخير، لكنها كما تعلم لم تتزوج حتى الآن.

فعاد «حسين» للضحك وهو يقول له بلا مبالاة:

- لا تخَف، إنها شديدة الجمال، سوف تتزوج قريبًا بإذن الله.

فرد عليه «حميد» بجدية:

- ليس بالجمال وحده تتزوج الفتيات، يحتجن أيضًا إلى المال أو النسب، وأنا لا أملك هذا ولا ذاك.

فقال له «حسين» وقد أحس من كلامه بالهم الذي يحمله على عاتقه:

- لا تقُل مثل هذا الكلام، كل الفتيات يتزوجن في النهاية حتى لو كان أهلهن فقراء.

فقال «حميد» وهو ينظر في أسى إلى قلعة نبيل القرية الذي يعمل لديه:

- لكننا معدمون يا «حسين» ولسنا فقراء.. هل تتذكر عندما تزوجت ابنة صاحب القلعة؟ لقد أنفق على زواجها ما يكفي لزواج جميع فتيات القرية.

فهز صديقُه رأسَه موافقًا وهو يردد:

- عندك حق.. ربما يتغير الحال بعد حصول «حسن الصباح» على قلعة «ألموت»، يقولون إنه رجل صالح.

فسأله «حميد» في لا مبالاة:

- وما الذي سيتغير؟! مهما كان من يحكمنا فإنه يتركنا في النهاية تحت رحمة النبلاء.

فرد عليه «حسين»:

- لكن «حسن الصباح» على عقيدتنا الإسماعيلية وأنا متفائل به.

فقال «حميد» بعدم اقتناع:

- أرجو أن يكون عند حسن ظننا.

فقال له «حسين» بحماس:

- بالتأكيد هو كذلك، لقد ظل سنوات يطوف أرجاء «الديلم» ينشر فيه الدعوة الإسماعيلية حتى أصبح له الكثير من الأتباع.. هو الوحيد القادر على الوقوف في وجه السلاجقة عليهم لعنات الأئمة.

فكر «حميد» قليلًا قبل أن يقول:

- أظنه مخلصًا للدعوة، لكن هل سيستطيع الوقوف في وجه السلاجقة، خاصة في وجود «نظام الملك»، وزير «ملكشاه» سلطان السلاجقة.. هذا

الوزير الذي استطاع أن ينشر عن طريق المدارس النظامية عقيدتهم التي يطلقون عليها السَنة.

رد عليه «حسين» بتحدٍّ:

- لو كانت عندهم المدارس النظامية فعندنا «الأزهر» بمصر، عندنا الخلافة الفاطمية التي ستقضي على كل ما هو سُني.

فزفر «حميد» في ضيق وردد:

- أرجو ذلك.. أرجو ذلك.

استطرد «حسين» بحماس:

- لقد سمعت أن «حسن الصباح» سوف يرسل بعثة تبشيرية إلى «كوهستان».

فرد عليه «حميد» وهو يتنهد بحيرة:

- أرجو له التوفيق، من سيكون على رأس هذه البعثة؟

أجابه «حسين» بفخر وكأنه هو من سيكون على رأس تلك البعثة:

- سمعت كلامًا أنه «حسين القعيني».. أنت تعرف أنه من أصل كوهستاني، وهو من الرجال الذين ساعدوا «حسن الصباح» في الحصول على قلعة «ألموت».

فرد عليه «حميد» بفتور وهو يقوم من مجلسه:

- اختيار موفّق، هيا بنا نأخذ أجر اليوم، فلقد تأخرت ويجب أن أذهب إلى «خورشيد» لأخذ أجر عمل «عبد الرحمن» لديه والعودة إلى المنزل.. لقد أوشكت الشمس على المغيب.

* * *

كان «عبد الرحمن» يساعد عمه «حميد» على العيش بعمله عند «خورشيد»، التاجر الغني.. قليلون هم الأغنياء في هذه القرية، و«خورشيد» واحد منهم.

عندما ذهب «حميد» به في أول مرة كان «خورشيد» مترددًا في قبوله للعمل عنده.. كان «عبد الرحمن» نحيفًا.. أسمر الوجه.. لا يبدو عليه أنه يقوى على العمل، خاصة بنظراته الرقيقة الزائغة، وبالفعل هو لم يكن يقوى على العمل؛ فوالدته كانت تدلله كالفتيات وتشجعه حتى يكون شاعرًا، والشعراء يجب ألا يقفوا في الدكاكين، كانت تعشق الشعر الذي كان أهم فنون الأدب في ذلك العصر.. تحفظ الكثير والكثير من الشعر وتساعد ابنها «عبد الرحمن» على حفظه.

ذلك الصبي الرقيق، نبتة الشعر الرقيقة تلك، وجد نفسه فجأة وحيدًا في الصحراء بعد أن هجم اللصوص على القافلة وقتلوا معظم مَن فيها، لكن ما زال ذلك الصبي يملك بعض الحظ الجيد.. لقد تعرف عليه أحد

الناجين من الهجوم.. أخذه للعيش معه عدة أيام قبل أن يوصله إلى عمه الذي فرح بنجاته، على عكس «تماضر» زوجته، التي نظرت إلى الصبي بازدراء ثم قالت ساخرة وهي تبتسم باستهزاء:

- ماذا سيفيدنا وجود فتاة جديدة؟ عندنا ثلاث فتيات!

رد عليها «حميد» بغضب:

- لا تقولي مثل هذا الكلام على ابن أخي.

ابتسمت «تماضر» في سخرية من جديد وهي تقول باستفزاز:

- انظر إليه.. إنه يشبه الفتيات!

عاد «حميد» يقول لها بصبر نافد:

- لقد كان أخي ثريًا، وكان الصبي يعيش في رغد وراحة.. من الطبيعي ألّا تظهر عليه آثار الشقاء والتعب.

فعادت «تماضر» تقول بحسرة وتشفٍّ:

- كان ثريًا وتركنا نعيش في ذلك الفقر المدقع، ومات وقد أخذ اللصوص منه كل شيء، حتى بعد موته لم نحصل منه على شيء.

زفر «حميد» في ضيق وهو يقول بصوت مرتفع:

- وماذا كان عليه أن يفعل؟

أجابته زوجته بغضب:

- كان عليه أن يعطينا.. يساعدنا.. ألستَ أخاه؟

أجابها «حميد» وهو يزفر في ضيق:

- كلما أتى لزيارتي أعطاني ما يكفيني ويفيض حتى زيارته التالية، لكنك لا تقتنعين بشيء.

مطّت «تماضر» شفتيها بعدم اقتناع وقالت له:

- دائمًا تدافع عنه.

ثم نظرت إلى الصبي واستطردت:

- وماذا سنفعل بهذا الصبي الآن؟! نحن ننفق على بناتنا بالكاد.. كيف سننفق عليه هو الآخر؟!

وكان ذلك سبب فكرة عمل «عبد الرحمن» عند «خورشيد»، الذي لم يقتنع بالصبي في البداية، كان «حميد» يتوقع ألّا يصمد الصبي في العمل، لكن «عبد الرحمن» تحمّل العمل عند «خورشيد» لسببين، أولهما: مساعدة عمه، والآخر: حتى يبتعد عن «تماضر» أكبر وقت ممكن.

مع مرور الوقت، بدأ «خورشيد» يحب الصبي ويغيّر فكرته عنه، خاصة أن «عبد الرحمن» كان شديد التحمل، على عكس ما يبدو عليه، لم ينجب «خورشيد» سوى فتاة واحدة تصغر «عبد الرحمن» بقليل؛ لذلك كان يجد في «عبد الرحمن» الصبي الذي لم ينجبه، بدأ كذلك يجده

مسليًا بشعره الذي يظل يلقيه عليه طوال النهار كلما طلب منه ذلك، كان «عبد الرحمن» ذكيًا، سريع التعلم والتأقلم.

في ذلك اليوم، ذهب «حميد» لإحضار «عبد الرحمن» من عند «خورشيد» والحصول على أجر اليوم كما هو معتاد، ما إن رآه «عبد الرحمن» حتى تهللت أساريره وذهب إليه قبل أن يصل إلى الدكان ليسلم عليه.. أحس «خورشيد» بوصول «حميد» فذهب إليه هو الآخر وسلم عليه ثم سأله:

- كيف حالك اليوم يا «حميد»؟

أجابه «حميد»:

- الحمد لله.

عاد «خورشيد» يقول له بعد أن تأكد من لهجته أنه ليس بخير:

- تبدو متعبًا.

هز «حميد» رأسه موافقًا إياه وهو يقول:

- كما تعرف يا سيدي، العمل مرهق والعائد قليل.

سكت «خورشيد» قليلًا كأنه يستجمع شجاعته قبل أن يقول:

- كلامك يشجعني على أن أعرض عليك ما كنت مترددًا في عرضه.

نظر إليه «حميد» بتساؤل ولم يتكلم، فاستطرد الرجل وهو ينظر إلى

«عبد الرحمن» الذي كان يقف ساكنًا وكأنه غير موجود:

- في البداية، عندما جئت بـ«عبد الرحمن» لم أكن موافقًا على أن أجعله يعمل معي، لكني الآن لم أعد أستطيع العمل من دونه.

ابتسم «حميد» برضا، على الرغم من أنه لم يفهم الغرض من تلك المقدمة.

استطرد «خورشيد» وهو يحاول البحث عن الكلمات المناسبة:

- لا أدري كيف أقولها، لكنك تعرف أنني لم أرزق بصبي، وقد أنجبتُ ابنتي «زهرة» على كبر، ولا أدري هل لي نصيب في أن أنجب مرة أخرى أم لا.

ثم سكت قليلًا قبل أن يضيف بتردد:

- أنا أريد أن يعيش معي هذا الصبي، ليكون لي بمثابة ولدي.

فوجئ «حميد» بمطلبه، فلم يعرف كيف يرد عليه، فقال له «خورشيد» بسرعة كأنه يخشى أن يرفض:

- خذ.. هذه أجرة اليوم، فكِّر جيدًا وأريد ردك في الغد، سوف أعوضك عنه بكل ما تطلب.

كان يشير إلى أنه سوف يدفع له ثمنًا مناسبًا للصبي، مد «حميد» يده وأخذ أجر عمل «عبد الرحمن»، أمسك «حميد» أجرة اليوم بيد والصبي

باليد الأخرى.. طوال الطريق ظل صامتًا شاردًا يفكر في شيء واحد.. هل يخبر «تماضر» بهذا العرض؟

* * *

- بالطبع توافق.. هل يمكن رفض هذا العرض؟

كان هذا هو رد «تماضر»، الذي كان يتوقعه زوجها ويخشاه، لكنه التردد الذي دفعه ليَخبر زوجته بالعرض، فهو في قرارة نفسه كان مترددًا؛ لأنه لو كان يريد الرفض لرفض على الفور دون أن يخبرها، نظر «عبد الرحمن» إلى زوجة عمه نظرة خاوية لا تنمّ عن أي شيء.. كان جالسًا بجانب عمه يأكل معه و«حميد» يقول لزوجته عن عرض «خورشيد»:

- لكن هذا العرض غريب، لم أكن أتوقعه.

فأجابته «تماضر» بسؤال:

- ولماذا تعتبره غريبًا؟

فرد عليها باستنكار:

- أليس غريبًا أن يطلب الرجل شراء ابني؟

أجابته «تماضر» بسرعة دون أن تكترث للصبي:

- هو يعرف أنه ليس ابنك.

نظر إليها «حميد» بحدّة معاتبًا؛ فالصبي كان بجانبه وكان يخاف أن

يجرح مشاعره، على أساس أن كل ما حدث معه لم يكسر معنوياته ويُشعره بأنه تحول إلى عبد يُباع في سوق النخاسة.

استطردت «تماضر» بطريقة مشجعة وهي تضع يدها على كتف «عبد الرحمن» بحنان لم يعهده:

- عيشُه مع «خورشيد» سوف يكون خيرًا له، سيعود إلى حياة الترف، ويكون بمثابة ابن له يساعده في عمله.. سوف تكون مطيعًا له يا «عبد الرحمن».. أليس كذلك؟

أجابها «عبد الرحمن» بحزن وقد فهم ما ترمي إليه:

- لا تخافي يا زوجة عمي.. لن أجعله يعيدني.

ثم قام من جانبها وهو يقول لعمه بصلابة:

- زوجتك عندها حق يا عمي، من الخير للجميع أن أذهب للعيش مع «خورشيد»، لكن يجب أن تقبض ثمنًا مناسبًا، فهذه الفرصة لن تتكرر؛ فأنا ابن أخيك الوحيد.

وتركه «عبد الرحمن» لينام، بينما هزت «تماضر» رأسها راضية عن كلامه:

- هذا هو صوت العقل.

لم يعقّب «حميد» على كلام زوجته، فقط نظر إليها باشمئزاز، فحتى لو

كانا يريدان التخلص من الصبي يجب ألا يكون بهذه الطريقة الواضحة، ثم تركها ودخل لينام في غرفته، لم يستطع ثلاثتهم النوم في هذه الليلة.

«تماضر» كانت تتملكها الفرحة وهي تتخيل ما يمكن أن تفعله بالمال..

«حميد» لا يستطيع النوم من وخز الضمير، لكنه يحاول أن يُقنع نفسه أنه مضطر.. «عبد الرحمن» يبكي من إحساسه بالقهر.

* * *

- هل اكتفيت يا «حميد»؟

سأله «خورشيد» بعد أن أعطاه أكثر بكثير مما اتفقا عليه، لكن «حميد» كان قد أخذ تعليمات صارمة من «تماضر» بأخذ أقصى ما يستطيع ثمنًا للصبي، فرد عليه «حميد» بتردد:

- نعم، ولكن...

قاطعه «خورشيد» غاضبًا:

- ولكن ماذا؟! لقد أخذتَ أكثر مما اتفقنا عليه.. لقد أخذت الدار التي في طرف القرية، وهذا المال يكفي لشراء دكان أو قطعة أرض تزرعها.. ماذا تريد أيضًا؟

أجابه «حميد» باستسلام واهن:

- لا شيء يا سيدي.. أشكرك.

فقال له «خورشيد» بصرامة:

- من الآن، ليس لك علاقة بالصبي، كأنك لا تعرفه، حتى لو رأيته مصادفةً في الطريق لا تتحدث إليه.

هز «حميد» رأسه في إذعان ونظر إلى «عبد الرحمن» من طرف خفي، لا يعلم لماذا تجمعت الدموع في عينيه وأرادت النزول، لكنه فعل ما فعل بملء إرادته.. انصرف بالمال إلى زوجته التي ستفرح به فرحًا شديدًا.. سوف يشتري الأرض المجاورة للمنزل الذي أخذه من «خورشيد»، ويبدأ حياة جديدة فيها شيء من الرخاء.. سوف يزوِّج بناته، لكنه لن يسمع مرة أخرى عن ابن أخيه، حتى لو سمع عنه فعليه أن يدَّعي أنه لا يعرفه.

في تلك الأثناء، كان «عبد الرحمن» يرتِّب البضائع التي في الدكان كعادته كل يوم؛ ليحصل عليها بسهولة إذا ما طلب منه مُشترٍ صنوفًا عدَّة من الأطعمة التي كان «خورشيد» يبيعها.

اليوم، «عبد الرحمن» لم يكن متعجلًا؛ لأنه يعرف أنه على كل حال لن يعود مع عمه الذي لم يعُد كذلك.. حاول أن يعطي نفسه أملًا في أن حياته مع «خورشيد» سوف تكون أفضل، كان غارقًا في أفكاره التي تطارده حتى وهو منشغل في عمله عندما شعر بذلك الرجل الواقف عند

باب الدكان.. كان ضخمًا.. وجهه كأنه منحوت في الصخر.. يقف وراءه رجلان يبدو عليهما أنهما حارساه.. ذهب إليه «عبد الرحمن» لاعتقاده أنه يريد شراء شيء ما، وقف أمامه وقال له بأدب:

- هل تريد شيئًا ما يا سيدي؟

أجابه الرجل بصوتٍ هادئ دون أن ينظر إليه:

- أين «خورشيد»؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو يشعر بأهمية الرجل لأنه لم يقُل السيد «خورشيد» كعادة معظم من يعرف «خورشيد»:

- بالداخل يا سيدي.

لم ينتظر الرجل أكثر من ذلك، بل أزاح «عبد الرحمن» من أمامه ودخل هو والرجلان اللذان معه إلى حيث يجلس «خورشيد»، ما إن رآه «خورشيد» حتى هبّ واقفًا في احترامٍ شديد وهو يقول له:

- السيد «نسيم»! أهلًا ومرحبًا بك في...

أشار إليه «نسيم» بيده فسكت «خورشيد» على الفور، قال له «نسيم» باقتضاب وصرامة:

- هل أحضرت ما اتفقنا عليه؟

أجابه «خورشيد» بتلجلج:

- لقد أوشكت على الانتهاء من تدبير كل ما تحتاج يا سيدي.

فعاد «نسيم» يقول له متسائلًا:

- أي أنك لم تنته؟!

فتلعثم «خورشيد» من جديد وهو يرد عليه:

- المشكلة أن البضائع التي طلبتها كثيرة ومتنوعة، أنا أحاول أن أجمعها لك في أقصر وقت.

نظر إليه «نسيم» بصرامة من جديد ثم قال بحدّة:

- كم تحتاج من الوقت حتى تنتهي؟

زفر «خورشيد» في ارتياح وقال:

- أسبوع آخر.. أعدك أني لن أزيد عليه يومًا.

فعاد «نسيم» يسأله:

- والصِّبية؟

أجابه «خورشيد» بثقة:

- سوف أرسلهم مع البضائع.

هزّ الرجل رأسه وقال له وهو يخرج من الدكان:

- حسنًا.. سوف أنتظر ما طلبته منك في القلعة بعد أسبوع.

فهز «خورشيد» رأسه ممتنًا للرجل الذي ما لبث أن رحل حتى جاء إليه «عبد الرحمن» متسائلًا:

- من هذا الرجل يا سيدي؟

أجابه «خورشيد» وقد شعر بالارتياح لذهاب «نسيم»:

- إنه «نسيم»، أحد رجال «حسن الصباح» حاكم قلعة «ألموت».

عاد «عبد الرحمن» يسأله بشغف:

- وماذا يريد منك؟ وما حكاية الصِّبية هذه؟

أجابه «خورشيد» وهو شارد الذهن يُفكر في طريقة تدبير ما طلبه «نسيم»:

- إنه يريد شراء كمية كبيرة من الطعام لتخزينها في القلعة، أما الصِّبية فهو يريد مجموعة من الأولاد الصغار لتتم تربيتهم وتدريبهم على الجندية في القلعة من الصغر، للدفاع عنها بعد ذلك وليكونوا محاربين أشداء.

أحس «عبد الرحمن» برغبته في رؤية تلك القلعة، خاصة بعد طريقة كلام «خورشيد» عنها، فقال له:

- هل ستأخذني معك وأنت ذاهب لتسليم البضائع؟

هز «خورشيد» رأسه وهو يقول:

- بالتأكيد.. والآن اذهب؛ فهناك رجل يريد الشراء.

ذهب «عبد الرحمن» مسرعًا فرحًا.. يمنّي نفسه باليوم الذي سيذهب فيه لرؤية القلعة ومقاتليها الأشداء.

طريق القلعة

لم تكن دار «خورشيد» مثل دار «حميد» الضيقة، بل على العكس من ذلك، كانت لها حديقة صغيرة وسور يحيط بالحديقة والمنزل معًا ويجعلهما في الإطار نفسه، الدار نفسها واسعة، تتكون من طابقين.. هناك أيضًا إسطبل صغير للخيول بجانب الدار، في الحديقة كانت هناك زهرة ليست كأي زهرة، كانت «زهرة»، ابنة «خورشيد» الوحيدة والصغيرة المدللة تجري وتلعب مع خادمتها.. ما إن رأت والدها حتى أرادت الجري نحوه، لكنها عدلت عن ذلك عندما لاحظت الفتى الغريب القادم معه، كانت «زهرة» فتاة جميلة، رقيقة، كأنها خارجة للتوّ من قصة أسطورية.. بيضاء الوجه.. شعرها الناعم الطويل يستريح على كتفيها ويتطاير يمينًا ويسارًا مع جريها.. كانت خجولًا لأنها كانت ممنوعة من الخروج أو اللعب مع الفتيات، لخوف أمها الشديد عليها، اقترب والدها منها ومن خلفه يمشي «عبد الرحمن» بخجل، انحنى «خورشيد» على ابنته وقبّل رأسها وهو يسألها بحنان:

- كيف حالك اليوم يا «زهرة»؟

أجابته وهي تختلس النظر إلى «عبد الرحمن»، الذي كان يطرق ناظرًا إلى الأرض في خجل:

- بخير الحمد لله.. لقد كنت ألعب مع «فاطمة».

نظر «خورشيد» إلى الخادمة وسألها:

- أين سيدتك يا «فاطمة»؟

أجابته الخادمة على الفور وهي تشير إلى الدار:

- تنتظرك بالداخل يا سيدي.

هز «خورشيد» رأسه كأنه يفكر في شيء ما، ثم قال لابنته والخادمة وهو يشير إلى «عبد الرحمن»:

- هذا هو الفتى الذي حدثتكما عنه.

نظرت إليه الخادمة ولم تعلق، بينما مدّت «زهرة» يدها لتسلم عليه.. نظر «عبد الرحمن» إلى «خورشيد» كأنه يستأذنه في السلام عليها، فابتسم وقال له:

- سلّم عليها يا «عبد الرحمن»، لا تخجل، سوف تكون بمثابة أختك.

فسلّم عليها «عبد الرحمن».. استطرد «خورشيد» موجهًا حديثه للخادمة:

- سوف أترك «عبد الرحمن» معكما لتتعرفا إليه بينما أتحدث إلى سيدتك بعض الوقت.

ثم وجه حديثه لـ«عبد الرحمن»:

- تكلّم معهما قليلًا حتى أعود إليك.

هز «عبد الرحمن» رأسه موافقًا؛ فقد كان على كل حال لا يملك إلا طاعته، ترك «خورشيد» الصبي مع الفتاة التي كانت تنظر إليه بانبهار وتفحّص؛ فهي نادرًا ما تتعامل مع أي أحد من العالم الموجود خارج سور الحديقة، بينما كانت الخادمة تنظر إليه بشك بلا سبب واضح غير الريبة المعتادة من الغرباء، دخل «خورشيد» إلى الدار ليجد زوجته في انتظاره، كانت تجلس في ترقب وهمٍ واضحَين عليها.. حاول «خورشيد» أن يبتسم عندما رآها لكنه لم يستطع، خرجت كلماته مهتزة غير ثابتة وهو يسألها بطريقة رسمية ورتيبة:

- كيف حالك يا «وجد»؟

تنهدت الزوجة في ملل وأجابته بسؤال:

- هل أحضرت الصبي؟

كان «خورشيد» يتوقع السؤال؛ لذلك أجابها على الفور:

- لقد اتفقنا وانتهى الأمر.

حاول «خورشيد» بإجابته أن يُنهي حوارًا لم يبدأ ويتوجه نحو غرفته، لكن زوجته استوقفته وقالت له بلهجة تجمع بين الغضب والعتاب:

- لا.. لم نتفق، لقد أصدرتُ حُكمًا وأنهيت الكلام.

وضع «خورشيد» يده على كتفها بحنان وقال لها:

- أنا لا أعرف لماذا تكرهينه دون حتى أن تريه!

فأجابته «وجد» بصرامة وهي تزيح كتفها من تحت يده:

- أنا لا أكره الصبي، لكني أكره الفكرة نفسها.. عندنا بنتنا.. ليست لنا حاجة في الصبي.. أم أنك مُصِرّ على تذكيري بعدم قدرتي على إنجاب غير «زهرة»؟

أجابها «خورشيد» وهو يحاول أن يربت على كتفها من جديد:

- أنتِ تعرفين أنني أفعل هذا كله من أجلك أنت و«زهرة»، أريد أن أطمئن على وجود سند لكما إذا ما حدث لي مكروه، ثم إنك تعرفين أنني أحتاجه كي يساعدني في التجارة.

ثم أضاف مداعبًا وهو يغمز بعينه حتى يقلل من حدة الموقف:

- تعلمين أنني هرمت وصرت عجوزًا.

لم تكترث زوجته لدعابته وقالت له بجدية:

- كان يكفيك أن تأتي بأي شخص يساعدك في البيع، لا أن تتبنى الصبي.

رد عليها «خورشيد» وهو يزفر في ضيق:

- تعرفين أنني لا أثق في أي شخصٍ بسهولة؛ لذلك أعمل بمفردي منذ سنوات، ولم أفكر في هذه الفكرة إلا بعد أن عرفت حكاية الصبي.. على العموم يا «وجد» جرِّبي أن يظل الصبي معنا، وكما وعدتك لو لم تستريحي معه فسوف أعيده إلى عمه.

كان هذا آخر ما قاله «خورشيد» قبل أن يذهب إلى غرفته لينَهي الجدال ويغيِّر ثيابه، بينما اتجهت زوجته إلى النافذة الصغيرة الموجودة في جدار البيت والمطلة على الحديقة لترى الصبي، الذي كان قد بدأ يعتاد على «زهرة» و«فاطمة» ويتحدث معهما بحرية، يضحك معهما ويُضحكهما، يبدو على «زهرة» أنها فرِحة بوجوده، بينما كانت الخادمة لا يعنيها الأمر كثيرًا، أما «وجد» فقد نظرت إليه بحقد شديد، كان وجوده في الدار يذكِّرها بفشلها في إنجاب الصبي الذي يساعد والده ويحمل عنه الهم في كبره؛ لذلك اتخذت «وجد» قرارها بالتخلص من الصبي.. التخلص منه بأيّة وسيلة.

* * *

كانت «زهرة» تجد «عبد الرحمن» مسليًا؛ فقد كان أول صبي تتعامل معه عن قرب، وقد أحبته «فاطمة»، الخادمة، لشعره وطريقة حديثه المتزنة؛ لذلك دخلتا معه البيت عندما ناداه «خورشيد» ليريه غرفته.

دخل «عبد الرحمن» لتقع عيناه على «وجد» التي كانت تنظر إليه بكراهية لم تستطع أن تخفيها، قال له «خورشيد» وهو يشير إليها:

- هذه «وجد» زوجتي يا «عبد الرحمن».. سلِّم عليها.

مد «عبد الرحمن» يده نحوها:

- أهلًا بك يا سيدتي.

فأشاحت عنه بوجهها ولم تمد يدها نحوه وهي ترد بفتور:

- أهلًا بك.

تأكد «عبد الرحمن» من مشاعرها نحوه، التي كانت ظاهرة على قسمات وجهها ومن نظراتها، وحتى لا يطول الأمر أكثر من ذلك تدخَّل «خورشيد» وقال للخادمة:

- اذهبي مع «عبد الرحمن» لتريه غرفته.

فأشارت «فاطمة» إليه أن يتبعها، بينما قالت «زهرة» لوالدها بتوسل:

- هل أذهب معهما للغرفة؟

فهز والدها رأسه بالإيجاب وهو يقول:

- تفضلي يا حبيبتي.

بعد أن ذهبت «زهرة» قالت له زوجته:

- هل يعجبك تعلق الفتاة به؟

أجابها «خورشيد» بلا مبالاة:

- وماذا فيه؟

عادت تقول له بغضب:

- ابنتك لم تعد صغيرة، بضع سنين وتصبح في سن الزواج.. ماذا لو أحبت ذلك اليتيم؟

ضحك «خورشيد» لحديث زوجته، فعادت تقول له بجدية:

- أنا أتحدث بجدّ.. هل يمكن أن يأتي اليوم الذي تتزوج فيه البنت من ذلك الفتى؟

لم يُرِد «خورشيد» أن يجيبها؛ لأنه كان في داخله يتمنى أن يصير «عبد الرحمن» ساعده الأيمن في كل شيء، فيكسبه كابن، ويتزوج ابنته فلا يخرج ماله لشخص غريب.. لكن تلك الأفكار بالطبع لن تقبلها زوجته؛ لذلك آثر النظر إليها في صمت.

في تلك الأثناء، كان «عبد الرحمن» يتفقَّد غرفته الجديدة.. كانت واسعة ونظيفة، لكنه كان مهتمًا بـ«وجد»، وبينما كانت الخادمة ترتب له ما كان معه من حاجيات كان هو منشغلًا بالتفكير في تلك السيدة التي أظهرت كرهًا مبكرًا، سأل «فاطمة» التي كانت ترتب ملابسه في صندوق خاص بها:

- هل هناك ما أغضب السيدة «وجد»؟

فهمت «فاطمة» سبب السؤال، ربما لو لم تكن «زهرة» معهما لحكت له عن مشكلة سيدتها مع الإنجاب، لكن وجود «زهرة» جعلها تتحفَّظ في الحديث معه، فأجابته:

- لا تهتم يا «عبد الرحمن»، السيدة «وجد» طيبة القلب، لكن هناك دائمًا ما يشغل بالها.

فعاد «عبد الرحمن» يقول:

- لكنني أحسست أنها تكرهني، لا أدري لماذا، إنها أول مرة أراها فيها!

هنا تدخَّلت «زهرة» وقالت بلهجة المدافعة عن والدتها:

- لماذا ستكرهك وهي حتى لا تعرفك؟ عندما تتكلم معك سوف تحبك؛ لأن حديثك مسلٍّ، مَن الذي علّمك كل هذا الشعر والحكايات التي حكيتها لنا؟

أجابها «عبد الرحمن» بتأثر وقد تذكَّر والدته:

- أمي.. هي من علمتني كل شيء.

فعادت «زهرة» تسأله ببراءة:

- وأين هي الآن؟

أطرق «عبد الرحمن» بوجهه إلى الأرض حتى لا ترى «زهرة» دمعته التي يجاهد ليحبسها:

- لقد ماتت مع والدي.. قتلهما اللصوص.

كانت «فاطمة» تستمع لحديثهما دون أن تتدخل، لكن كلماته الأخيرة أثارت فضولها فسألته:

- كيف حدث ذلك؟

فجلس «عبد الرحمن» على الأرض وقال لهما:

- هذه حكاية طويلة.. إذا كنتما تريدان سماعها فاجلسا وأنا أحكيها لكما.

فجلست «زهرة» بجواره وجلست «فاطمة» أمامهما لتستمع إلى قصة رحلته من «ساڤا» إلى «رود بار».

* * *

- «فاطمة».. هل ستنامون بالطابق الأعلى؟

كان هذا صوت «خورشيد» ينادي على الخادمة التي تأخرت كثيرًا لتستمع إلى قصة «عبد الرحمن»، والتي نزلت مهرولة وهي تردد:

- نعم يا سيدي؟ أنا آسفة، لقد أخذنا الحديث.

عاد «خورشيد» يقول لها وهو يبتسم:

- جهِّزي لنا الطعام.

فذهبت إلى المطبخ وهي تقول:

- أمرك يا سيدي.

لم تبتعد كثيراً حتى قالت لها «وجد» فجأة وكأنها تذكرت شيئًا ما:

- أين «زهرة»؟

أجابتها الخادمة وهي في طريقها إلى المطبخ:

- إنها تتحدث مع «عبد الرحمن».

انتفضت «وجد» وجرت إلى غرفة «عبد الرحمن»، و«خورشيد» يتبعها بعينيه قبل أن يقوم ويلحق بها، دخلت «وجد» الغرفة لتجد «زهرة» تجلس أمام «عبد الرحمن» وهو ما زال يحكي حكايته، فصرخت بأعلى صوتها:

- ابتعد عن ابنتي أيها اللقيط.

نظر إليها «عبد الرحمن» بدهشة دون أن يغيِّر من جلسته، بينما قامت «زهرة» من أمامه وقالت لأمها متسائلة بتعجب:

- ماذا حدث يا أمي؟!

أزاحتها أمها من طريقها واتجهت نحو «عبد الرحمن» الذي وقف عندما اقتربت منه السيدة التي قالت له بغضب:

- لا تضع يدك على ابنتي مرة أخرى.

نظر إليها «عبد الرحمن» بتحدٍّ وقال لها:

- لكنني لم ألمسها، ثم إنني لستُ لقيطًا.

زادت كلماته من غضبها فقالت له:

- هل تتهمني بالكذب أيها اللقيط؟!

ردَّ عليها «عبد الرحمن» بغضب:

- قلت لك: أنا لستُ لقيطًا.. وأنت كاذبة.

كان ردُّها سريعًا لدرجة أنه لم يستطِع أن يتفاداه، كان الرد صفعة قوية على وجهه، لم يحرك «عبد الرحمن» ساكنًا، وقف كالصخرة الصماء، كأن شخصًا آخر هو من أخذ هذه الصفعة، بينما بكت «زهرة» وكأن يد أمها نزلت عليها هي، كان «خورشيد» قد وصل إلى الغرفة لكنه لم يستطع أن يتدخل إلا بعد الصفعة فصرخ فيهم:

- يكفي هذا.. خذي ابنتك وانزلي.

أمسكت «وجد» بيد ابنتها وجرّتها خلفها إلى خارج الغرفة، بينما ظل «خورشيد» ينظر إلى «عبد الرحمن» دون أن يتحدث.. ظن «عبد الرحمن» أنه يشك فيه فقال له والكلمات تتدافع من فمه:

- أنا لم أفعل أي شيء يا...

قاطعه «خورشيد» وهو يشير إليه بيده:

- أنا أعرف كل شيء يا «عبد الرحمن».

ثم التفت إلى الباب ليخرج وهو يقول له:

- هل ستنزل لتأكل معي؟

أجابه «عبد الرحمن» بصوت منكسر:

- شكرًا يا سيدي.. سوف أنام، لأني تعبت اليوم.

لم يلحّ عليه «خورشيد» لأنه يعلم جيدًا أنه من الطبيعي ألا يكون له رغبة في الطعام بعد كل ما حدث معه اليوم، فخرج وأغلق الباب خلفه، وعندما خرج جلس «عبد الرحمن» قليلًا على الفراش قبل أن يتوارى تحت الغطاء ويبدأ في البكاء.

* * *

لم يستطع «خورشيد» النوم، ظل ليلته يتقلب على الفراش يفكر فيما حدث بين زوجته و«عبد الرحمن».. كانت زوجته قد نامت وبات هو يفكر، كان يعرف أن زوجته لن تتقبل فكرة وجود «عبد الرحمن» في المنزل، لكنه لم يكن يتوقع أن تبدأ الصراع مبكرًا هكذا، أو أن تتهمه بتلك التهمة الساذجة، كان يحاول أن يُطمئن نفسه بأنها ربما تعتاد عليه مع

مرور الوقت، لكنه الآن يعرف جيدًا أن الأمر سيكون أصعب مما يتصور..

وبينما كان منهمكًا في أفكاره، سمع صوت خطوات تسير بحذر في الخارج، بدأ القلق يدق باب قلبه.. هل يحاول «عبد الرحمن» الهرب بعد ما حدث له اليوم؟

فتح باب غرفته ببطء وهدوء حتى صنع فرجة صغيرة تسمح له برؤية الرواق بالخارج، وقعت عيناه على ابنته الصغيرة تمشي بحذر.. تعجّب لأنه ليس من عادتها التسلل هكذا بالليل، هل ارتبطت بالصبي إلى هذا الحد؟!

ظل يراقب ابنته فلاحظ أنها نزلت الدرج وذهبت إلى المطبخ.. هل أصابها الجوع فجأة؟! بعد قليل عادت بالطعام وذهبت به إلى غرفة «عبد الرحمن».. تحرك «خورشيد» في خفة ووقف خلف باب غرفة «عبد الرحمن» ليتسمّع ما يدور بالغرفة، بالطبع لم يرَها وهي تهز «عبد الرحمن» لتوقظه، لكنه سمعها وهي تقول له بإشفاق:

- استيقظ يا «عبد الرحمن».

جلس «عبد الرحمن» فزعًا وفرك عينيه وهو يسأل بذعر:

- ما الذي حدث؟

أجابته «زهرة» ببراءة:

- لقد أحضرت لك الطعام.

عاد «عبد الرحمن» يسألها بدهشة:

- أي طعام؟

أجابته «زهرة» باللهجة الساذجة نفسها:

- أنت لم تأكل أي شيء منذ أن وصلت و...

قاطعها «عبد الرحمن» بسرعة:

- يجب أن تعودي إلى غرفتك بسرعة، لو رأتك أمك هنا لن يحدث خير.

عادت «زهرة» تقول له:

- لا تخَف.. لقد نامت أمي، وهي لا تستيقظ بالليل أبدًا.

رد عليها «عبد الرحمن» بخوف:

- حسنًا.. اذهبي الآن، وشكرًا على الطعام.

فقالت له «زهرة» بترقب:

- سوف تبقى معنا.. أليس كذلك؟

هز «عبد الرحمن» رأسه وقال لها وهو يدفعها إلى الخارج حتى يتخلص منها:

- لا تخافي، سوف أبقى.

كانت «زهرة» قد اقتربت من باب الغرفة عندما قالت له:

- أنا لم أشعر من قبلُ بالسعادة التي شعرت بها اليوم عندما تكلمنا معًا.

توقف «عبد الرحمن» عن دفعها وسألها:

- ألا تلعبين مع أي أحد؟

أجابته «زهرة» بحسرة:

- أمي تمنعني من اللعب مع أولاد الجيران أو الذهاب إلى أيِّ من أقربائنا.

ربت «عبد الرحمن» برفق على كتفها وقال لها:

- حسنًا، سوف نلعب معًا من الغد.. لكن الآن عودي إلى غرفتك.

أحس «خورشيد» بابنته قد اقتربت من الباب لتخرج، فهرول مسرعًا إلى غرفته، تدثَّر بالغطاء بجانب زوجته، لكنه لم يستطع النوم، ظل طوال الليل يفكر فيما ستحمله الأيام المقبلة بين «عبد الرحمن» وزوجته، خاصة بعد تعلق «زهرة» بـ«عبد الرحمن» بهذه الطريقة من أول لقاء، الأمر الذي من الواضح أنه سيزداد مع مرور الوقت.

* * *

كان العمل في اليوم التالي شاقًّا، طوال اليوم يدور «عبد الرحمن» ويتحرك هنا وهناك كأنه نحلة لو لم تجمع ما طُلب منها من رحيق سوف تُقتل ويُمثَّل بجثتها، يذهب إلى بعض التجار برسالة من سيده

يطلب فيها بعض البضائع، ثم يعود ومعه البضائع ومن يحملها له لكثرتها، يبدأ بمفرده في فرزها وإعادة ترتيبها.. دخل عليه «خورشيد» وهو منهمك في عد أحد الأصناف فسأله:

- هل وصل الدقيق الذي طلبناه من السيد «عامر»؟

أجابه «عبد الرحمن» دون أن ينظر إليه لانهماكه:

- لقد أرسل نصف ما طلبنا فقط، يقول إن الدقيق ناقص في الأسواق كلها.

زفر «خورشيد» بغضب وقال:

- أنا أعرف أنه يكذب، ربما وصلته أخبار عن الأزمة التي ستحدث لو صحت تلك التكهنات.

رد عليه «عبد الرحمن»:

- لو كنت تقصد هجوم السلاجقة المحتمل، فالناس جميعها بالسوق تتحدث عنه.

نظر إليه «خورشيد» بدهشة وقال:

- كيف تسرّب الخبر بتلك السرعة؟ السيد «نسيم» هو من أخبرني وأنا لم أخبر أحدًا!

رد عليه «عبد الرحمن» وهو يبتسم:

- ربما من أخبرك أخبر غيرك.. لقد رأيت السيد «نسيم» اليوم في السوق يدور على التجار ويجمع كل ما يقدر عليه من بضائع.

ازدادت دهشة «خورشيد» وسأله:

- هل عرف أنك رأيته؟!

أجابه «عبد الرحمن» بسرعة كأنه كان يتوقع السؤال:

- لقد ابتعدت عنه بسرعة كأني لم ألحظه.. أظنه لم يرَني.

هزّ «خورشيد» رأسه في رضا وتمتم:

- حسنًا ما فعلت.

همّ «خورشيد» بالخروج من المخزن، لكن «عبد الرحمن» استوقفه:

- ما حكاية الصِّبية الذين يريدهم منك السيد «نسيم»؟ لقد أخبرتني القليل عنهم من قبل، لكني أريد أن أعرف المزيد.

توقّف «خورشيد» وقال له وهو يبتسم:

- إنها حكاية شائقة وجميلة، لقد تعبت اليوم بما فيه الكفاية.. تعالَ معي لنستريح قليلًا وأحكي لك حكاية أعظم فرسان يصنعهم «حسن الصباح».

خرج «عبد الرحمن» معه على الفور؛ فقد أشعل «خورشيد» شغفه بتلك

المقدمة، جلسا أمام الدكان وقد هدأت الحركة في السوق، قال له «خورشيد»:

- في كل المدن والقرى الواقعة على نهر «الديلم»، ومنها قريتنا، صارت الحياة قاسية.. هذه المنطقة دائمًا مهملة من الجميع.. من يتحكم فيها هم النبلاء أصحاب المال، وأحمد الله أنني منهم، كلما رأيت البؤس والفقر اللذين يعيش الناس فيهما أتمنى أن أفر بمالي وأهلي إلى مكان آخر، لكني أعود فأقول لنفسي: إلى أين؟ لقد عشت عمري كله هنا.. فكرت في الذهاب إلى «مصر»، حيث الخليفة الفاطمي، لكن السفر صار خطرًا، وأنت قد جربت.

تذكَّر «عبد الرحمن» ما حدث معه فترقرقت الدموع في عينيه، لاحظ «خورشيد» تأثره، وأنه لم يكن عليه أن يذكِّره بأهله، فاستطرد على الفور:

- الفقر هنا يجعل الناس على استعداد لبيع أي شيء، حتى أبناءهم.

تذكَّر «خورشيد» ما حدث مع «عبد الرحمن» وعمه على الرغم من أنه لم يكن يقصده هذه المرة، فعاد يقول بسرعة:

- المهم، أنت تعرف أن السيد «حسن الصباح» هو حاكم قلعة «ألموت»، وأنه مندوب عن المهدي والخليفة الفاطمي، وواجب على كل إسماعيلي

أن يتبعه، هذا الرجل يأخذ الشبان فيما بين الثانية عشرة والعشرين، يدربهم ليكونوا أقوى الفرسان وأشرس القتلة وأمكرهم.

تنبهت حواس «عبد الرحمن» لكلمات «خورشيد» الأخيرة وقال له:

- لقد كان والدي يريد أن أصير فارسًا.

رد عليه «خورشيد» بسرعة:

- لكنك ستكون تاجرًا مثلي الآن.

ابتسم «عبد الرحمن» في أسى:

- لقد كنت أريد أن أصبح شاعرًا، على كل حال لن أصبح ما أريد.

ثم استطرد ليجعل «خورشيد» يكمل حكايته:

- وكيف تحصل له على الشبان؟

أجابه «خورشيد»:

- هناك من يأتي بإرادته ليأخذ المال ويسلِّمنا ابنه، الكثيرون يتطوعون.. ننتقي أفضل من يصل إلينا.. هل تعرف لماذا يريد الكثيرون الذهاب إلى هناك؟

هز «عبد الرحمن» رأسه نافيًا، فاستطرد «خورشيد» الذي لم يكن ينتظر إجابة منه على كل حال:

- من أجل الجنة.. «حسن الصباح» يُدخلهم الجنة ويعيدهم منها، من رأى جنته يمكنه أن يفعل له أي شيء حتى يعيده إليها.

سأله «عبد الرحمن» بدهشة:

- هل يمكنه أن يُدخل من يشاء الجنة؟

هز «خورشيد» رأسه بالإيجاب وهو يقول:

- إنه يدخلهم إليها بالفعل، ومن أجل ذلك يطيعه أتباعه طاعةً عمياء.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها «عبد الرحمن» ذلك الكلام، لم يكن يملك من العلم ما يجعله يصدق أو يكذب، كان لا يملك إلا الاندهاش مما سمعه، كان متأكدًا من أن والديه في الجنة لأنهما كانا شديدَي الطيبة، هل يمكن لحسن الصباح أن يُدخله الجنة ليراهما؟! إنه يفتقدهما بشدة، أخرجته وكزة «خورشيد» الرقيقة من شروده في أفكاره، قال له وهو ينظر حوله في ملل لأن السوق كان هادئًا:

- هيا بنا يا «عبد الرحمن»، لقد تعبنا بما فيه الكفاية هذا اليوم، هيا بنا نعود إلى البيت.

* * *

ظلَّ «خورشيد» طوال أيام الأسبوع يحاول جمع ما يستطيع من مؤن وبضائع من أجل القلعة في ظل ظروف صعبة؛ لأن جميع التجار الكبار

كانوا يخفون البضائع بعد أن سمعوا بالهجوم الوشيك للسلاجقة على معاقل الدعوة الإسماعيلية؛ لذلك كان عليه أن يدور هو و«عبد الرحمن» طوال النهار على صغار التجار يجمعان منهم ما يستطيعان بعد أن يغريهم «خورشيد» بأضعاف أثمان سلعهم.

أوشك الأسبوع على الانتهاء، وقارب «خورشيد» على جمع البضاعة المطلوبة منه، لكن «عبد الرحمن» حتى الآن لم يرَه يأتي بشاب واحد من الذين طلبهم منه «نسيم»؛ لذلك سأله محذرًا:

- ألن نبحث عن الشبان الذين طلبهم منك السيد «نسيم»؟

فهزّ «خورشيد» رأسه وهو يجيب:

- نعم.. لن نبحث عن أحد.

فنظر إليه «عبد الرحمن» بتعجب، فاستطرد «خورشيد» موضحًا:

- لقد اتفقتُ مع معظمهم.. سيحضرون في الغد قبل أن أذهب بالبضاعة إلى القلعة.. بالمناسبة، هل تعرف «سلام»؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو يتطلع إليه:

- هل تقصد ابن بائع الشعير؟

رد عليه «خورشيد» وهو يهز رأسه:

- نعم.. سوف يرسله والده معي إلى القلعة.

تملكت الدهشة من «عبد الرحمن» وقال:

- لماذا سوف يفعل به والده ذلك؟! «سلام» ولد طيب ومطيع، يساعد والده في التجارة، ولا أظن أن والده لا يقدر على الإنفاق عليه.. لماذا فعل ذلك؟

ضحك «خورشيد» وهو يرد عليه بسخرية:

- زوجته السبب.. لقد كان متزوجًا من امرأتين، كانت إحداهما أم «سلام» وماتت.. وعندما انتقل «سلام» للعيش مع زوجة أبيه لم تُطقه لحب أبيه الشديد له.

رد «عبد الرحمن» بأسى:

- مثل ما حدث معي تقريبًا، الظاهر أن التخلص من الأبناء شديد السهولة في هذه المنطقة.

غيّر «خورشيد» دفة الحديث لأنه لا يحب الخوض في هذا الموضوع:

- لقد انتهينا من جمع البضائع التي يريدها «نسيم».. هيا بنا نعود الآن إلى البيت؛ لأننا في الغد عندنا رحلة صعبة إلى القلعة.

أغلقا الدكان وسارا إلى البيت، حيث كان من العادة أن يريا «زهرة» تلعب في الخارج مع «فاطمة»، لكن اليوم لم يكن هناك أحد يلعب بالخارج.

عندما دخلا كانت «وجد» تجلس بطريقة توحي بأن هناك شيئًا ما حدث، و«زهرة» تجلس بالقرب من «فاطمة» متوترة وخائفة، دخل «خورشيد» فسلّم عليهن، بينما توجّه «عبد الرحمن» إلى غرفته مباشرة دون الحديث إلى أحد، لكنه سمع «وجد» تقول له بلهجة ساخرة متشفية:

- إلى أين أنت ذاهب؟

توقّف «عبد الرحمن» ورد عليها دون أن ينظر إليها:

- سوف أذهب إلى غرفتي.

فقالت له «وجد» بالطريقة الساخرة نفسها:

- هل أصبحت غرفتك بالفعل؟ حسنًا، هل تريد أن تطمئن على هذا؟

كانت قد تحركت ووقفت أمامه وعلقت أمام عينيه عقدًا من الذهب، فرد عليها متسائلًا بعدم فهم:

- وما هذا؟

أجابته «وجد» بحدة:

- العقد الذي سرقته.

لم يفهم «عبد الرحمن» ما الذي تعنيه، فوقف مبهوتًا حتى تدخَّل «خورشيد» قائلًا لزوجته بغضب:

- ما هذا الذي تقولين يا «وجد»؟

نظرت إليه بغضب هي الأخرى وقالت بتحدٍّ:

- لقد ضاع هذا العقد مني، ظللنا نبحث عنه في البيت كله حتى وجدناه مخبأً في ثيابه بالغرفة التي يقول عنها إنها غرفته.

كان «خورشيد» يعرف أنها تكذب فعاد يسألها بشك:

- ومن الذي وجده؟

أجابت على الفور وهي تشير إلى الخادمة:

- «فاطمة».. «فاطمة» هي التي وجدته، وليس أنا.

نظر «خورشيد» إلى «فاطمة» وسألها:

- ما الذي جعلك تبحثين في ثيابه يا «فاطمة»؟

كانت «فاطمة» متأكدة من براءة الفتى فأجابت على الفور:

- سيدتي هي من أخبرتني بذلك.

نظر «خورشيد» إلى زوجته ثم هز رأسه في حسرة قبل أن ينظر إلى «عبد الرحمن» ويقول له في أسى:

- اذهب إلى غرفتك الآن يا «عبد الرحمن».

فهم «عبد الرحمن» الشَرَك الذي كانت تريده له «وجد»، ذهب إلى غرفته وسط صراخ «وجد» في زوجها، صعد إلى الغرفة وهو غارق في

التفكير، لم يكن يميز كلمات الصراخ والعويل الواصلة من الأسفل.. ظل يفكر في القرار الذي يريد أن يتخذه حتى أحس أن السكون قد صار سيد الموقف بالأسفل.. كانت «وجد» قد صعدت إلى غرفتها غاضبة وأمرت الخادمة أن تجلس مع الطفلة في غرفتها، وظل «خورشيد» بالأسفل بمفرده واضعًا رأسه بين يديه في حزن.. كان «عبد الرحمن» قد نزل إليه من جديد بعد أن تأكد من أنه صار بمفرده، وقف أمامه وقد آلمه أن يراه على هذا الحال، قال له وهو يجلس إلى جواره ويضع يده على كتفه:

- يا سيد «خورشيد».

رفع «خورشيد» رأسه وقال له:

- أنا أعرف أنك مظلوم يا «عبد الرحمن».

رد عليه «عبد الرحمن»:

- لا يهم يا سيدي.. لقد اتخذت قرارًا سيريحنا جميعًا.

نظر إليه «خورشيد» بترقب فاستطرد:

- أرسلني إلى القلعة.. مثلما فعل بائع الشعير مع ابنه.

تمتم «خورشيد» بكلمات اعتراضية غير مفهومة، لكن «عبد الرحمن» قاطعه بسرعة وإصرار:

- هذا هو الحل الوحيد، أنت تعرف جيدًا أنني لن أستطيع العيش مع

زوجتك في مكان واحد بعد الآن، يمكنك أن تجد لي مكانًا آخر للعيش حتى أظل أساعدك في التجارة، لكن ما فائدة العيش بمفردي دون أهل؟

ترقرقت العبرات في عيني «خورشيد» وقال له:

- لقد أحببتك كولدي يا «عبد الرحمن».

رد عليه «عبد الرحمن» وهو يحاول أن يبدو صلبًا:

- وأنا لم أجد أكرم منك ولا أحن بعد والديّ يا سيدي، لكن ربما حبك الشديد لي هو ما جعل زوجتك تفعل بي تلك الأفاعيل كلها.

ثم وقف وقال وهو يتطلع إلى الأعلى حيث كانت «فاطمة» و«زهرة» تنظران إليه ولم يكن قد لاحظهما قبل ذلك:

- لقد فشلت في تحقيق حلمي في أن أصير شاعرًا، لعلي أستطيع أن أحقق حلم والدي وأصير فارسًا.

* * *

في الصباح، كان «خورشيد» و«عبد الرحمن» يحملان البضائع على عربات تجرها الخيول، يساعدهما من سيأتي معهما من الشبان إلى قلعة «ألموت».. من بين هؤلاء كان «سلام» الذي ما إن رأى «عبد الرحمن» حتى أقبل عليه مسرعًا ليساعده.

عندما أصبحت تلك القافلة الصغيرة جاهزة للتحرك، وقف «عبد الرحمن» بجانب «سلام» وظلا يتحدثان معًا فناداه «خورشيد» وقال له:

- سوف نذهب الآن إلى القلعة.. هل قرارك هذا نهائي؟

هز «عبد الرحمن» رأسه وقال:

- ليس لدينا حل آخر.. لقد رأيت ما فعلَتْ زوجتك بالأمس، وأنا كذلك لا يمكنني العودة إلى زوجة عمي.

رد عليه «خورشيد» بلهجة تملؤها الشفقة:

- لكن حياة القلعة قاسية.

فردَّ عليه «عبد الرحمن» وهو يبتسم بمرارة:

- حياة مَن فقد والديه قاسية على كل حال.

لم يستطع «خورشيد» أن يجادله أكثر من ذلك، فقال وهو يحاول أن يبتسم:

- حسنًا، فلتبقَ بجانبي حتى نصل.. هيا بنا.

كان «خورشيد» يركب جواده ويسير بجانبه «عبد الرحمن» و«سلام» على الأقدام، ومن خلفهم الشبان الذين يأملون في حياة الفروسية يقودون الخيول التي تجر العربات المحملة بالبضائع التي طلبها «نسيم».

لم يكن الطريق طويلًا، لكنه كان شاقًا وغير ممهد، ما دفعهم إلى السير ببطء، حتى وصلوا إلى درب ضيق بين مرتفعين، كان ذلك الدرب شديد الانحدار، كثير المنعطفات، لا يمكن السير عليه بسرعة عالية، بل يجب السير فيه ببطء وحذر.

بدأت القافلة تكافح للسير في ذلك الطريق، نظر «عبد الرحمن» إلى «خورشيد» وسأله وهو يلهث:

- ألا يوجد طريق آخر غير هذا الطريق؟

فأجابه «خورشيد» وهو يلتفت إلى عرباته ليطمئن على بضاعته:

- هذا هو الطريق الوحيد المؤدي إلى القلعة.. سوف أخبرك لماذا اختار «حسن الصباح» قلعة «ألموت».

وبدأ في سرد قصة القلعة مع «حسن الصباح» فقال:

- لم يكن «حسن الصباح» في جولاته للدعوة يريد أن يكسب المزيد من المؤمنين بها فقط، بل كان أيضًا يبحث عن مركز لتلك الدعوة، كان يمكنه أن يجد بسهولة مكانًا مختبئًا في أي مدينة أو قرية، لكن ذلك سيجعله عرضة للكشف.. هو كذلك يريد مكانًا حصينًا يمكنه من خلاله توجيه ضربات للسلاجقة، بعد بحث طويل وقع اختياره على قلعة «ألموت».. إنها قلعة حصينة على أعلى قمة صخرة عالية، لا يمكن الوصول إليها إلا

من خلال هذا الطريق الذي نسير فيه، من الناحية الأخرى للقلعة يوجد واد مغلق صالح للزراعة يمر فيه نهر صغير ماؤه عذب، لو وُجدت في القلعة المؤن الكافية يمكن لمن فيها الصبر شهورًا على الحصار، وهي صعبة الاقتحام، أسوارها لا يمكن تسلقها.. الطريق المؤدي إليها ضيق ويمكن اصطياد مَن فيه بسهولة.. هم الآن يروننا من تلك الفتحات الموجودة في أبراج القلعة.. لولا أنهم يعرفون بوصولنا لكانوا قد استقبلونا استقبالًا آخر.

نظر «عبد الرحمن» إلى أبراج القلعة التي لاحت أمامه مهيبة مرتفعة ومخيفة.. استطرد «خورشيد»:

- هل تعرف لماذا سُمّيت بهذا الاسم.. قلعة «ألموت»؟

كان «خورشيد» يعلم أن «عبد الرحمن» لا يعرف، لكنها كانت طريقته المفضلة في جذب اهتمام السامع، فاستطرد بعد أن أشار «عبد الرحمن» بالنفي:

- الذي بنى هذه القلعة أحد ملوك إقليم «الديلم» القدامى.. خرج ذات مرة للصيد، وكان معه نسر مدرب على الصيد.. عندما أطلق النسر لاحظ أنه يعتلي تلك الصخرة دائمًا ويظل يتربص بفريسته في الوادي قبل أن ينقضّ عليها.. عرف الملك قيمة الصخرة العالية فبنى عليها تلك القلعة

وأغلق بها الوادي الذي كان يصطاد فيه النسر؛ لذلك كان اسمها «ألموت»، ما يعني في لسان أهل الديلم «تعليم النسر»، أي المكان الذي علمه النسر، أو «عش النسر»، فنحن ذاهبون الآن إلى «عش النسر»، لن يكون غريبًا أن نرى النسور في القلعة.. هم يستخدمونها في الصيد حتى الآن.

كانت القافلة قد ارتفعت كثيرًا عن الوادي الذي بدأت المسير منه، لكنهم الآن وصلوا إلى منطقة مستوية لا ارتفاع فيها.. عندما تتوقف عن الصعود تعرف أنك قد وصلت، وبالفعل كانوا قد وصلوا إلى باب القلعة الذي فُتح ليخرج منه «نسيم» يستقبلهم، تساءل «عبد الرحمن» في نفسه.. كيف عرف «نسيم» أنهم وصلوا؟ ثم تذكر أن مَن في القلعة يمكنه أن يرى القادم في الطريق بكل وضوح، سلّم «خورشيد» على «نسيم» - الذي كان متحفظًا كعادته - وهو يقول:

- أرجو أن أكون عند حسن ظنك يا سيد «نسيم»، لقد أتيت بكل ما طلبت.

ردَّ عليه «نسيم» وهو يقلب عينيه في العربات والشبان:

- سوف نرى.. هل البضاعة كاملة؟

أجابه «خورشيد» بسرعة:

- بالطبع يا سيدي.. لقد قلت لك إن كل شيء كامل.

نظر «نسيم» إلى الشبان الذين اصطفوا باحترام أمام العربات ومن بينهم يقف «عبد الرحمن» الذي ميّزه «نسيم» فسأل «خورشيد»:

- هؤلاء هم الشبان الذين طلبتهم.. أليس كذلك؟

فهز «خورشيد» رأسه بالإيجاب، فاستطرد «نسيم»:

- وما الذي جعل الصبي الذي يعمل عندك يقف معهم؟

أجابه «خورشيد» بتوتر:

- إنه يريد أن ينضم إليكم.

كان «خورشيد» يتمنى ألا يوافق «نسيم»، لكنه ردَّ عليه:

- هذا الفتى جيد.. لقد لاحظته وأنا بالسوق.. بمجرد أن لاحظ وجودي تخفَّى على الفور، لولا أني لمحته.

كان يريد أن يوصِل رسالة لـ«خورشيد» بأنه يعرف أن «عبد الرحمن» رآه بالسوق، وفي الوقت نفسه كان بالفعل معجبًا به.. هز «نسيم» رأسه في رضا وقال:

- حسنًا.. يبدو أن كل شيء على ما يرام.. تفضل يا «خورشيد» بقية مالك.

أخذ «خورشيد» كيس النقود فرحًا ثم نظر إلى «عبد الرحمن» الذي كان يتكلم مع «سلام» محاولًا ألّا ينظر إلى «خورشيد» حتى لا يغلبه البكاء في

لحظة الفراق، لكن «خورشيد» ذهب إليه ليسلم عليه وقال له بصوت متهدج:

- إلى اللقاء يا «عبد الرحمن».

فمدَّ «عبد الرحمن» يده ليسلم عليه، لكن «خورشيد» احتضنه ولم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء، حتى سمع صوت «نسيم» يأمره بالانصراف، فقبّله وركب جواده ليرحل، ظل «عبد الرحمن» يرقبه وهو يبتعد حتى سمع «نسيم» يقول لهم:

- هيا.. أدخلوا تلك العربات إلى الداخل.

كان «نسيم» قد أعطى «خورشيد» ثمن العربات والخيول أيضًا؛ فهم سيحتاجونها في القلعة على كل حال، بدأ الشبان يدفعون الخيول إلى القلعة.. نظر «عبد الرحمن» مرة أخيرة إلى الطريق الذي أتى منه، لكن «خورشيد» كان قد اختفى فتوجّه إلى القلعة وبابها يُغلق عليه حيث مأواه الجديد.

حصار

عبر «عبد الرحمن» باب السور الخارجي للقلعة، وكأنه يمر عبر بوابة بين عالمين، ليرى ما يشبه مدينة صغيرة بداخل تلك الأسوار العالية؛ حيث لاحظ خلفها تلك المنطقة العارية التي لا توجد بها غير مخازن السلاح والسلالم التي عن طريقها يصعدون السور الذي هو بمثابة الدرع الحقيقية لتلك القلعة؛ لذلك تجد عليه حراسة مشددة تجعل من المستحيل الدخول أو الخروج دون إذن سابق، أو التعرض لرشق النبال.

بعد أن عبر «عبد الرحمن» تلك المنطقة الخالية مع زملائه الجدد وجدوا أنفسهم في منطقة أخرى، عبارة عن مجموعة من البيوت الصغيرة المصطفة في نظام بجوار بعضها البعض، كلها متشابهة، لكن أحدها كان يبدو عليه أنهم يولونه عناية خاصة، كانت عليه حراسة مشددة وحوله مساحة خالية خاصة به، توقف «نسيم» أمام تلك الدار المميزة، فتكلم مع الحارس الواقف على الباب كأنه يستأذن في الدخول، أشار الحارس برأسه قبل أن يغيب في الداخل بعض الوقت ليعود ويشير لـ«نسيم» بأنه يمكنه الدخول.

لم يعرف أحد من الشبان الواقفين شيئًا عن الذي دار بداخل هذه الدار، ولم يعرفوا دار مَن تلك أو أهميتها، ولم يطل تفكيرهم، فـ«نسيم» لم يغِب كثيراً، بل خرج على الفور وبدأ بسرعة يتفحص الشبان الذين أحضرهم «خورشيد» وكأن مَن بالداخل طلب منه أن ينتهي من عمله سريعًا، كان يريد تقسيمهم بحسب أعمارهم؛ لذلك وجد «عبد الرحمن» نفسه يقف مع «سلام» بمفرديهما، فلم يكن هناك غيرهما في مثل عمريهما.

بدأ «نسيم» في توزيع المجموعات التي قام بتقسيمها من الشبان على بعض الرجال لتدريبهم حتى لم يتبقَّ غير الصبيين فأشار إليهما «نسيم» وهو يقول بلهجة آمرة:

- تعاليا ورائي.

سارا خلف «نسيم» حتى انتهت منطقة البيوت التي كانوا فيها، ليجدوا أنفسهم قد وصلوا إلى ساحة واسعة خالية أرضها مغطاة بالقرميد، وفجأة دون مقدمات أسقط «نسيم» العباءة التي كانت معلقة على كتفيه على الأرض وأمسك بعصا غليظة وحاول أن يضرب بها «عبد الرحمن»، لكن «عبد الرحمن» برد فعل سريع تفادى العصا فأصابت كتف «سلام» الذي

وقع على الأرض متأوهًا، لم يأبه «نسيم» للفتى الذي وقع على الأرض، بل ابتسم لـ«عبد الرحمن» وقال له بلهجة ذات مغزى:

- أنت أول صبي يفلت من الضربة الأولى.

لم يعرف «عبد الرحمن» بماذا يرد عليه، هو نفسه لا يعرف كيف أفلت منها، استطرد «نسيم» وهو يقف مستندًا إلى العصا:

- سوف تكونان تحت إشرافي، فأنا المسئول عن تدريب صغار السن.. هل تعرفان لماذا؟

كان «سلام» قد وقف بعد أن زال بعض الألم الذي سببته الضربة التي أخذها، فوقف بجانب «عبد الرحمن» الذي كان يستمع لـ«نسيم» الذي استطرد من جديد:

- الصغار تعليمهم أصعب، لكن الفائدة المرجوة منهم أكبر بكثير.

ترك «نسيم» العصا وقال لـ«عبد الرحمن»:

- ناولني عباءتي من على الأرض.

تردد «عبد الرحمن» قليلًا، كان يخشى أن يكون في الأمر خدعة ما، لكنه عندما رأى العصا ملقاة على الأرض استجمع شجاعته وحمل العباءة ليعطيها إياها. وضع «نسيم» العباءة على كتفيه من جديد وأمرهما باتباعه، سارا خلفه حتى ما عادا يعرفان أين هما أو من أين دخلا وإلى

أين يذهبان، وصلوا إلى ساحة أخرى بها مجموعة من الصبية كلهم يرتدون العباءات والعمائم السوداء، ما إن رأوا «نسيم» حتى وقفوا جميعًا في احترام، فأشار إليهم «نسيم» بالجلوس، فجلسوا جميعًا مرة واحدة بسرعة في سكون، قال «نسيم» للمستجدين وهو يشير إلى الصبية الجالسين:

- اجلسا بين هؤلاء الفرسان.

جلس «عبد الرحمن» و«سلام» بجانب بعضهما، بينما لم يلتفت إليهما أحد من الجالسين، بعد قليل وصل شيخ كبير في السن، ما إن رآه «نسيم» حتى أقبل عليه محييًا إياه وهو متهلل الأسارير:

- أهلًا بك يا شيخ «إدريس»، هذا موعد الدرس الأسبوعي، معنا اليوم ولدان جديدان.

نظر الشيخ «إدريس» متفحصًا وجوه الجالسين حتى توقفت عيناه على الصبيين، فهزّ رأسه في رضا وجلس على كرسي أمام تلاميذه الذين كانوا يجلسون على الأرض، بينما ظل «نسيم» واقفًا إلى جوار الشيخ ليستمع إليه، وبعد فترة وجيزة من الصمت قال الشيخ:

- لقد تكلمنا في المرة السابقة عن الاختلاف بيننا وبين الاثني عشرية، هل يستطيع أحدكم أن يذكر باختصار ما فهمه من الدرس السابق؟

رفع معظم الجالسين أيديهم فأشار الشيخ إلى أحدهم فقام وهو يجيب بسرعة:

- بعد وفاة الإمام «جعفر الصادق»، اعتقد البعض أن ابنه الأكبر «إسماعيل» قد حُرم من الإمامة وتبعوا أخاه الأصغر «موسى الكاظم» ونسله، لكننا نعتقد بإمامة «إسماعيل»، عليه السلام؛ لأنه كان أكبر الأبناء.

أشار إليه الشيخ «إدريس» أن يجلس وهو يهز رأسه في رضا قائلًا:

- حسنًا، هذا هو أساس الاختلاف بيننا وبينهم، لكننا اليوم سوف نتوقف عن الحديث عن تاريخ النشأة ونتحدث عن التفسير؛ تفسير القرآن، وللقرآن تفسير ظاهري، وهو الذي يعرفه الجميع، الجاهل والعالِم، الشيعي ومن يدَّعي أنه سُني، لكن هناك تفسيرًا آخرَ أهم، هو التفسير الباطني، المعاني التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الإمام، الوحي الذي يأتي للإمام.. تجليات الرب العلي والروح القدس على نفوس الأئمة تجعلهم يرون ما لا نرى ويسمعون ما لا نسمع.. لو أراد الإمام أن يحرِّك الجبال لحركها.. لو أراد أن يطبق السماء على الأرض لفعل؛ لذلك فللقرآن تفسير باطني لا يعلمه إلا الإمام ولا يمكن تعلمه إلا من خلاله.

كانت هذه هي المرة الأولى لـ«عبد الرحمن» التي يسمع فيها مثل هذا الكلام، أحسّ بحلاوة في كلام الرجل، أحسّ برهبة في المكان، أحسّ بقدسية الرجال، أحسّ أن عليه أن يصدِّق هذا كله، أحسّ أن عليه انتظار دخول الفردوس.

* * *

أول ليلة ستكون غالبًا أصعب ليلة، خاصة على «سلام» الذي كان يعيش في كنف والده قبل أن يأتي إلى القلعة، هذه هي أول ليلة له بعيدًا عنه، كان جميع الصبية ينامون في قاعة كبيرة على الأرض، يفترشون غطاءً رقيقًا ويتدثرون بآخر، كانت الأرض الصلبة تؤلم جانب «سلام» الذي ظل يتقلب دون توقف، ربما اعتاد باقي الصبية تلك النومة من مباشرتها كل ليلة، لكن يبدو أن «عبد الرحمن» رفيقه الجديد، والجديد مثله على المكان، لا يستطيع النوم كذلك، فقد رآه جالسًا على الأرض مسندًا رأسه إلى الحائط وينظر إلى السقف في صمت.. جلس «سلام» الذي كان ينام بالقرب منه وسأله بهمس حتى لا يوقظ أحد النائمين:

- لماذا لا تنام يا «عبد الرحمن»؟

ردَّ عليه «عبد الرحمن» دون النظر إليه:

- ولماذا لا تنام أنت؟

أجابه «سلام» وهو يزفر في ضيق:

- وكيف أنام على هذه الأرض الصلبة؟!

فهزّ «عبد الرحمن» رأسه وهو يقول وكأنه يتطلع إلى شيء ما لا يراه صاحبه بينما يراه هو:

- ليس هذا ما يؤرقني.

فسأله «سلام» بفضول من جديد:

- ما الذي يمنعك من النوم غير ذلك؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو ما زال ينظر للسقف:

- أفكِّر في الجنة.

تعجّب «سلام» من كلماته ورد بعدم فهم:

- أي جنة؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو ما زال ينظر في شرود:

- لقد قال لي «خورشيد» إن «حسن الصباح» يمكنه أن يرينا الجنة.. هل هذا الكلام حقيقي؟

هزّ «سلام» رأسه وهو يقول بتردد:

- لقد قال لي أبي الكلام نفسه، لكني لا أعرف، لقد ظننت ساعتها أنه يقول لي ذلك ليقنعني بالمجيء إلى هنا.

اعتدل «عبد الرحمن» في جلسته حتى واجه «سلام» ليسأله:

- هل ما زلت تحب والدك على الرغم من أنه أرسلك إلى هنا؟

نظر «سلام» إلى الأرض ولم يرد، لكن الإجابة كانت واضحة، زفر «عبد الرحمن» في ضيق وقال:

- لم أكن أتخيل أبدًا أنني سأصير إلى هذا الحال: يموت أبواي، فيبيعني عمي، ولا تطيقني زوجة الشاري فيرسلني إلى هنا.

أحسّ «سلام» بكآبة الموضوع الذي يتحدثان فيه فقال له مغيراً دفة الحديث إلى حديث آخر أكثر تشويقًا:

- هل تعرف أي شيء عن تلك الجنة التي يتحدثون عنها؟

أجابه «عبد الرحمن» بحماسة:

- يقولون إن فيها أنهارًا من خمر وماء ولبن وعسل وكل ما تشتهيه الأنفس وتحبه الأعين.. الأهم من ذلك أنه ليس فيها عمل ولا نصب.

فغمز «سلام» بعينه وهو يبتسم ويقول له مداعبًا:

- بالتأكيد فيها أيضًا الحور الجميلات، هذا أهم شيء في الجنة.

ابتسم «عبد الرحمن» ولم يرد عليه؛ لأنه كان يُفكر في أمر آخر، قال له بعد صمت وجيز:

- ربما أرى أمي وأبي فيها، يقولون إن من يموت من الصالحين يدخلها، أمي وأبي كانا كذلك، لم أرَ في حياتي أفضل منهما، بالتأكيد هما في الجنة الآن.

رد عليه «سلام» متسائلًا بفضول:

- وكيف سندخلها؟

سمعا الإجابة من صبي ثالث قال لهما بملل وهو يتثاءب بين اليقظة والنوم:

- ناما الآن، فأنا لا أستطيع النوم منكما، وفي الغد ستعرفان متى ستدخلان الجنة، ناما الآن وإلا أدخلتكما جهنم.

فأشار «عبد الرحمن» لـ«سلام» بالنوم، واضطجع هو الآخر على ما أصبح فراشه على الأرض، لكنه لم يستطع النوم، ظل مغمض العينين فترة طويلة يتخيّل الجنة، وفي النهاية عندما داهمه النعاس ظل يحلم بها، يراها أرضًا خضراء واسعة، سماؤها صافية، وأهم شيء أن فيها أباه وأمه.

* * *

عندما أحس «عبد الرحمن» بتلك الركلة الخفيفة توقظه فتح عينيه ليرى ذلك الحارس الضخم يشير إليه بالنهوض، قام من على الأرض ليجد أن الجميع قد استيقظ ويستعد للخروج عدا «سلام» الذي استيقظ للتوّ

مثله، ناوله الحارس عباءة وعمامة مثل الباقين وقال له بغلظة مبالغ فيها:

- البسهما واخرج في الحال.

أخذهما منه «عبد الرحمن» ولبسهما بسرعة، وكذلك فعل «سلام»، خرجا بعد أن كانا آخر اثنين، لم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ، والسماء لا تزال مظلمة، «سلام» يسير بالكاد وهو يجاهد لإبقاء عينيه مفتوحتين وكذلك كان يفعل «عبد الرحمن».

وقف «نسيم» في وسط الساحة التي تجمّع بها الفتية، وبدأ في تقسيمهم لمجموعات، كل منها يتدرب على شيء ما، إلا «عبد الرحمن» و«سلام»، تركهما للنهاية.. وعندما وصل إليهما لم يتكلم معهما، بل أشار إلى رجل أسود ضخم الجثة يقف إلى جانب الحائط يحمل في يديه السلاسل والأصفاد، اقترب منه الرجل ببطء لثقل السلاسل عليه على الرغم من ضخامته، فقال له «نسيم» وهو يشير إلى الصبيين:

- اربطهما بالسلاسل.

ابتسم الرجل في تشفٍّ وأمسك يد «عبد الرحمن» الذي لم يكن يفهم ما الذي فعله ليتم ربطه بتلك السلاسل الثقيلة، ربط الرجل يديه وقدميه بالسلاسل والأصفاد وفعل بـ«سلام» مثلما فعل بصاحبه، عندما تركهما

الرجل كانا بالكاد يستطيعان الوقوف لثقل السلاسل عليهما، وقف «نسيم» في نهاية الساحة التي كانت شديدة الاتساع ووضع قربة بها ماء ثم عاد إليهما وقال بهدوء وحيادية:

- هذا هو تدريب اليوم.. هل تستطيعان الشرب من تلك القربة؟

ثم أضاف بلهجة ساخرة:

- نصيحتي لكما أن تبدآ السير بجِد من الآن؛ فعند اشتداد الحر لن تكونا قادرَين على الوقوف، لو اعتمدتما على أنني سوف أشفق عليكما في نهاية المطاف، فسوف تموتان من العطش.

كانت تلك كلماته الأخيرة قبل أن يذهب ليباشر تدريبات بقية الصبية، نظر «سلام» إلى «عبد الرحمن» وسأله بعدم فهم:

- ماذا سنفعل الآن؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو يستجمع قواه:

- علينا الوصول إلى القربة ونحن نحمل تلك السلاسل، هذا كل ما في الأمر.

عاد «سلام» يقول له معترضًا:

- وكيف سنفعل ذلك؟! تتحدث كأنها خفيفة الوزن! أنا لن أستطيع أن أتحرك قيد أنملة.

رد عليه «عبد الرحمن» وقد بدأ في محاولة إزاحة تلك السلاسل معه في أثناء السير، فهو بالطبع لا يقدر على حملها:

- علينا المحاولة، فلا أظن أن هذا الرجل يداعبنا.

استسلم «سلام» لكلام صديقه وبدأ في محاولة دفع السلاسل معه في أثناء السير، كانا يشبهان سلحفاء مريضة مقلوبة على ظهرها تحاول جاهدة أن تقف على أقدامها، ساعات مرت عليهما وهما يتحركان ويتقدمان، ببطء، مسافات لقصرها ربما لا يمكن ملاحظتها، ظلا على هذا الوضع حتى الظهيرة، حيث الشمس تكون في منتصف السماء، لا يمكن أن تختبئ منها بسهولة، كانت الشمس على الصخرة العالية التي عليها القلعة حارقة وقاسية، كما كان الليل قارس البرودة، فكما تعذَّبا في الليل بالبرد يكتويان الآن بحرق الشمس لهما.

لم يكونا قد قطعا نصف المسافة عندما شعر «سلام» بأنه لم يعد يقدر على مواصلة السير الذي هو في الحقيقة أشبه بالزحف، فقال وهو يلهث من فرط التعب والعطش:

- لم أعد قادرًا على مواصلة السير، سوف أموت من العطش.

ردَّ عليه «عبد الرحمن» ، الذي لم يكن أقل منه تعبًا، لكنه أعلى منه إرادة:

- علينا أن ننجح في الاختبار، يمكن أن نستريح قليلًا ثم نواصل السير.

جلسا يتأملان الساحة من حولهما، وقد كانت فارغة تمامًا بعد أن أنهى جميع الصبية تدريباتهم وتحولوا إلى مكان آخر.

سمعا صوت «نسيم» من خلفهما يقول بسخرية:

- يبدو أنكما أضعف مما توقعت!

التفتا إليه دون أن يردا عليه، لم يقفا لأنهما لم يستطيعا النهوض.. اقترب منهما «نسيم» ووقف أمامهما قليلًا صامتًا قبل أن يضيف:

- حسنًا.. سوف أعقد معكما صفقة.

ثم نزل بركبته اليمنى على الأرض بينما صنعت رجله اليسرى زاوية قائمة ليقترب من «عبد الرحمن» موجهًا حديثه إليه:

- يكفي أن يصل أحدكما للنهاية.

فقال له «سلام» متوسلًا:

- لقد سِرنا معًا نصف المسافة.. ألا يمكن أن نعتبرها كأن أحدنا وصل للنهاية؟

ابتسم «نسيم» رغمًا عنه وقال:

- سوف تكون محتالًا يا «سلام».. يجب أن يصل أحدكما على الأقل.

كان كلام «نسيم» بالأساس موجهًا لـ«عبد الرحمن»، كان يرى في عينيه رغبة التحدي، تركهما «نسيم» من جديد ليباشر مهامه، فقال «عبد الرحمن» لـ«سلام» بشفقة:

- أنت لن تستطيع التحرك.. أليس كذلك؟

نظر «سلام» إلى الأرض ولم يرد، فاستطرد «عبد الرحمن» بتحدٍّ وهو يحاول النهوض من جديد:

- حسنًا.. ساعدني فقط على النهوض.

لم يعترض «سلام» أو يثنه ليعرض عليه أن يحاول هو، بل زحف على الفور خلف ظهره وبدأ في دفعه ليساعده على الوقوف.

وقف «عبد الرحمن» بصعوبة وبدأ في جر السلاسل من جديد، كان يشعر أن «نسيم» يتحداه هو بالذات، كان يعتبرها مسألة كرامة وإرادة، شعر أن «نسيم» يريد أن يكسره، وهذا زاد من إصراره، سوف يصبح فارسًا كما أراد له والده.. ظلَّ «عبد الرحمن» يتحرك ببطء و«سلام» يشجعه حتى أوشكت الشمس على المغيب.

كان «سلام» قد نام من الجوع والعطش والتعب، حتى التشجيع لم يعد قادرًا عليه، بينما «عبد الرحمن» ما زال يحاول الوصول إلى خط النهاية، لم يكن يسير على قدميه، بل كان يزحف على بطنه.

في ذلك الوقت، كان الصبية يعودون إلى المكان الذي ينامون فيه، لكن أحدهم همس لآخر وأشار إلى حيث يزحف «عبد الرحمن»، توقف الجميع لمشاهدة «عبد الرحمن» الذي كان قد اقترب من الوصول إلى خط النهاية، ومن خلفهم ظهر «نسيم».. وقف «نسيم» إلى جوارهم ينظر إلى «عبد الرحمن» الذي يرفض الاستسلام.. يزحف ويزحف.. جسده مليء بالسحجات والجروح لكنه لا يريد أن يتوقف حتى يصل.

أمسك «عبد الرحمن» قربة الماء بيده وأسند رأسه على الأرض وأغمض عينيه.. إنه يشعر بالعطش والجوع، لكن الأهم أنه يشعر بالنصر.. سمع صوت تصفيق «نسيم» له فرفع رأسه ليرى مَن صاحب ذلك التصفيق، وأدهشه أن يكون «نسيم» الذي قلَّده بقية الصبية بالتصفيق والتهليل.

لم يكن «عبد الرحمن» يعلم عن الإنجاز الذي حققه شيئًا، حتى طلب «نسيم» من الحارس أن يفك قيوده، قائلًا له وهو يساعده على النهوض:

- أنت الوحيد الذي نجح في هذا الاختبار، على الرغم من ضعف جسدك لكنك تمتلك روحًا مقاتلة وإرادة حديدية.

ابتسم «عبد الرحمن» برضا وأحس أن ألم اليوم كله يتجمع عليه الآن، أحسّ بثقل على عينيه ورأسه، بخدر يسري في رجله التي يقف عليها

بالكاد.. كل عظمة في جسده تؤلمه.. كل جزء من جسده يعاتبه، وكان أثر ذلك أن أظلمت الدنيا فجأة.

فقد «عبد الرحمن» الوعي فحمله «نسيم» قبل أن يقع على الأرض وأمر الصبية بالذهاب إلى المكان الذي ينامون فيه.. ثم سار به ليريحه وقال لـ«سلام»، الذي فك الحارس قيوده هو الآخر:

- ليس سيئًا يا «سلام»، لكنني أريد منك الأفضل دائمًا.. على العموم لم يذهب الكثيرون لأبعد مما وصلت، إلا صديقك هذا، هو الوحيد الذي وصل إلى خط النهاية.. من أين صديقك هذا؟ هل تعرف حكايته؟

ردَّ عليه «سلام» الذي كان منهكًا لأنه لم يأكل أي شيء طوال النهار:

- نعم يا سيدي.. هو ليس من بلدتنا في الأساس.. هو من مدينة تُدعى «سافا».

تنبهت حواس «نسيم»؛ فقد كان يعرف بالأحداث التي حدثت في تلك المدينة للإسماعيليين الذين تم ضبطهم، كان التعب واضحًا على «سلام»، لكن «نسيم» كان مصرًا على معرفة قصة «عبد الرحمن»، فأمر الحارس أن يأخذ «عبد الرحمن» ويحضر له الطبيب، ثم قال لـ«سلام»:

- أظنك تشعر بالجوع!

رد عليه «سلام» على الفور:

- سوف أموت جوعًا وعطشًا.

ضحك «نسيم» وهو يقول له:

- حسنًا.. سوف تأتي معي إلى غرفتي، سوف تأكل معي.. لكن بشرط!

قلق «سلام» لسماعه وجود شرط، لكن «نسيم» استطرد بعد لحظات صمته القليلة:

- أن تقول لي بعدها كل ما تعرفه عن «عبد الرحمن».

تهللت أسارير «سلام» وقال له:

- على الرحب والسعة يا سيدي.

وفجأة دبّت الحياة في «سلام» من جديد وسار بجد خلف «نسيم» الذي أخذه معه إلى غرفته، ليعرف منه ما يريد.

* * *

كان في الفردوس، كما كان يتخيلها أو يريدها.. مروج خضراء لا نهاية لها السماء الزرقاء الصافية التي تبدو كأنها قبة زجاجية، لم يعد يشعر بالتعب، تبدو الجنة أبهى ممّا تخيّل بكثير، لكنها للأسف فارغة، كان يتوقّع أن يجد والديه في انتظاره، يقولون إن الجنة لا يدخلها إلا الأتقياء، والده كان طيب القلب، يعطف على الفقير ويعطي المسكين وصاحب الحاجة، أمه لم يكن لها أي دور في الحياة غير تربيته، حياته هو كانت

محور حياتها، بالتأكيد سوف يجدهما هنا، ظل يبحث طويلًا لكن دون جدوى، هل يمكن أن يكونا قد ذهبا إلى الجحيم؟ شعر برغبة في البكاء عندما جال هذا الخاطر بفكره، هل هما الآن يُعذَّبان، علامَ يُعذبان؟!

كان يقف في حيرة عندما ظهرت تلك السلاسل الثقيلة الطويلة والتفت حول عنقه وثبتته إلى الأرض، لم يعد يستطيع الحركة.. الأرض تنشق من تحته وتظهر النيران من جوفها، سوف تهوي به تلك السلاسل في النار، يحاول أن يصرخ فلا يستطيع، فمه كأنه قد تم تخييطه، يحاول أن يفتح فمه، سيقطع شفتيه حتى يستطيع أن يفتح فمه، ألم رهيب يسري في شفتيه اللتين صارتا كتلةً حمراء من الدماء، يخرج صوته أخيراً لكن بعد فوات الأوان، فقد سقطت به السلاسل في النار.. الآن يصرخ ويصرخ وهو يقترب من الحمم الحارقة ويشعر بحرارتها تحرقه حتى من قبل أن يصل إليها.

استيقظ «عبد الرحمن» ليجد نفسه نائمًا في المكان الذي نام فيه البارحة، وقف بصعوبة؛ فهو لم يأكل أي شيء منذ أكثر من يوم، خرج مترنحًا من القاعة الكبيرة التي ينام بها مع بقية الصبية.. كان يبحث عن أي شخص يسأله عن الذي يجب عليه أن يفعله، لمح الحارس الضخم الذي قيّده

بالسلاسل بالأمس فتردد في سؤاله، لكنه وجد الحارس يقترب منه ويقول له باحترام:

- السيد «نسيم» في انتظارك يا «عبد الرحمن».

وأشار إليه أن يتبعه.

سار «عبد الرحمن» خلفه حتى وصلا إلى ساحة كبيرة يتدرب فيها الصبية على القتال بالسيف، كان «نسيم» يشرف على التدريب بنفسه، وما إن رأى «عبد الرحمن» حتى انفرجت أساريره وأقبل عليه ليسأله بمودة:

- كيف حالك اليوم يا «عبد الرحمن»؟

أجابه «عبد الرحمن» باقتضاب وبصوت واهن بالكاد يخرج من بين شفتيه:

- بخير.

عاد «نسيم» يقول له:

- بالتأكيد أنت جائع، سوف تأكل، لكن ليس هنا.. سوف نذهب إلى قفص الجوارح.

لم يفهم «عبد الرحمن» ما الذي يرمي إليه «نسيم»، لكنه سار خلفه حتى وصلا إلى ساحة أخرى واسعة، كان بها الكثير من الأقفاص الضخمة

الممتلئة بالطيور الجارحة: صقور ونسور وبازات وعِقْبان.. عدد كبير جدًا من الجوارح، ورجال يبدو أنهم يدربونها على الصيد.

أحضر «نسيم» منضدة وكرسيين، ثم أشار إلى رجل واقف بجانب الحائط فأحضر لهما الطعام، لم يهتم «عبد الرحمن» بماهية الطعام.. كان كل ما يريده هو أن يأكل بعد هذا الجوع الطويل.

بعد أن بدأ يشعر بالشبع، بدأ يبطئ في الأكل ويتأمل المكان من حوله.. كان هناك نسر صغير مربوط بحبل طويل يحلّق في الساحة، بينما كان المدرب يجر أرنبًا ميتًا بحبل على الأرض ليدرّب النسر على الاصطياد.. قال له «نسيم» عندما رآه يتأمل المنظر:

- معظم النسور تأكل الجيف؛ لذلك تأخذ وقتًا في تدريبها على اصطياد الفرائس الحية.. النسور تملك من القوة والمهارة ما يمكّنها من اصطياد فرائس قوية وسريعة مثل الثعالب، لكنها تحتاج إلى التدريب حتى تُخرج تلك المواهب.

رد عليه «عبد الرحمن» متسائلًا وقد أثار الموضوع فضوله:

- والصقور.. أليست أفضل منها؟

أجابه «نسيم» وقد أعجبه تجاوبه معه:

- الصقور أسهل في تدريبها؛ لأنها تصطاد الفرائس الحية بطبيعتها، لكنها أصغر حجمًا من النسور؛ لذلك ندرّب الاثنين، وكل له دور.

كان «عبد الرحمن» قد أنهى طعامه وجلس في سكون بعد أن اتجهت الدماء كلها إلى معدته لهضم كمية الطعام التي أكلها كلها، يستمع إلى «نسيم» الذي قال له وهو ينظر إليه مبتسمًا:

- يبدو أنك قد شبعت.

هز «عبد الرحمن» رأسه وقد شعر بالخدر يسري في جسده بعد الأكل الدسم الذي أكله على جوع الأمس وتعبه، فقال له «نسيم» وهو يقوم واقفًا:

- هيا بنا لأريك نسري الخاص.

توجّه «نسيم» نحو المدرب وهو يقول له بمرح:

- أحضر «النووج».

كان هذا الاسم يُطلَق على الريح السريعة، فتوقّع «عبد الرحمن» أن يجد نسرًا كبيرًا وقويًّا، لكن المدرب عاد ممسكًا بحبل مربوط فيه نسر أكبر بكثير مما تخيل «عبد الرحمن»، كان في حجم طفل صغير، وعندما فرد جناحيه فرحًا برؤية «نسيم» كانت المسافة بين جناحيه أطول من «نسيم» نفسه.

وقف «عبد الرحمن» ينظر في ذهول إلى «النووج»، كان معظم ريشه أسود اللون مع القليل من الريشات البيضاء المتناثرة كالنجوم المضيئة في صفحة ريشاته السوداء.

فكَّ المدربُ الحبلَ من حول عنقه فحلّق في الساحة حتى ناداه «نسيم» فهبط بجانبه، وضع «نسيم» قطعة من القماش الغليظ على يده، وأشار للنسر حتى يقف عليها، كان النسر ثقيلًا فوقف على يده اليمنى، بينما أسند هو يده اليمنى بالأخرى حتى يستطيع حمله، وهو يقول لـ«عبد الرحمن»:

- ما رأيك في النسر؟

أجابه «عبد الرحمن» مبهورًا:

- أنا لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبلُ! إنه غاية في الروعة.

ردَّ عليه «نسيم» محفزًا:

- يمكنك أن تحصل على واحد مثله، لكن...

نظر إليه «عبد الرحمن» وسأله بفضول:

- ولكن ماذا يا سيدي؟

أجابه «نسيم»:

- لقد أنجب «النووج» هيثمًا صغيراً منذ عدة أشهر، يمكنك أن تشترك في تدريبه حتى تصير أنت سيده، لكن يجب أن تطلق عليه اسمًا أولًا.

فرح «عبد الرحمن» بذلك العرض، وبدأ يفكر في الاسم الذي سيطلقه عليه، فأضاف «نسيم»:

- لو درّبته أنت فستكون سيده.. أليس كذلك؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو يفكر في اسم مناسب:

- بلى بالطبع.

فقال له «نسيم» بلهجة ذات مغزى:

- حسنًا، وأنا سأشرف بنفسي على تدريبك.. ما رأيك؟

اختفت الابتسامة من على وجه «عبد الرحمن»، وفهم مغزى حديث ذلك الرجل معه، فردَّ عليه بإذعان:

- لي الشرف يا سيدي.

ابتسم «نسيم» في رضا وقال للمدرب:

- علّمه كيف يتم تدريب النسور، وأعطه الهيثم الصغير حتى يبدأ في تدريبه.

ثم نظر لـ«عبد الرحمن» وأضاف:

- لن أدربك اليوم تدريبات بدنية، يكفيك ما عانيت بالأمس، عندما تنتهي من درس اليوم في تدريب النسور تعالَ إلى غرفتي قبل أن تنام.

ذهب المدرب ليحضر صغير النسر (الهيثم)، بينما وقف «عبد الرحمن» ينظر إلى سيده الجديد وهو يبتعد.

* * *

مرّت عدة أسابيع و«عبد الرحمن» يلازم «نسيم» كظله طوال النهار، لا يتركه إلا إذا دخل بيت «حسن الصباح»، لاحظ «عبد الرحمن» أن «حسن الصباح» لم يخرج قط من المنزل، وعندما سأل أخبره «نسيم» أنه لم يخرج من المنزل منذ أن دخله بعد أن استولى على القلعة.

حتى كان ذلك اليوم الذي لاحظ فيه «عبد الرحمن» حركة غير عادية في القلعة، القلق ظاهر على وجه القادة والحراس كلهم، حتى «نسيم» الواثق من نفسه دائمًا يظهر عليه القلق، كان «عبد الرحمن» يقف بجانبه يحمل له كنانة سهامه وقوسه، سمعه يقول لقائد آخر:

- لقد وصل جيش السلاجقة، لقد أرسل إلينا «ملكشاه» جيشًا بقيادة «أرسلان تاش».

كان «ملكشاه» هو السيد الأعلى لجميع الأمراء والحكام السلاجقة، وكان يرى خطورة الوجود الإسماعيلي على السنة؛ لذلك أرسل حملتين،

إحداهما ضد قلعة «ألموت»، والأخرى ضد «كوهستان»، رد الرجل على «نسيم» بقلق:

- لو لم نحتسب المتدربين الجدد فسيكون في القلعة قرابة الثمانين رجلًا فقط.

ردّ عليه «نسيم» بصرامة:

- لذلك طلب منّا السيد «حسن الصباح» الوقوف على الأسوار لمواجهة الهجوم، القلعة لا يمكن دخولها إلا من خلال بابها الرئيس، فلا يوجد لها غير طريق واحد منحدر وضيق كما تعلم، أيضًا لا يمكنهم نقل معدات ثقيلة إلى هنا بسبب ضيق الطريق وانحداره.

قال له الرجل وهو يتوجه إلى سور القلعة:

- حسنًا.. اجمع مَن يمكنه القتال من تلامذتك وقابلني عند البوابة.

كان معظم مَن بالقلعة يقف عند البوابة، كل معلم يقف عند جزء من السور ومعه مجموعة من مساعديه، اعتلى «نسيم» أحد الأبراج العالية، نظر من كوّة صغيرة في الجدار ثم قال لـ«عبد الرحمن» الذي صعد معه دون أن يعرف تفاصيل؛ فهو يتبع معلمه ليس إلّا:

- لقد بدأت بشائر الجيش في الوصول.

نظر «عبد الرحمن» إلى حيث أشار «نسيم» فوجد مقدمة الجيش قد لاحت، أخرج «نسيم» سهمًا ثم وضعه في القوس وشدَّ وتر القوس عن آخره، أغمض عينه اليسرى وبدأ يركز على هدفه، قال لـ«عبد الرحمن» وهو يراقب فريسته التي استقر على اصطيادها:

- إنهم ينتظرون أن أطلق أول سهم.

لكنه عاد فخفض القوس وأعطاها لـ«عبد الرحمن» وهو يقول له:

- خذ يا «عبد الرحمن»، أرني مهارتك في التصويب.. أريدك أن تصيب الفارس الذي يركب الجواد البني في مقدمة الصفوف هذا في رقبته.

أحس «عبد الرحمن» بالإثارة وهو يمسك بالقوس ويصوِّبها نحو الفارس، كانت هذه هي أول مرة يصوِّب فيها على هدف متحرك وحي، شدَّ القوس وكتم أنفاسه، ركَّز وصوَّب ثم ترك السهم.. شق السهم الهواء بسرعة ليستقر في كتف الفارس ويسقطه من على الجواد، بعدها مباشرة أمطرت السماء بوابل من السهام من بقية الرجال الذين كانوا يقفون على أسوار القلعة، ما دفع الجيش للتوقف والتقهقر قليلًا حتى يبتعد عن مرمى السهام، توقفت السهام بعد أن توقف الجيش بعيدًا عن مرماها، فبدأوا بجر جرحاهم وقتلاهم، والتخييم بعيدًا عن مرمى السهام، لكن في الطريق المؤدي إلى القلعة؛ بذلك أصبحت القلعة

محاصَرة.. جلس «نسيم» على الأرض تحت الكوَّة التي كان يضرب منها السهام وأسند ظهره إلى الجدار وقال لـ«عبد الرحمن»:

- تصويبك ليس سيئًا.. لكنك تحتاج إلى المزيد من التدريب.

ثم أضاف وهو ينهض من على الأرض:

- سوف نبيت هنا أنا وأنت من اليوم، في الليل سوف نبدِّل بيننا نوبات الحراسة من هذه الكوة، لو شككت في أي شيء، أو رأيت أي حركة في أثناء نومي لا تتردد وأيقظني على الفور، سوف نذهب الآن لإحضار ما سنحتاجه في مكوثنا هنا، والذي أظن أنه سيطول.

كان «نسيم» يحاول أن يبدو صلبًا غير مبالٍ بهجوم السلاجقة، لكن «عبد الرحمن» رأى القلق باديًا عليه في كل حركة وسكنة، وعندما يظهر القلق على «نسيم» بهذه الطريقة، فيبدو أن الأمر جد خطير.

* * *

مرَّت عدة أسابيع وجيش «أرسلان تاش» يعسكر كما هو في المكان الذي حطَّ فيه منذ أول يوم وصل فيه على مشارف «ألموت»، ولم يستطع من ساعتها التقدم خطوةً واحدة، كان الأمير «أرسلان تاش» مجتمعًا بقادة الجيش يشاورهم في الأمر، التذمر كان واضحًا عليهم لفشلهم في التقدم أكثر من ذلك نحو القلعة.. قال أحدهم بضجر:

- كان يجب يا سيدي أن نرسل مَن يأتينا بالمعلومات عن طبيعة الأرض وتحصين القلعة قبل أن نأتي بالجيش إلى هنا، ربما لو علمنا طبيعة القلعة لما أتينا من الأساس، كان ذلك أهون من أن نأتي ونعود كما جئنا.

لم تعجب كلماته القائد «أرسلان تاش»، الذي ردَّ عليه بهدوء:

- ومن قال إننا سنعود كما جئنا؟

أجاب قائد آخر يبدو عليه السخط:

- ربما نعود بعد مقتل الكثير من جنودنا يا سيدي بهذه الطريقة.

شعر «أرسلان» بالدم يغلي في عروقه فقال غاضباً وهو يضغط على أسنانه:

- ما هذا الشعور بالخزي والهزيمة والمعركة لم تبدأ بعدُ؟!

ردَّ عليه القائد الذي كان يتكلم في البداية:

- وهذا ما يقلقنا يا سيدي.. إن المعركة لم تبدأ بعدُ، لكن هل ستكون هناك معركة من الأساس؟

نظر إليه «أرسلان» بنظرة فاحصة ولم يتكلم فاستطرد القائد:

- إننا لم نتقدم خطوة واحدة نحو القلعة منذ أن وصلنا، ومَن في القلعة يتسلى باصطيادنا واحدًا تلو الآخر.. ربما ينسى أحد الحراس نفسه فيتقدم قليلًا ليصطاده سهم من أحد أبراج القلعة، ونحن كلما حاولنا التقدم

باءت محاولاتنا بالفشل.. آخر محاولاتنا لاقتحام القلعة بالليل ولم تنجح، نحن لا نثبط من عزيمتك يا سيدي، لكن هل هناك خطة ما؟

ابتسم «أرسلان» في حسرة وقال:

- هل تعرفون كم رجلًا بالقلعة؟ لا يزيدون على المائة على أقصى تقدير، هل ننسحب بكل هذا الجيش من أمامهم لأنكم لا تستطيعون الصبر؟! ليس للقلعة طريق آخر، ونحن الآن نقطعه، هذا يعني أن المؤن التي معهم سوف تنفد، إن عاجلًا أو آجلًا.. معركتنا معركة صبر، وهذه عادة الحصارات.

تنهّد القائد الذي كان يتكلم معه بصبر نافد وقال:

- لكن الجنود بدأوا يتذمرون.

رد عليه «أرسلان» بصرامة:

- لأنهم يرونكم على هذا الحال، يجب أن تبثوا الصبر في نفوس جنودكم ليقووا عليه.

كان في كلام «أرسلان» بعض المنطق؛ فهم في الخارج يستطيعون الحصول على أي مؤن أو طعام يريدونه، بعكس المحاصَرين بالقلعة.. عدد الرجال القليل بالقلعة لن يمكِّنهم من مهاجمة معسكر «أرسلان تاش» بصورة مباشرة، كان «أرسلان» مطمئنًا لفارق العدد بين جيشه والرجال المدافعين

عن القلعة؛ لذلك لم يكن يتوقع أن يبادروا هم بمهاجمته، وظل ينتظر أن يجني ثمار هذا الحصار.

* * *

وقف «عبد الرحمن» ينظر من الكوة التي يراقب منها جيش «أرسلان تاش»، لا يطرف له جفن، ينتظر أي حركة ليخبر بها «نسيم» الذي كان ممددًا على الأرض، فجأة سمع «عبد الرحمن» صوت خطوات متسارعة تقترب من مكان مراقبته، التفت إلى حيث الباب المؤدي إلى الدرج ليجد أحد الحراس يدخل مسرعًا فيهز «نسيم» ويقول له بصوت متلهف وهو يلهث:

- يا سيد «نسيم»، يا سيد «نسيم».. لقد وصل رسول «بوعلي».

بمجرد أن سمع «نسيم» اسم «بوعلي»، وقف على قدميه على الفور وهو يقول للحارس:

- هل دخل للإمام «حسن الصباح»؟

فهز الحارس رأسه وهو يجيب:

- هو عند الإمام، وينتظرانك.

فقال له «نسيم» وهو يرتدي عباءته:

- اذهب أنت وأخبرهما أنني سوف آتي على الفور.

نزل الحارس مسرعًا، بينما قال «نسيم» لـ«عبد الرحمن»:

- سوف أتركك بمفردك بعض الوقت، لن أتأخر.

فسأله «عبد الرحمن» من باب الفضول:

- مَن «بوعلي» هذا يا سيدي؟

ابتسم «نسيم» في أمل وهو يرد عليه:

- سوف أخبرك عندما أعود.

كان الأمل باديًا على وجه «نسيم».. عندما سيعود سيخبر «عبد الرحمن» بحكاية «بوعلي» الذي كان أحد دعاة «حسن الصباح» ومن المؤمنين بدعوته والمؤيدين لها، جاء «بوعلي» من «زفارة» و«أردستان» ثم استقر في «قزوين»، واستطاع أن يحوِّل بعض السكان إلى العقيدة الإسماعيلية، كما كان لتلك الدعوة مؤيدون في إقليم «الري»، استطاع «حسن الصباح» أن يرسل في طلب المساعدة من «بوعلي» الذي أرسل العتاد والسلاح مع الرجال لفك الحصار عن القلعة.

اتفق رجال «بوعلي» مع السكان المحليين ومحاربي القلعة أن يهجموا هم بغتة على معسكر «أرسلان تاش»، وبينما هم مشغولون بصد الهجوم يخرج إليهم فرسان القلعة للقضاء عليهم.

يبدو أن الخطة أثمرت أكثر بكثير مما توقعوا، فقد قرر «أرسلان تاش» الانسحاب بعد أن كبّدوه خسائر فادحة، فقد فك الحصار عن قلعة «ألموت» في أقل من شهر، وتم فك الحصار أيضًا عن المركز الإسماعيلي في منطقة «كوهستان» بعد أن وصلت إليهم أنباء وفاة «ملكشاه» عدوهم إمبراطور السلاجقة.

كانت القلعة تعيش أفضل أيامها وأسعدها، أكثرها إيمانًا بصدق دعوتهم، وإيمانًا في إمامهم «حسن الصباح».

في تلك الأثناء، لم يكن «عبد الرحمن» يشعر بأن الحصار قد انتهى، بل كان يشعر أنه ما زال محاصَرًا.. بين جدران تلك القلعة.

ثياب الشاة

«هم يغيّرون مظهرهم.. كالشياطين التي تتحول إلى ملائكة من النور؛ ذلك أنهم يحاكون الحركات والثياب واللغات والعادات والتصرفات التي تأتيها الأمم والأقوام المختلفة.. وهكذا يتخفون في ثياب الشاة لتنفيذ أغراضهم».

من نصيحة القس «بروكاردوس» لملك فرنسا، محذرًا إياه من الحشاشين.

(من كتاب «الحشاشون».. فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، لبرنارد لويس).

* * *

منذ أن خرج «بوطالب» من الجنة وهو شارد الذهن، صامت ومنعزل، يجلس بمفرده ولا يتحدث إلى أحد.. كان «عبد الرحمن» يراقبه، يريد أن يسأله عمّا رآه هناك، لكنه عندما حاول وتحدّث إليه ذات مرة، نظر إليه ولم يرد عليه، بل تركه وذهب في حال سبيله، كان كالمجذوب.. ذهب «عبد الرحمن» إلى «نسيم» الذي كان مشغولًا في غرفته يحضر دواءً لعلاج جروح بعض المصابين في معركتهم الأخيرة، سأل «نسيم» عن «بوطالب» فقال له وهو يبتسم:

- هذا يكون حال من يُدخله «حسن الصباح» الجنة؛ فلا يستطيع العيش على الأرض مرة أخرى.

قال «عبد الرحمن» وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- تُرى ما الذي رآه هناك؟

أجابه «نسيم» وهو يقلّب سائلًا ما في إناء يمسكه بيديه:

- ربما تدخلها في يوم من الأيام، الآن ساعدني في تحضير الدواء، هل تعرف تلك المادة التي أحضرها؟ يمكنها الإسراع من شفاء الجروح.

نظر «عبد الرحمن» في الإناء ولم يفهم، فاستطرد «نسيم»:

- لذلك يطلقون علينا «الحشاشين»؛ لأننا نستخدم جميع أنواع الحشائش في العلاج.. لكن هناك سببًا آخر للتسمية.

سكت «نسيم» قليلًا وهو يقلّب في السائل الذي في الإناء، قبل أن يستطرد:

- إننا نقوم بحش رأس ضحيتنا التي نقوم باغتيالها.

ولم يكن «عبد الرحمن» يعلم أنهم قد أروا «بوطالب» الجنة حتى يقوم بأول وأهم عملية اغتيال.

* * *

في تلك الليلة، كان «حسن الصباح» يجلس في بيته بالقلعة كعادته، ذلك

البيت الذي لم يخرج منه منذ أن دخل القلعة، اجتمع مع كبار قادته الذين كان من بينهم «نسيم»، وأمهر القتلة الذين كان منهم «بوطالب».. كان «بوطالب» قد دخل جنة «حسن الصباح» هو ومجموعة من أمهر القتلة حتى يحفّزهم دخول الجنة على القيام بعملية الاغتيال المقبلة، التي كانت الأولى.

لم يعرف «بوطالب» كيف وصل إلى الجنة، كل ما يعرفه أنه نام فجأة وهو جالس في قاعة ينتظر فيها أحد القادة، ثم استيقظ ليجد نفسه هناك، ثم نام في الجنة ليعود بعدها إلى الأرض من جديد.

كان «حسن الصباح» كعادته قليل الكلام.. قال لهم بصوته الرخيم دون أن يحمل وجهه أي تعبير:

- أنتم جميعًا تعرفون خطر «نظام الملك» علينا.

هز الحضور رؤوسهم كناية عن المعرفة، فاستطرد:

- من منكم يخلص هذه الدولة من شرور «نظام الملك الطوسي»؟

وضع «بوطالب» يده على صدره بسرعة، علامة الموافقة.. نظر إليه «حسن الصباح» وقال:

- تعرف أهمية وخطورة المهمة يا «بوطالب»؟!

هز الرجل رأسه وهو يدعو في سره أن يقبله «حسن الصباح» لأداء تلك المهمة، أضاف «حسن الصباح»:

- يمكن أن يقتلوك.

ثم سكت قبل أن يكمل:

- لكنك تعرف أنهم لو قتلوك إلى أين سأرسلك؟!

ابتسم «بوطالب» وقال:

- بالطبع أعرف يا سيدي.

فأعطاه «حسن الصباح» خنجراً في يده.. الخنجر الذي سيقتل به «نظام الملك».. كان «بوطالب» يريد العودة إلى الجنة التي رآها لليلة واحدة، وكان على استعداد لفعل أي شيء لدخولها من جديد؛ لذلك قبل أن يكون قتله لـ«نظام الملك» قرباه للجنة.

وُلد «نظام الملك» في بلدة صغيرة من نواحي «طوس»، وكان من أبناء الفلاحين.. حفظ القرآن واشتغل بالفقه الشافعي منذ صغره.. ترك أباه ورحل إلى «غزنة»، حيث خدم في الديوان السلطاني.. حتى خدم وزير السلطان «ألب أرسلان»، وبعد وفاة الوزير عينه السلطان وزيراً، ثم مات «أرسلان تاش» وورثه «ملكشاه» الذي بمساعدة «نظام الملك» وطّد ملك السلاجقة.

كان «نظام الملك» صاحب الفضل في إنشاء المدارس النظامية.. كان محباً لأهل العلم والفقه والزهد؛ لذلك كان مجلسه مليئًا بالفقهاء والصوفية.

على «بوطالب» الآن أن يذهب إلى «نهاوند»؛ حيث استقر «نظام الملك» في منطقة «ساهنا».. بعد الفجر ارتدى «بوطالب» عباءته وغطّى رأسه بشال فوق العمامة التي كان يرتديها، وخرج من القلعة على ظهر جواده متوجهًا إلى «نهاوند»، التي لم تكن تبعد كثيراً عن إقليم «الري».

استأجر «بوطالب» بيتًا على مشارف «نهاوند» وضع فيه زاده وربط جواده أمامه، ثم قرر أن يذهب إلى السوق.. لم يكن يرد أن يشتري شيئًا، لكنه كان يعلم جيدًا أن السوق هي المصدر الأوفر للمعلومات.

ظل يدور في السوق يستمع لكلمات هذا وذاك.. كان الأمر يحتاج إلى الصبر.. فهو لا يريد أن يشترك في حديث مع أحد.. يظل منتظراً حتى يتكلم أحدهم عن «نظام الملك»، فيصغي له دون أن يلحظ.. كان أهم ما سمعه حديث أحد الباعة مع شيخ كبير.. كان الشيخ يبدو عليه الورع والهدوء.. يبدو كذلك أنه معروف في تلك المنطقة؛ لأن البائع رحّب به فور رؤيته قائلًا:

- كيف حالك يا شيخنا؟

أجابه الشيخ وهو يبتسم في وقار:

- بخير والحمد لله.. كيف حالك أنت يا «عمر»؟

رد عليه البائع بفرح:

- بخير حال يا شيخنا.. أي خدمة أقدمها لك؟

أجابه الشيخ بالهدوء والوقار نفسيهما:

- أريد أن أشتري إناءً؛ لأن الإناء الذي كان عندي كسرته بالأمس دون قصد.

قال له البائع وهو متهلل الأسارير:

- تفضل.. كل ما بالمحل تحت أمرك.

بدأ الرجل ينظر إلى الأواني المعروضة ويفكر أيها يناسبه أكثر.. قال له البائع على سبيل التسلية:

- هل الوزير «نظام الملك» يزوركم في المسجد بالفعل؟!

كان هذا هو السؤال الذي لفت انتباه «بوطالب» فأنصت لإجابة الشيخ التي كانت:

- كثيراً ما يأتي ليصلي معنا بالمسجد.. هو رجل طيب ومتواضع، يحب العلم والعلماء والزهاد.

هز البائع رأسه في رضا وقال:

- هو كذلك يحب الصوفية ويعطف عليهم.

فرد عليه الشيخ:

- هو يؤوي كل عابر سبيل ومحتاج.

لم يقف «بوطالب» كثيراً حتى لا يثير شكوكهما، بل تحرك مبتعداً بعد أن عرف ما يريد، وجاءته الفكرة، فذهب على الفور إلى بائع أقمشة بالسوق وطلب منه قطعة من قماش صوفي أبيض.. نظر إليه البائع بتردد قبل أن يقول له:

- لكنه شديد الخشونة يا سيدي.

رد عليه «بوطالب» بثقة:

- لا يهم.. فهو في الحقيقة ليس لي.

ثم أضاف وهو ينظر إلى جماعة من الصوفية يمرون في الساحة الكبيرة أمام السوق:

- إنه لأحد شيوخ الصوفية.

* * *

كان «بوطالب» قد راقب تحركات «نظامُ الملك» ليومين وعرف ميعاد عودته إلى قصره ومروره خلال الساحة الكبيرة التي يوجد بها الكثير من الصوفيين.

في الليل، كان يخيط الثوب الذي صنعه لنفسه حتى يصير أشبه بالمتصوِّفة.. أنهى خياطة الثوب، لكن الثوب كان يبدو جديدًا، فخرج «بوطالب» من البيت ثم تلفت حوله، وعندما تأكد أنه ليس هناك من يراه بدأ في فرك الثوب بالتراب حتى اتسخ ثم عاد به إلى الداخل.

في الداخل، بدأ في غسل الثوب من جديد ثم وضعه على منضدة حتى يجف.. كان يريد أن يبدو الثوب كأنه قد استُخدم من قبل.. عندما جفَّ الثوب وضعه على الأرض من جديد لكنه هذه المرة لم ينظفه، بل ارتداه مباشرة.

فتح فرجة صغيرة في الباب ونظر إلى الخارج.. لم يكن هناك من أحد بالخارج.. خرج بسرعة وأغلق الباب وراءه ثم اتجه إلى الساحة الكبيرة التي يمر «نظام الملك» منها كل ليلة.

كان «بوطالب» قد قرأ كثيراً في أدبيات الصوفية وعلم ما يكفي لمساعدته على أن يدَّعي أنه منهم.. سار «بوطالب» بين الناس بنظرة شاردة وخطوات متمهلة.. يحرك شفتيه بتمتمة غير مفهومة كأنه يسبح بحمد الله ويذكره.

وصل إلى الساحة الكبيرة، حيث كان هناك مجموعة من الصوفيين يجلسون على الأرض يتكلمون في مسائل لم يهتم «بوطالب» بمعرفتها.

جلس «بوطالب» بركن من أركان الساحة، لكنه لاحظ أن الجميع ينظر إليه؛ فهو جديد عليهم ووجهه غير مألوف بالنسبة إليهم.

قام «بوطالب» من مكانه واتجه إلى ركن آخر وقف فيه وادعى أنه يصلي.. كان في مكان يسمح له بمشاهدة كل من يمر بالساحة ويمكنه فيه رؤية القادم من بداية الساحة؛ لذلك رآه بسهولة وهو قادم.

كان «نظام الملك» محمولًا على محفته، ومعه عدد ليس بكبير من الحراس.. أشار لمن يجلس في طريقه من الصوفيين، وهم ضحكوا وبشُّوا له.

لم يكن «بوطالب» غريبًا عن المشهد أو شاذًا.. كان يقترب بلطف من الموكب الصغير.. ظل يراقب الموقف كذئب يتربص بفريسته.. حتى وجد تلك الفرجة في صف الحراس..

انطلق «بوطالب» كالسهم.. هي فرصة واحدة، لو ضاعت فسينجو «نظام الملك».. كان يمسك بيده اليمنى الخنجر الذي أعطاه إياه «حسن الصباح»، وفي اليد الأخرى خنجر آخر ضرب به أقرب الحراس إليه.. لم يفهم «نظام الملك» ما يحدث.. لم يشعر بشيء.. لم يشعر بالألم إلا بعد أن دخل الخنجر في صدره.. طعنة نافذة.. طعنة قاتلة لا يمكن أن يعيش بعدها.

لم يكن همّ «بوطالب» الهرب، بل كان كل ما يشغله التأكد من موت «نظام الملك»؛ لذلك تأخر في الهرب، ولأنه تأخر في الهرب فقد عاجله أحد الحراس بطعنة أودت بحياته ظنًا من الحارس أنه ينقذ سيده.. لكن الحقيقة أن سيده كان قد فارق الحياة، والآن لحق به قاتله.

لكن «بوطالب» كان فرحًا.. كان يعتقد أنه بعد الموت سينتقل إلى الفردوس التي رآها من قبل.. لقد وعده «حسن الصباح» أنه لو قُتل فسوف يرسل الملائكة لتنقله إلى الفردوس.

مات «بوطالب» ولم يعرف ساعتها أحد سبب مقتل الوزير، فقد كانت تلك أول عملية اغتيال للحشاشين، لكنها لن تكون الأخيرة، وسيذيع صيتهم، ويقذفون الرعب في قلوب أعدائهم على مرّ السنين.

عيون ليس لها مثيل

كان «عبد الرحمن» يقف في ساحة القتال.. أمامه اثنان من الشباب في مثل عمره.. سوف يهجمان عليه.. كل واحد منهما يحمل عصا غليظة، وهو بيدين عاريتين.. يهجمان في وقت واحد، أو كذلك يخيّل لمن لا يمتلك موهبة وقدرات «عبد الرحمن»، الذي لاحظ أن أحدهما يتقدم على الآخر بقليل.. اقترب «عبد الرحمن» من الشاب الأقرب إليه، ليتفادى ضربته في البداية ويكيل إليه لكمة سريعة في معدته.. في تلك الأثناء كانت العصا الأخرى تنزل في اتجاه رأسه، لكن يده اليسرى أمسكت بها قبل أن تصل إلى غايتها، وتطيح قدمه بصاحب العصا.

كان ذلك العرض في ساحة أمام البيت الذي يسكن فيه «حسن الصباح»، وكان يراقب العرض من كوة صغيرة في الجدار.. قال «حسن الصباح» لـ«نسيم» الذي كان يقف إلى جواره:

- لقد نضج «عبد الرحمن» بما يكفي.

هز «نسيم» رأسه موافقًا «الصباح» الذي استطرد:

- يبدو أننا سنكلفه بمهمة خطيرة في الفترة المقبلة.

نظر إليه «نسيم» متسائلًا دون أن يتكلم، فلم يكن من اللائق أن يتوجه بالأسئلة لـ«حسن الصباح»، الذي استطرد:

- «علم الدين».. شيخ أصفهان الذي يُشهر بعقيدتنا ويرد على كل كلمة نقولها بالحجة والعقل.. إنه يفتن كل من يريد أن ينضم إلينا، بل ويأخذ بعض الذين آمنوا بالدعوة.. هذا الرجل أخطر علينا من كل الحملات التي قام بها السلاجقة.

هز «نسيم» رأسه موافقًا دون أن يعقِّب، فاستطرد «الصباح» من جديد:

- لكنك تعرف أن علينا في البداية أن ندخله الجنة.

رد عليه «نسيم» هذه المرة بعد أن طال صمته:

- نعم أعرف يا سيدي، لكني كنت أريد أن أستأذنك في إرساله إلى «خورشيد» لشراء بعض البضائع للقلعة.

رد عليه «الصباح» بقلق:

- لكنك تعرف أنني لا أحب لهم مخالطة الناس.. لماذا لا تذهب أنت أو ترسل أحد القادة؟

سعل «نسيم» كأنه يريد أن يثبت له أنه مريض وهو يقول:

- أنا مريض وهو يعرف «خورشيد» ويمكنه أن يتفاهم معه، ربما باع له بسعر أقل مما يبيع لغيره.

تنهد «حسن الصباح» في عدم اقتناع وقال له بملل:

- حسنًا.. أرسله، على ألّا يتأخر.

فانحنى له «نسيم» قبل أن يخرج وهو يقول باحترام:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

خرج «نسيم» من عنده وذهب إلى «عبد الرحمن» الذي كان يطمئن على الشابين اللذين ضربهما منذ قليل.. كان الجميع يضحك في سعادة؛ فـ«عبد الرحمن» كان محبوبًا من معظم من كان بالقلعة.. ناداه «نسيم» فهرول إليه على الفور قائلًا بجدية:

- نعم يا سيد «نسيم»؟ تحت أمرك.

قال له «نسيم» بلهجة صارمة:

- سوف تذهب إلى «خورشيد» لشراء بعض البضائع.

تهللت أسارير «عبد الرحمن» وقال له على الفور:

- شكرًا يا سيدي.

فسأله «نسيم» ببراءة مصطنعة:

- علامَ تشكرني؟

أجابه «عبد الرحمن» مبتسمًا في سعادة بالغة:

- لأنك لبّيت طلبي برؤية «خورشيد».

رد عليه «نسيم» باللهجة الصارمة نفسها:

- لكني أرسلك لأني متعب ولا أستطيع الذهاب، ليس إلّا.

كان «نسيم» قد بدأ يُعجَب به، لكن ذلك الإعجاب تحوّل لحب الصانع لصنعته، لقد تعلم «عبد الرحمن» منه كل شيء، بل تفوّق عليه كثيراً.. هو لا يريد أن يعترف أنه يحبه، حتى لو كان ذلك بينه وبين نفسه.. قال له «عبد الرحمن» وهو ذاهب إلى غرفته لتغيير ملابسه:

- هل يمكن أن آخذ «سلام» معي؟

فكّر «نسيم» قليلًا ولم يرد، فأضاف «عبد الرحمن» بلهجة محفزة:

- سيساعدني في حمل البضائع.

فكر «نسيم» في أنه لن يفتقد أحد وجود «سلام»، وعلى كل حال هما لن يتأخرا فقال له:

- خذه معك، لكن لا تتأخرا.

جرى «عبد الرحمن» مسرعًا يبحث عن صديقه.. إنه يريد أن يذهب لزيارة «خورشيد» ربما ليطمئن عليه، أو ليريه ما أنجزه.. ربما يريد أن يثبت لنفسه أنه نجح في شيء ما عندما يرى نظرة الانبهار على وجهه.. سوف يأخذ معه «سلام» لأنه يريد أن يسلم على والده.. لكن أين هو؟

ظل «عبد الرحمن» يجري في أرجاء القلعة حتى وصل إلى ساحة كبيرة فلمح «سلام» يمر في رواق علوي في أحد أركان الساحة، فرفع رأسه ناحيته ونادى عليه بصوت فرح مرتفع:

- «سلام».. يا «سلام».

نظر إليه «سلام» ناحيته، ولما رآه «عبد الرحمن» تهللت أساريره وسأله بفرح:

- ماذا تريد يا صاحبي؟

أجابه «عبد الرحمن» بلهجة فرحة:

- سوف يحلّق النسران خارج العش أخيراً.

فهم «سلام» مراد صاحبه فتهللت أساريره أكثر ووقف على السور كأنه سيقفز إلى الساحة وهو يقول لـ«عبد الرحمن» مداعباً:

- سوف أقفز إليك، لا أستطيع الصبر.

فأشار إليه «عبد الرحمن» وهو يضحك:

- انزل على الدرج، أريدك قطعة واحدة حتى تساعدني في حمل البضائع.

فنزل «سلام» من على السور وهو يقول بفرح:

- أخيراً يا «عبد الرحمن».. أخيراً سنخرج!

كان يقولها بلهفة من ظل سجينًا في هذه القلعة لسنوات.

* * *

لم يصدق «عبد الرحمن» نفسه وهو خارج من القلعة على جواده ومعه صديقه على جواد آخر.. كان «سلام» في شدة الفرح.. قال له بعد أن خرجا من الباب:

- لا أصدق أننا خارج القلعة لأول مرة منذ سنوات.

لم يرد عليه «عبد الرحمن» الذي كان مشغولًا بالنظر إلى الطريق المنحدر الضيق المؤدي إلى القلعة، والآن هو بالنسبة إليهما طريقهما للابتعاد عنها ولو لبعض الوقت.. ذلك الطريق يمكن لمن يراقبه من أحد أبراج القلعة العالية أن يرى بدايته ونهايته؛ لذلك عندما وجد «عبد الرحمن» مجموعة من الخراف تسد الطريق لم يندهش؛ فمنذ فترة وهو يرى تلك الخراف ترعى بتلك المنطقة.. سوف يزيحها عن طريقه.. أمسك سوطه الذي يضرب به جواده وبدأ في دفع الخراف بعيدًا عن الطريق، لكنه فجأة سمع تلك الزمجرة وذلك النباح الذي لفت انتباهه.. حتى الجواد فزع وكاد يوقعه، أما «سلام» فقد كان متأخرًا عنه فلم يشترك في مسألة زجر الخراف تلك من الأساس.. تحفز «عبد الرحمن» وهو على ظهر جواده لكنه فجأة سمع صوتًا ناعمًا رقيقًا ينادي:

- «فريح».. تعالَ هنا.

فجرى الكلب بسرعة نحو مصدر الصوت.. كانت تبدو كأنها فتاة، لم يتبين

ملامحها بسبب الشال الموضوع على رأسها ويخبئ جزءًا كبيرًا من وجهها..

اقترب «عبد الرحمن» منها وهو ما زال على ظهر جواده وقال لها بصرامة:

- لماذا تقومين بالرعي في هذه المنطقة النائية بمفردك؟

ردت عليه الفتاة بلا مبالاة:

- خرافي تأكل زرع أهل القرية، وأنا لا أملك ما أعوضهم به، ولا أريد أن أثير المتاعب.

عاد «عبد الرحمن» يسألها بغلظة:

- ألم تريني وأنا قادم في الطريق فتزيحي خرافك عن طريقنا؟

رفعت الفتاة رأسها نحوه فظهر وجهها وهي ترد عليه بطريقة تلقائية:

- وكيف لعمياء مثلي أن ترى يا سيدي؟!

نظر «عبد الرحمن» إليها فوجد عينين رماديتين تنظران إليه في ثبات.. وجهها أبيض لوحته الشمس ببعض الحمرة، وملامح وجهها دقيقة وجميلة ورقيقة.. ربما تعتقد أنها هشة، وربما تعتقد أن صوتك من الممكن أن يترك أثرًا في وجهها.. أحس «عبد الرحمن» برعدة غريبة عندما نظرت إليه تلك النظرة الثابتة، وتأنيب ضمير من كلماته الجافة نحوها، فقال لها بطريقة رقيقة هذه المرة:

- لكن، ألا تخافين من الجلوس هنا بمفردك؟!

أجابته الفتاة بالطريقة نفسها التي لا تنم عن أي شيء:

- هنا يمكن للخراف أن تأكل وأنا مطمئنة، ثم إنني لست بمفردي، فمعي «فريح» الذي قابلك بالنباح، وهذه هي عائلته.

نظر «عبد الرحمن» إلى الكلب فوجده يلعب مع مجموعة من الجراء الصغيرة وكلاب أخرى كبيرة في مثل عمره.. سألها «عبد الرحمن» وهو يبتسم بتعجب:

- هذه الكلاب كلها لحراسة الخراف؟!

أجابته الفتاة وهي تجلس في مكانها؛ لأنها كانت قد وقفت عندما سمعت نباح «فريح»:

- بالطبع لا.. أنا أربي الكلاب وأدربها للحراسة والصيد ثم أبيعها.. هذا سبب آخر لاختيار هذا المكان.

ابتسم «عبد الرحمن» هذه المرة رغمًا عنه وهو يقول:

- غريبة أن تربي الخراف والكلاب معًا وتبيعي الاثنين!

ردت عليه الفتاة بلهجة فيها الكثير من الفخر:

- أنا في الأساس كنت أدرب الكلاب مع أبي، ثم وجدنا أنها تحرس الخراف، وتربية الخراف أسهل وأقل تكلفة، فربيناها معها.

ضحك «عبد الرحمن» لمنطق الفتاة البسيط وعاد يسألها:

- وأين والدك؟ لماذا لا أراه معك؟

أجابته بعد تردد وهي تتنهد بحسرة:

- مريض.. لم يعد يستطيع الحركة.

لم تكن تريد أن تخبره أنها بمفردها؛ فقد كانت ترى أن هذا خطر عليها، خاصة أنها لا تعرفه، لكن طريقة كلامه الودود وصوته الحاني أشعراها ببعض الألفة نحوه، كان «عبد الرحمن» يريد أن يسترسل في الحديث معها، لكن «سلام» وكزه وهو يقول له بلوم:

- سوف نتأخر يا «عبد الرحمن».

فقالت له الفتاة وهي تبتسم وكأنها تتكلم مع طفل صغير:

- من الأفضل أن تسمع كلام صاحبك يا «عبد الرحمن».

فابتسم «عبد الرحمن» بخجل وقال لها:

- حسنًا.. إلى اللقاء يا... لم أعرف اسمك حتى الآن.

ردت عليه الفتاة بعدم اكتراث هذه المرة:

- ليس هناك داعٍ.. اذهب حتى لا تتأخر.

كان «عبد الرحمن» سيصر على معرفة اسمها، لكن «سلام» لم يكن يملك المزيد من الصبر فجذبه من عباءته ليذهبا إلى غايتهما.

* * *

ظلّ «عبد الرحمن» طوال الطريق يفكر في تلك الفتاة التي ترعى الغنم.. كان شاردًا لا يتحدث إلى رفيقه الذي كان يتحدث بلا توقف، حتى إنه قال له متسائلًا بعدم فهم:

- ماذا بك يا «عبد الرحمن» ؟ لقد كنت فرحًا عندما خرجنا من القلعة، ما الذي ألمّ بك؟

كانا قد وصلا إلى دكان «خورشيد»، فقال له «عبد الرحمن» وقد وجدها فرصة مناسبة للفرار من إجابة السؤال - فهو لا يعرف بالفعل ما الذي ألمّ به وأصابه عندما رآها، ربما تكون أول فتاة يراها منذ أن دخل القلعة :-

- دكان «خورشيد» كما هو لم يتغير، و«خورشيد» نفسه كما هو لا يستأمن أحدًا على بضاعته؛ لذلك أتى بصبي صغير يعمل معه كما فعل مع «عبد الرحمن» منذ سنوات، لكنه هذه المرة لن يأخذه معه إلى البيت.

نزل «عبد الرحمن» من على جواده، وكذلك فعل صاحبه.. وقف أمام باب الدكان مبتسمًا في صمت حتى جاءه الصبي وهو يقول له بأدب:

- تحت أمرك يا سيدي، هل أساعدك في شيء؟

ضحك «عبد الرحمن» وقال للصبي وقد ذكّرته كلماته بما كان يفعله منذ سنوات:

- لقد قلت هذه الكلمات منذ سنوات.

نظر إليه الصبي بعدم فهم، فسأله «عبد الرحمن» والابتسامة لا تزال على وجهه:

- هل السيد «خورشيد» هنا؟

أجابه الصبي وهو يهز رأسه:

- نعم.. هو بالداخل، ولكني أستطيع أن أجلب لك كل ما تريد.

ردّ عليه «عبد الرحمن» وهو يشير إليه بيده:

- لا.. أنا أريد «خورشيد» نفسه.

فتركه الصبي ودخل عندما رأى إصراره وهو ينادي على سيده، لم يمضِ وقت طويل حتى رأى «عبد الرحمن» الصبي يخرج من الدكان من جديد، ومن خلفه أتى «خورشيد».. كان قد أصبح نحيفًا أحدب الظهر.. لم يمضِ من السنوات ما يجعله يصل إلى هذا الحال بتلك السرعة.. شعر «عبد الرحمن» بالحزن وهو يراه على هذا الحال.. قال له «خورشيد» بصوت واهن:

- تحت أمرك يا سيدي.. يقول الصبي إنك تريدني.

على الرغم من الحزن الظاهر عليه والهم الذي جعل تلك السنوات تفعل به هذا كله، فإنه ما زال يمتلك دماثة خلق التاجر الذي يريد أن يبيع بضاعته، تأكد «عبد الرحمن» أنه لم يتعرف عليه فتهللت أساريره وسلم عليه وهو يقول له بلهجة متسائلة:

- أنت لم تعرفني يا سيد «خورشيد».. أليس كذلك؟

تفحّص «خورشيد» وجهه قليلًا قبل أن يجيبه بلهجة نادمة:

- لا تؤاخذني يا سيدي.. أنا لا أتذكرك، لكنك تبدو كأحد قادة القلعة.. أليس كذلك؟ أنا أعرف الفرسان جيدًا عندما أراهم.

ابتسم «عبد الرحمن» وهو يقول بسعادة:

- لقد اقتربت كثيراً.. أنا فعلًا من القلعة.

ثم استطرد بطريقة ماكرة مداعبًا إياه:

- أتتذكر أحد الأشخاص الذين أرسلتهم إلى القلعة منذ سنوات؟

اتسعت عينا الرجل من المفاجأة وترقرقت الدموع فيهما وانقضّ عليه يحتضنه في فرح وهو يقول بسعادة بالغة:

- «عبد الرحمن»! كيف حالك يا ولدي؟ فيك الخير يا ولد، لم تنسني رغم تلك السنين كلها.

احتضنه «عبد الرحمن» وظل يربت هل كتفه حتى تركه «خورشيد»، ثم قال له وهو يشير إلى «سلام»:

- وهذا «سلام»، ابن صديقك.

سلّم «خورشيد» على «سلام» ونظر إليهما نظرة لم يفهم «عبد الرحمن» هل كانت نظرة فخر أم حسرة على ما ضاع منه، وهو يردد بفرح:

- ما شاء الله.. لقد أصبحتما فارسين بحق.. تعاليا نجلس بالداخل.

دخلوا جميعًا فجلسوا حول منضدة صغيرة في وسط الدكان.. نادى «خورشيد» على الصبي الذي يعمل عنده وقال له:

- اذهب إلى البيت وقل لـ«فاطمة» أن تحضر طعامًا لأربعة أفراد.. بسرعة، لا تتأخر.

انطلق الصبي قبل أن يجد «عبد الرحمن» الفرصة كي يثنيه، فقال لـ«خورشيد» بسرعة:

- ليس له لزوم يا سيدي.. ثم إننا لا نملك الوقت.. يجب أن نعود إلى القلعة بسرعة.

رد عليه «خورشيد» مصرًا:

- لا يمكن.. يجب أن نأكل معًا.

حاول «عبد الرحمن» أن يقنعه أنه لا يمتلك الوقت لذلك، لكن «خورشيد» كان مصرًا لدرجة جعلت «عبد الرحمن» يهز رأسه مستسلمًا ويقول بابتسامة حانية:

- حسنًا.. لكن هل يمكنك أن تحضر لنا البضاعة التي نريدها حتى يأتي الطعام؟

ابتسم «خورشيد» وهو يرد عليه:

- لقد أصبحت لا أقدر على حمل أي شيء.. الدكان كما تركته، إذا لم يزعجك الأمر أحضر أنت ما تريد إذا كنت لا تزال متذكرًا الدكان، أو ننتظر الصبي.

قام «عبد الرحمن» ضاحكًا وهو يقول بمرح:

- ستعيدني أعوامًا للوراء.

ثم نظر إلى «سلام» وقال:

- اذهب أنت يا «سلام» لتطمئن على والدك، بينما أجمع البضائع التي نحتاجها.. حتى لا نضيع المزيد من الوقت.

فقام «سلام» بسرعة وهرول إلى الخارج و«عبد الرحمن» يقول له بصوت مرتفع حتى يسمعه:

- لكن لا تتأخر.

لم يكن توفير الوقت هو السبب الوحيد لطلبه من «سلام» الذهاب، بل كان يريد أيضًا أن يتكلم مع «خورشيد» على انفراد.. كان يظن أن هناك شيئًا ما حدث له.. هل الكبر فعلًا هو السبب وراء شيخوخته المبكرة هذه؟ بدأ «عبد الرحمن» في التحرك في أرجاء الدكان مثلما كان يفعل من قبلُ.. سأل «خورشيد» وهو يلم ما يحتاجه:

- ما لك يا سيدي؟ تبدو متعبًا.

أجابه «خورشيد» بأسى:

- منذ أن مرضت «زهرة» وأنا على هذا الحال.. ربما خوفي عليها.. ربما حزني عليها.. لا أعرف!

شعر «عبد الرحمن» بالحزن من أجله وسأله:

- ماذا بها؟ ألم تحضر لها طبيبًا؟

أجابه «خورشيد» وهو يهز رأسه بحسرة:

- أحضرت لها بدلًا من الطبيب عشرة، ولا فائدة.. قال لي أكثر من واحد منهم إن علاجها يمكن أن يكون عند أطباء السلاجقة، ولكن كيف لي أن أحضر لها واحدًا منهم ليراها؟!

ازداد حزن «عبد الرحمن» من أجله، بينما أضاف «خورشيد»:

- «زهرة» هي كل ما لي في هذه الحياة.. يمكنني أن أضحي بكل شيء من أجلها.

هذا هو شعور الوالد عندما يجد نفسه عاجزًا عن مساعدة ولده.. ربما يملك «خورشيد» المال لكنه لا يملك الشفاء.. قال له «عبد الرحمن» مواسيًا إياه:

- لا تحزن.. سوف يشفيها الله.. هو قادر على كل شيء.

هزّ «خورشيد» رأسه ولم يعقّب، بينما أكمل «عبد الرحمن» عمله في صمت بعد أن عرف ما يكنه «خورشيد» في صدره، كان «عبد الرحمن» مشغولًا فيما يقوم به عندما عاد «سلام».. دخل «سلام» دون أن يتكلم مع أحد وجلس في المكان الذي تركه.. سأله «عبد الرحمن» في دهشة:

- لقد طلبت منك ألا تتأخر لكن ليس إلى هذا الحد.. ما الذي حدث؟ ألم تجد والدك؟

أجابه «سلام» وهو يزفر في ضيق:

- بل وجدته.

فعاد «عبد الرحمن» يسأله:

- لماذا عدت على الفور إذًا؟

أجابه «سلام» وهو يوشك على البكاء:

- لقد قابلني بفتور غريب لم أتوقعه.

لم يكن الوضع يحتمل المزيد من الحزن فقرر «خورشيد» أن ينهي الكلام الحزين لهذا اليوم، فقال لـ«عبد الرحمن» مداعبًا:

- هيا يا «عبد الرحمن».. أنه عملك، لا تتكاسل.

فابتسم «عبد الرحمن» وادعى أنه يخافه وهو يقول بخوف مصطنع:

- حاضر يا سيدي.. لكن لا تعاقبني.

عندما أنهى «عبد الرحمن» وضع بضاعته على الجوادين، كان صبي «خورشيد» قد عاد بالطعام ووضعه على المنضدة بداخل الدكان.. قال «خورشيد» لهما:

- هيا بنا نأكل حتى لا تتأخرا.

رد عليه «عبد الرحمن»:

- كم ثمن البضائع التي أخذناها أولًا؟

أجابه «خورشيد» بإصرار:

- هي هديتي لكما.

رد عليه «عبد الرحمن» وهو يشير بيده معترضًا:

- لا يمكن.. ثم إن هذه البضاعة ليست لي.

ظلا على هذا الحال حتى وافق «خورشيد» أخيراً على أخذ ثمن البضاعة، لكنه قال:

- سوف آخذ ثمنها، لكني سوف أقدم لكما أقل سعر يمكن الحصول عليه.. هذا السعر لكما فقط، إذا أرادوا أخذ البضاعة بهذا السعر فعليهم إرسالكما.. فأنا أحب رؤيتكما دومًا.

كان بالطبع يقصد في الأساس «عبد الرحمن»، لكنه أدرج «سلام» معه محرَجًا.. «سلام» الذي لم يطِق والده رؤيته بعد تلك السنين كلها.

* * *

في طريق العودة إلى القلعة، كان عليهما السير على الأقدام؛ لأن الجوادين قد حملا البضائع ولا يمكنهما حمل المزيد.. كان «سلام» حزينًا لا يتكلم، يفكر فيما فعله معه والده.. بينما كان «عبد الرحمن» لا يتكلم لسبب آخر.. كان يفكر في كيس التمر الذي اشتراه لراعية الغنم.. كان قد أحسّ نحوها بالشفقة.. لا ليس الحب.. هو لم يحبها حتى الآن، لكن كثيراً من الحب قد يبدأ بالشفقة.. عندما وصلا إلى مكانها كانت جالسة كما تركاها في الصباح.. توقف بالجواد، وهذه المرة انتصب الكلب واقفًا لكنه لم ينبح؛ لأنه كان قد ألف «عبد الرحمن» نوعًا ما، أعطى لـ«سلام» لجام جواده وهو يقول له بسرعة:

سوف أتوقف للحظة لأعطي هذه البنت الفقيرة شيئًا ما.

ترك «عبد الرحمن» جواده مع صاحبه الذي لم يفهم شيئًا وجرى نحوها.. نبح عليه الكلب هذه المرة عندما اقترب «عبد الرحمن» من صاحبته كما نبح في المرة الأولى، فرفعت الراعية صوتها متسائلة بقلق:

- مَن القادم؟

رد عليها «عبد الرحمن» مطمئنًا إياها:

- أنا الفارس الذي قابلك في الصباح.. أنا «عبد الرحمن».

كان يقول كلمة الفارس بفخر طفولي لاحظته الراعية ومنعت نفسها من الضحك عليه بأعجوبة، أمسكت الفتاة بالكلب وهدّأته وهي تسأل «عبد الرحمن» بلهجة فيها بعض السخرية:

- وماذا تريد يا سيد «عبد الرحمن»؟

اقترب «عبد الرحمن» منها وهو يجيب:

- لقد أتيتك بكيس التمر هذا، فأنت بالتأكيد جائعة بعد الجلوس هنا بمفردك طوال النهار.

لم تمد الفتاة يدها لتأخذه، بل ردت عليه بصرامة وجفاء:

- شكرًا، أنا لست بجائعة.

عاد «عبد الرحمن» يقول في إصرار:

- فلتأخذيه لتأكليه بالبيت.

ردت عليه الفتاة بجدية وصرامة أكثر:

- لكنني لا أملك ثمنه، ولا آخذ شيئًا من دون مقابل.

فقال لها «عبد الرحمن» برفق:

- ومن قال لك إنني أريد ثمنه؟ هو هدية.

فقالت له الفتاة بصرامة وجفاء:

- لكني لا آخذ هدية من أشخاص لا أعرفهم ولن أردها إليهم.

كان «عبد الرحمن» سيعترض، لكنها أضافت:

- اذهب لحالك يا «عبد الرحمن» أو أترك عليك «فريح».

ثم تركته وبدأت في جمع الخراف والغنم مع كلبها وهي تضحك على «عبد الرحمن» ، الذي على الرغم من الإهانة عاد مبتسمًا إلى صديقه الذي كان ينظر إليه في دهشة وسأله:

- ماذا كنت تفعل معها يا «عبد الرحمن»؟

رد عليه «عبد الرحمن» بعد أن اختفت الابتسامة من على وجهه وحاول أن يُظهر الجدية:

- لا شيء.. هيا بنا حتى لا نتأخر أكثر من ذلك.

لا يدري «عبد الرحمن» لماذا يريد أن يبتسم! ولماذا يجاهد حتى يمنع نفسه من الابتسام! لا يدري لماذا يتذكر ملامحها بتلك الدقة! لا يدري لماذا هو فرح على الرغم من أنها عاملته بجفاء..

كان صعود المنحدر بتلك الحمولة صعبًا.. لكنهما قويان.. بالطبع المهم هنا قوة الجوادين، فهما من يحملان البضاعة.. وصلا أخيراً إلى الباب والشمس في طريقها للمغيب.. عرفهما الحراس ففتحوا لهما الباب على الفور.. دخلا وكان «نسيم» في استقبالهما.. كان الغضب ظاهرًا عليه ويقف بجانبه رجل آخر يبدو أنه في مثل سنه.. كان ذلك الرجل هو قائدًا آخر مثل «نسيم».. يُدعى «رستم».. «رستم» كان يعتقد أنه أفضل من «نسيم»؛ لذلك كان يستاء من تفضيل «حسن الصباح» له واعتماده عليه، ومن أجل ذلك كان «رستم» يصطاد الأخطاء لـ«نسيم» ولتلامذته أيضًا.. وقف «رستم» ينظر إليهما مبتسمًا في شماتة وهو يقول بسخرية:

- لماذا جئتما مبكرًا هكذا؟ كان يمكنكما المبيت بالخارج!

رمقه «نسيم» بنظرة نارية أخرسته ثم قال لـ«عبد الرحمن» بغضب:

- لماذا تأخرت هكذا يا «عبد الرحمن»؟

أعطاه «عبد الرحمن» ما تبقَّى معهما من المال.. نظر فيه «نسيم» متفحصًا ثم قال وهو ينظر إلى الجوادين:

- ألم تجدا كل ما نريد وكنتما تلفان السوق على البضاعة؟

فرد عليه «عبد الرحمن» وهو يجر الجواد نحوه ليريه البضاعة:

- لقد أتينا بكل ما أمرت به يا سيدي وأكثر، وتأخرنا لأننا كنا نتجادل مع «خورشيد» من أجل الأسعار.

نظر «نسيم» إلى المال في يده بفرح، ثم قال مبتسمًا:

- من اليوم، سوف تكون أنت المسئول عن شراء ما نحتاجه من السوق.

ثم نظر إلى «رستم» الذي أصابته خيبة الأمل، وأضاف:

- ولا يهم إذا تأخرت.. هيا ضعا الحبوب في المخزن وبقية الأشياء وزعاها على الرجال مثل كل مرة.

تركهما «نسيم» يكملان مهمتهما وذهب إلى غرفته فرحًا بالمال.. بينما ذهب «عبد الرحمن» مشغولًا بأنه أصبح هو المسئول عن الشراء من السوق.. هذا يعني أن هناك أملًا في أن يخرج من هذا الحصار الذي يعيش فيه مرة أخرى.

* * *

كان «عبد الرحمن» يجلس في غرفته ينظر من الكوة الصغيرة في الجدار إلى العالم الواسع خارج تلك القلعة.. كانت تلك الغرفة هي الغرفة التي أطلق منها أول سهم له.. أخذها لنفسه بعد أن كبر وصار له شأن في

القلعة.. كان نسره يقف أمامه ينظر هو الآخر إلى السماء.. من الكوة نفسها التي أصبحت منفذهما الوحيد إلى العالم الخارجي، لكن الفرق بينهما أن النسر كثيرًا ما كان يطير ويبتعد ثم يعود بإرادته من جديد.. لقد أصبح ذلك النسر مدربًا على الصيد.. كان «عبد الرحمن» يحسده على قدرته على الطيران والتحليق عاليًا، لا يعيده إلى صاحبه إلا الوفاء الذي يفتقده الكثيرون من بني آدم.

لا يعرف «عبد الرحمن» لماذا يفكر في تلك الفتاة راعية الغنم! إنه يقضي معظم وقته الذي ليس فيه تدريب في هذه الغرفة يراقب خرافها.. كانت الغرفة عالية تسمح له بالرؤية لمسافة بعيدة.. كان قد رأى تلك الخراف والأغنام من قبلُ، لكن رؤيتها الآن تمثل له شيئًا آخر.. يشعر الآن بشعور مختلف عندما يراها.. لا يعلم سبب ذلك الحب للخراف الذي صار يشعر به فجأة.

كان يتأمل الخراف من بعيد، فنادرًا ما كانت تظهر الراعية، لكنها لو ظهرت كان يعتبر ذلك جائزة اليوم.. كان يجلس كعادته يتأمل الخراف في انتظار صاحبتها.. اقترب موعد الغروب، وذلك هو الوقت الذي تبدأ فيه الفتاة بمساعدة كلبها في جمع خرافها.. ربما تظهر الآن.

لم تظهر هي هذه المرة، لكن الذي ظهر بدا كأنه رجل طويل قوي البنيان.. بالطبع لم يتبين «عبد الرحمن» ملامحه من تلك المسافة.. هل هو حبيبها؟ لم يعرف «عبد الرحمن» لماذا شعر بالغضب والغيرة.

بعد قليل.. ظهر رجل آخر وثالث ورابع.. بدأ الشك يسري إلى قلبه.. من غير المعتاد ظهور هؤلاء في هذا المكان، لكنه فهم كل شيء عندما رأى أحدهم يركل الكلب ركلة جعلت الكلب يقع على الأرض بلا حراك.. بعدها رأى الفتاة الكفيفة تجري على غير هدى فتقع على وجهها والرجال يضحكون من حولها.

لم يكن عليه الانتظار أكثر من ذلك، فقد رأى ما يكفي.. انطلق «عبد الرحمن» من باب الغرفة كالسهم يجري مجنونًا في ردهات القلعة ليقفز فوق أول جواد رآه.. لم يقابل سوى عصا طويلة فأخذها معه.. هو يعرف أنه ربما لن يحتاجها للتغلب عليهم، لكنه كان غاضبًا لدرجة أن الحارس فتح له باب القلعة دون أن يسأله عن سبب خروجه.

انطلق الجواد على المنحدر كأنه يشعر بغضب راكبه.. ربما أخذ المسافة في ثوانٍ مرت على «عبد الرحمن» كالدهر حتى وصل إليها.. لم يكن يهتم لغيرها.. كان كل ما يريده أن يطمئن عليها.. لكنها كانت في حال يُرثى له.. ربطوا يديها خلف ظهرها، ويبدو أنهم كانوا يريدون الاعتداء عليها..

ملابسها تمزقت من عدة مناطق، لكن ما أوقفهم ظهور «عبد الرحمن»..

نظر إليه أحدهم وقال له باستهزاء:

- ماذا تريد أيها الولد الصغير؟

كان من المعتقد أنه في مثل هذه المواقف أن يجيبه «عبد الرحمن» بقصيدة عصماء ـ ما دام يحب الشعر ـ قبل أن يبدأ بقتالهم، لكن «عبد الرحمن» لم يتكلم.. قفز من فوق الجواد مباشرة على رأس أقرب رجل منه ليشج رأسه بالعصا، ليقع على الأرض فاقدًا الوعي، لم يكترث «عبد الرحمن» كثيرًا لذلك.. اتسعت عيون الثلاثة الباقين بين الرعب والدهشة، لكنهم لم يكونوا ليذهبوا هكذا دون قتال، خاصة أن «عبد الرحمن» لا يبدو قويًا في تلك الملابس الواسعة..

جرى نحوه أحدهم شاهرًا سيفه، لكن الرجل فجأة لم يجد السيف في يده وشعر بقدم «عبد الرحمن» تخترق بطنه لتوقعه على الأرض.. كان الآخران يترددان في مهاجمة «عبد الرحمن» فجرى هو نحو أحدهما فترك سيفه وجرى، أما الآخر فقال لـ«عبد الرحمن» بتوسل وهو يرتعد:

- سوف نذهب يا سيدي.. سوف نذهب.

فقال له «عبد الرحمن» والشرر يتطاير من عينيه:

- خذهما واذهب الآن.

كان الذي أخذ الركلة قد قام فذهب هو والآخر لأول من ضُرب، فوجداه قد شُج رأسه لكنه لم يمُت فحملاه وذهبا..

جرى «عبد الرحمن» نحو الفتاة التي لم تفهم ما الذي يحدث، وضع يده على كتفها فانتفضت في رعب مبتعدة عنه، فقال لها مُطَمْئِنًا:

- لا تخافي.. أنا «عبد الرحمن».

كان صوته المألوف قد طمأنها قليلًا فسألته بصوت مرتعش:

- «عبد الرحمن» من؟

ذكَّرها بنفسه فتذكرته وسألته بخوف:

- هل ذهبوا؟

أجابها بلهفة:

- نعم.. لا تخافي، لقد أتيت من القلعة فور رؤيتهم.

كانت الفتاة لا تزال مربوطة فقالت له بوهن:

- ألن تفك وثاقي؟

قام «عبد الرحمن» بسرعة ليفك وثاقها وهو يعتذر.. تلفتت الفتاة حولها على الرغم من أنها كفيفة وهي تسأل:

- أين «فريح»؟

كان الكلب جالسًا متكورًا على نفسه في خوف وألم بعد الضرب الذي

أخذه من اللصوص.. ذهب إليه «عبد الرحمن» وربت عليه فعاد الكلب معه يعرج عرجًا خفيفًا.. كانت الفتاة قد هدأت وفهمت ما حدث.. مسحت بيدها على رأس الكلب الذي كان قد هدأ وقالت لـ«عبد الرحمن» بخجل:

- أشكرك يا سيدي على مساعدتي.

ثم قامت وهي تضيف:

- لكني يجب أن أذهب الآن.

بدأت الفتاة بمساعدة الكلب - الذي استعاد معظم عافيته - في جمع الخراف التي شردت، فقال لها «عبد الرحمن» بحماس:

- يمكنني مساعدتك وتوصيلك للمنزل.

ردت عليه الفتاة بحزم:

- شكرًا يا سيدي.. أنا أعرف الطريق جيدًا.

فعاد «عبد الرحمن» يسألها ضاحكًا:

- ألن تقولي لي اسمك؟

أجابته بصرامة حتى دون أن تبتسم:

- لا داعي لذلك، لقد قمت بعمل معروف لي وأنا أشكرك.. لقد انتهى الأمر.

وتركته وذهبت دون كلمة أخرى.. كان «عبد الرحمن» مندهشًا لتصرفاتها معه.. هل هذا هو جزاؤه لجميله الذي فعله؟! ربما هي تخافه، أو لا تثق فيه.. وهذا حقها..

عاد «عبد الرحمن» إلى القلعة مسرعًا بعد أن اختفت الراعية وتذكَّر أنه قد خرج من القلعة دون إذن.. عندما دخل من الباب كان «نسيم» في انتظاره وبجانبه «رستم» بالطبع.. نزل «عبد الرحمن» من على الجواد وذهب مباشرة نحو «نسيم» فانحنى أمامه وهو يقول له بأدب:

- يمكنني الشرح يا...

قاطعه «نسيم» وهو يقول بصرامة وغضب:

- لا شرح.. لا أحد يخرج من القلعة دون إذن.. يبدو أنك نسيت القواعد.. اذهب إلى عمود العقاب الآن.

أومأ «عبد الرحمن» برأسه في احترام وتوجه نحو العمود الذي أشار إليه «نسيم».. لكن في أثناء ذهابه لمح ابتسامة «رستم» الشامتة.. كان «أبدس»، أحد تلامذة «رستم»، يقف بجانبه ويتحدث إليه في أذنه، وكما كان «رستم» يغار من «نسيم».. كان «أبدس» يغار من «عبد الرحمن»؛ فغالبًا ما تكون العلاقة بها شيء من الغيرة بين القرناء.. ربما تكون غيرة حميدة تدفع للعمل، وربما تتحول إلى كراهية ورغبة في التدمير.

كان «عبد الرحمن» يعرف جيدًا كيف سيكون العقاب.. سوف يتم ربطه بالعمود لأيام دون طعام أو ماء.. لا يهمه ما سيحدث له، المهم أنه أنقذها، وما يشغله الآن ليس العقاب.. بل يشغله أنه لن يستطيع رؤيتها، حتى لو كان يراها من بعيد دون أن يتبين ملامحها، كان يكفيه أنه يطمئن عليها..

عرف «عبد الرحمن» ساعتها أنه يحبها.

* * *

كانت الشمس في منتصف السماء تمامًا.. لا يمكن الاختباء منها إلا في خيمة أو تحت سقف، بينما كان «عبد الرحمن» مربوطًا إلى العمود في منتصف الساحة.. منذ الأمس وهو على هذا الحال.. كان يشعر بالجوع والعطش، لكنه يستطيع التحمل لأكثر من ذلك بكثير.. لم ينم بالأمس، فقد أصابه القلق على الفتاة التي رفضت أن يوصلها.. هل يمكن أن يعود إليها اللصوص بعد أن تركها؟ ربما كانوا مختبئين في مكان ما يراقبونها.. ينتظرون أن تعود بمفردها؛ لذلك عندما مرَّ عليه «سلام» في الصباح ليطمئن عليه طلب منه أن يذهب إلى غرفته ويرى هل عادت الفتاة إلى الرعي في مكانها أم لا.. لم يكن «عبد الرحمن» يشعر بالتعب لأن القلق تغلَّب على شعوره بالتعب.. لم يستطع «سلام» أن يأتي إليه إلا عند

العصر.. كان يسير متلفتًا حوله في خوف وتوتر.. كان يحمل قربة ماء يريد أن يسقيه دون أن يلاحظ أحد.. لكن «عبد الرحمن» قال له بسرعة:

- خبِّئ هذه القربة الآن.. لو رآك أحد فسوف تُعاقب أنت الآخر.

رد عليه «سلام» وهو يقرب فم القربة من فم صديقه:

- لا يهم.. اشرب بسرعة.

شرب «عبد الرحمن» حتى ارتوى ثم سأله بلهفة:

- هل جاءت الفتاة اليوم؟

أجابه «سلام» بضيق:

- لقد ذهبتُ إلى الغرفة ونظرت من الكوة حيث أخبرتَني، لكني لم أرَ أي شيء.. ربما جاءت ولم أستطع رؤيتها، وربما لم تأت، دعنا في ما نحن فيه، هذا كله بسببها.

ازداد قلق «عبد الرحمن» عليها، وأحسّ برغبة ملحة في الخروج من القلعة والبحث عنها.. كل ما يريده الآن رؤيتها والاطمئنان عليها.. كان «عبد الرحمن» سيسأله إذا كان متأكدًا أم لا، لكنه عندما رفع رأسه ليسأله تجمدت عيناه على الشخص القادم من خلف صديقه.. كان «نسيم» يسير على مهل نحوهما.. لقد رأى «نسيم» قربة الماء.. «عبد

الرحمن» متأكد أن عيني «نسيم» تسمّرت للحظات على القربة في يد «نسيم».. لقد ضاع صاحبه، لن يتحمل العقاب الشديد الذي سيقع عليه.. لم يكن هناك مكان يمكن أن يضع فيه «سلام» القربة دون أن يراها «نسيم»؛ لذلك علم «سلام» أنه معاقَب لا محالة..

لم يتكلم «نسيم» معهما، بل قطع الحبل بخنجر كان يعلقه على حزام عباءته فتحرر «عبد الرحمن».. نظر إليه «عبد الرحمن» ولم يعرف ما الذي عليه أن يفعل.. ظل الموقف كما هو، الجميع يقف في مكانه متجمدًا حتى قال «نسيم» لـ«سلام»:

- خذ صاحبك إلى غرفته.. لقد انتهى عقابه.

أحس «عبد الرحمن» بالامتنان فقال له:

- شكرًا يا سيدي، ولكن...

قاطعه «نسيم» قائلًا:

- لا أريد أن أسمع أي شيء.. اذهب الآن واسترِح؛ لأني سوف أرسلك في الغد إلى «خورشيد» لشراء بعض البضائع.

فانحنى «عبد الرحمن» باحترام والتفت ليذهب مع صاحبه.. لكنه قبل أن يذهب سمع «نسيم» يقول وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- لا تعتمد على حبي لك يا «عبد الرحمن».. ربما لن أستطيع حمايتك في كل مرة.

وظلت تلك الكلمات ترن في أذنيه حتى وصل إلى غرفته.

* * *

لم يستطع «عبد الرحمن» النوم على الرغم من التعب الشديد، ولم يقبل النوم بزيارته ولو لوقت قصير.. كان يعرف أن الليل هو الذي يفصله عن الخروج من القلعة مرة أخرى.. ظلَّ يتقلب على الفراش لبعض الوقت، يحاول النوم دون جدوى.. يقوم ليتمشى في الغرفة الضيقة في الأساس.. ينظر من الكوة إلى الموضع الذي ترك فيه الفتاة آخر مرة، هو يعرف أنها غير موجودة، لكن يؤنسه أن يرى المكان الذي كانت توجد به، ينظر من الكوّة فلا يرى غير الظلام.. ظل على هذا الحال حتى الصباح.. بدأت الحركة تدب في القلعة من جديد.. ارتدى «عبد الرحمن» عباءته وخرج من الغرفة.. كان يفكر هل عليه أن يُذكِّر «نسيم» بما قاله في الأمس، أم سيكلفه «نسيم» بالذهاب مباشرة فور رؤيته..

عندما رآه «نسيم» سلَّم عليه بفتور ثم قال له:

- باشر تدريب أولئك الصبية.

أصابته خيبة الأمل؛ فقد كان يؤمل نفسه طوال الليل بالخروج.. كان في

البداية يريد الخروج لضجره من وجوده بالقلعة لسنوات، أما الآن فقد أصبح عنده دافع أقوى.

ذهب «عبد الرحمن» إلى الصبية الذين كانوا يتدربون على القتال بالعصي.. كانوا يهتمون بالتدريب على استخدام أي شيء للدفاع عن أنفسهم في حالة عدم وجود سلاح..

كان «عبد الرحمن» موجهًا بصره نحو الصبية دون أن يراهم.. كان يراقبهم بنظرة خاوية.. يظهر عليه العبوس والشرود.. لم يخرجه من هذه الحالة غير صوت «نسيم» وهو يقول له:

- «عبد الرحمن».. من الجيد أنني تذكرت.. خذ «سلام» واذهبا إلى «خورشيد»، أحضرا منه مثل ما أحضرتما في المرة السابقة، وخذ كيس النقود هذا.

التقط «عبد الرحمن» الكيس الذي ألقاه إليه «نسيم» وقد ارتسمت الابتسامة فجأة على وجهه.. هل هذه ابتسامة أخرى، التي يراها على وجه «نسيم»؟ من النادر أن يبتسم «نسيم».. انطلق «عبد الرحمن» في أرجاء القلعة يبحث عن «سلام» حتى عرف أنه أصبح مسئولًا عن حراسة إحدى البوابات الصغيرة للقلعة.. كانت تلك البوابة الصغيرة كغيرها يتناوب على حراستها بعض الحراس، لكن قائدهم أصبح «سلام».. كان

أول يوم له ويريد أن يثبت أنه جدير بالقيادة؛ لذلك عندما ذهب إليه «عبد الرحمن» راكضًا وجده يصرخ في وجه أحدهم لأنه لا يقوم بواجبه.. أمسكه «عبد الرحمن» من يده وقال له:

- هيا بنا.

حاول «سلام» الإفلات منه، وعندما لم يفلح قال للحراس وهو يبتعد عنهم و«عبد الرحمن» يجذبه:

- سوف أعود على الفور، فليبقَ كلٌّ في مكانه.

بعد بضع خطوات كان «سلام» قد أفلت يده وقال لصاحبه بغضب:

- لا تقُم بهذه الأمور أمام الحراس حتى لا تضيِّع هيبتي.. ثم إنني عندي الكثير من العمل.. ماذا تريد؟

رفع «عبد الرحمن» أحد حاجبيه وقال له بلهجة ماكرة:

- حسنًا، فلتبقَ أنت هنا مع حراسك وأذهب أنا بمفردي إلى «خورشيد».

بمجرد أن سمع «سلام» كلمات صاحبه تقدمه وأمسك هو بيده وقال:

- فلتذهب البوابة إلى الجحيم.. هيا بنا.

هرولا إلى الجوادين الرابضين عند باب القلعة الرئيس وخرجا من جديد إلى العالم الواسع خارج تلك الجدران التي مهما اتسعت المساحة التي تحدها يشعران فيها بالضيق.. نزلا المنحدر بسرعة كأنهما في سباق.. كان

من الواضح عدم وجود الفتاة.. لكن «عبد الرحمن» كان كلما اقترب ظن أنه سوف يراها.. لا يمكنه أن يفقد الأمل في رؤيتها؛ لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي صار يُسعده بصدق في هذا العالم، حتى وصل بالضبط إلى المكان الذي قابلها فيه أول مرة.. وقف بقدميه حيث كانت تقف كأنه يتحسس موطئ قدميها.. هي غير موجودة.. لماذا لم تعد تأتي؟ هل أصابها مكروه؟

سأله «سلام» بعد أن نزل من على جواده هو الآخر:

- يبدو أنها لم تأتِ اليوم أيضًا.

لم يرد عليه «عبد الرحمن» لأنه لم يكن يملك ردًّا، فاستطرد «سلام» بصوت تغلب عليه الشفقة:

- لماذا أنت مهتم بها لهذه الدرجة؟

لم يجبه، فأضاف:

- أنت تعرف يا «عبد الرحمن» لماذا صُنعنا.. نحن لن نعيش كالآخرين؛ نتزوج وننجب.. نحب ونكره.. يكون لنا أولاد.. لقد صرنا بلا آباء وسنمضي بلا أولاد.. نحن أداة قتل ليس إلّا.

ترقرقت الدموع في عينيه وهو يرد عليه:

- أعلم ذلك يا «سلام».. لكن ماذا أفعل في نفسي التي تؤرقني، ترفض

الواقع الذي نحياه، تذكّرني بكل ما تعلمته من والدي، تذكّرني بالشعر الذي تناسيته لأعوام؟! هذه الفتاة جعلت قلبي يتحرك.. أخذتني إلى الماضي البعيد.. أخذتني إلى ما قبل أن أدخل من ذلك الباب هناك، إلى ذلك العالم المظلم.. لقد صرت أشعر عندما أفكر فيها أنني طفل صغير لا يريد سوى الجري في المروج.. لا أعرف يا «سلام» ماذا أفعل، لا أعرف.

شعر «سلام» بالأسف على حال صاحبه فسأله بلهجة حذرة:

- ألم تفكر في الهرب من القلعة وعدم العودة؟

نظر إليه «عبد الرحمن» بشك ولم يجب، فاستطرد:

- أنا فكرت كثيراً.. لكنني أعرف أن الإمام «حسن الصباح» يمكن أن يعيدني مهما ابتعدت.. إنه يُدخل الجنة ويُخرج منها.. من السهل عليه أن يجدني.

رد عليه «عبد الرحمن» وهو يهز رأسه في يأس:

- وهذا ما يبقيني هنا.

ثم استطرد وقد كبح جماح نفسه:

- هيا بنا نذهب إلى السوق حتى لا نتأخر.

لم يتكلما طوال الطريق.. كانا ينظران فقط حولهما، يتأملان في المناظر الطبيعية.. ينظران إلى بعضهما دون كلام.. حتى وصلا إلى السوق..

لم يلاحظ «عبد الرحمن» في البداية الهمس واللمز عليهما، لكن الأمر زاد وصار من الصعب عدم ملاحظته.. كلما مرّا من أمام أحد نظر إليهما وهمس في أذن صاحبه.. حدث معهما شيء مثل ذلك في أول مرة نزلا فيها السوق، لكن لم يكن بهذه الدرجة.. يبدو عليهما أنهما من فرسان القلعة.. لباسهما وهيئتهما يدلان عليهما، لكن يجب ألّا يصل الأمر إلى أن تلكز هذه السيدة زميلتها وتكاد تخلع كتفها لتخبرها بمرورهما.. أو لدرجة ذلك الرجل العجوز الذي كاد يقفز فرحًا لرؤيتهما.. والصبية الصغار الذين اصطفوا لمشاهدتهما في حماس وفخر..

يبدو أن «سلام» قد لاحظ ما لاحظه صاحبه، حتى إنه قال له:

- لماذا ينظرون إلينا بهذه الطريقة؟

أجابه «عبد الرحمن» بلا مبالاة وهو ينزل من على الجواد أمام دكان «خورشيد»:

- لا أدري، ولا يهم.. هيا بنا نشتري ما نريد حتى لا نتأخر.

كان الصبي الذي يعمل عند «خورشيد» قد عرفهما فور رؤيتهما فتهللت أساريره لهما وقال وهو يشير بيده إلى داخل الدكان:

- سيدي بالداخل.. تفضلا.

قام «خورشيد» من مكانه فور رؤيتهما ورحّب بهما بحفاوة لا تقل عن

المقابلة السابقة.. بعد أن جلسا سأل «عبد الرحمن» صاحبه هامسًا حتى لا يسمعه «خورشيد»:

- ألن تذهب لزيارة والدك؟

أجابه «سلام» بخيبة أمل واضحة:

- ليس هناك داعٍ.. يكفي ما حدث المرة الماضية.

هز «عبد الرحمن» رأسه في يأس وقال:

- حسنًا.. فلنشترِ ما نريد ونذهب.

كان «خورشيد» قد نادى على الصبي ليرسله إلى البيت ليأتيه بالطعام مثل المرة السابقة.. لكن «عبد الرحمن» قال له بإصرار هذه المرة:

- سوف نشتري ما نحتاج ونرحل على الفور.

كان يتكلم بجفاء؛ فحالته النفسية لم تكن تحتمل المجاملات.. رد عليه «خورشيد» الذي لم يلاحظ ضيقه:

- كيف هذا؟! والله لتأكلا معي، خاصة بعد أن أصبحتم أنتم من تحموننا، شرف لي أن تأكلا معي وتشتريا حاجة القلعة مني.

لم يفهم «عبد الرحمن» ما يرمي إليه الرجل، الذي أضاف بفخر:

- يكفي ما فعله فرسان قلعتكم مع اللصوص الذين كانوا سيسرقون «نورسين».

أحس «عبد الرحمن» كأن هناك من ضربه على رأسه.. للحظة فقد توازنه لم فهم ما يتحدث عنه «خورشيد»، فسأله بلهفة:

- هل تقصد الفتاة التي كانت ترعى الغنم عند القلعة؟

أجابه «خورشيد» بفرح:

- نعم.. لقد عادت يومها منهكة، وقابلها بعض أهل القرية في الطريق فأخبرتهم بأمر اللصوص وأن هناك من أنقذها من القلعة.

أحس «عبد الرحمن» بضربات قلبه تزداد ونظر لصاحبه الذي قال له وهو يهز رأسه:

- لذلك ينظر إلينا كل من يرانا في السوق بهذه الطريقة.

فردّ «خورشيد» مؤكدًا كلامه:

- بالطبع، فكل من في القرية قد عرف الخبر.

لم يهتم «عبد الرحمن» سوى بالسؤال عنها، فقال لـ«خورشيد»:

- هل اسمها «نورسين»؟

هز «خورشيد» رأسه كناية عن الإيجاب.. فعاد «عبد الرحمن» يسأله:

- هل هي بخير؟

أجابه «خورشيد» وقد أدهشه اهتمام «عبد الرحمن» بها:

- نعم هي بخير، ولكنها صارت ترعى في الجهة الأخرى من القرية بعيدًا عن القلعة.

عاد «عبد الرحمن» يسأله:

- هل يمكن أن توصلني إلى ذلك المكان.

سأله «خورشيد» وقد ظهرت عليه علامات الدهشة:

- أي مكان؟ مكان «نورسين»؟

أجابه «عبد الرحمن» بلهفة تجعل أي شخص يتأكد من حبه لها:

- نعم.. أريد أن أراها.

لم يدرِ «خورشيد» ماذا يقول له، بينما اكتفي «سلام» بالصمت ومشاهدة المحادثة الدائرة بينهما.. بعد فترة وجيزة من الصمت قال له «خورشيد» بحيرة:

- يمكنني أن أرسل معك الصبي ليوصلك.

فقام «عبد الرحمن» فرحًا وهو يقول:

- حسنًا، هيا بنا.

نادى «خورشيد» الصبي وقال له:

- أنت تعرف الجانب الغربي حيث المرعى الكبير.. هناك ترعى «نورسين» الفتاة العمياء.. وصِّل السيد «عبد الرحمن» إلى هناك.

خرج «عبد الرحمن» مسرعًا من الدكان، لكنه لاحظ أن الصبي يقف عند جواده فسأله عن سبب توقفه، فقال له الصبي:

- ألن تركب جوادك؟

رد عليه «عبد الرحمن»:

- يقول سيدك إن المكان ليس بعيدًا.

فعاد الصبي يقول:

- هو كذلك، ولكني أود لو تركب وتأخذني خلفك.. أنا لم أركب جوادًا من قبل.

ابتسم «عبد الرحمن» وقال لنفسه:

- فلنحقق أمنية هذا الصبي.

في الداخل، كان «خورشيد» مندهشًا من اهتمام «عبد الرحمن» الشديد بالفتاة، حتى إنه سأل «سلام» بعد ذهاب صاحبه:

- ما سر اهتمام صاحبك بتلك الفتاة؟

أجابه «سلام» بلهجة يتضح فيها الكذب:

- لأنه هو من أنقذها، ويريد الاطمئنان عليها.

ظهر الإعجاب في البداية على قسمات «خورشيد»، لكنه عاد وسأله بطريقة ماكرة:

- فقط؟!

فابتسم «سلام» ولم يرد، بينما فهم «خورشيد» لماذا يبتسم «سلام».

* * *

قفز «عبد الرحمن» من فوق الجواد عندما لاحت أمامه خراف «نورسين»، ثم ساعد الصبي على النزول وهو يقول له:

- عد أنت بسرعة إلى «خورشيد».. أنا أعرف طريق العودة.

ترك «عبد الرحمن» الجواد يتجوّل في المرعى بحرية وذهب هو للبحث عن «نورسين».. أول ما رأى «فريح» كلبها الذي نظر إليه بشك في البداية ثم ما لبث أن تعرّف عليه فجرى نحوه وبدأ يتمسح فيه وينبح في فرح..

لاحظت «نورسين» الحركة الغريبة من حولها فنادت على الكلب بقلق:

- «فريح».. «فريح».. أين أنت؟

من الطبيعي أن يصيبها القلق عندما تشعر بأي حركة غريبة بعد ما حدث لها، رد عليها «عبد الرحمن» مبتسمًا، ومن نبرة صوته أحست أنه يبتسم وهو يرد عليها:

- «فريح» معي، لقد تعرّف علي، يبدو أنه وفيّ، ليس كصاحبته، الوفاء صار عملة نادرة بين البشر.

ابتسمت «نورسين» رغمًا عنها عندما عرفته من صوته، لكنها ادعت أنها

لم تعرفه فسألته بطريقة حاولت قدر المستطاع أن تُظهر فيها اللامبالاة:

- من أنت يا سيدي؟

أجابها «عبد الرحمن» مداعبًا:

- وكأنك لم تتعرفي على صوتي!

ردت عليه «نورسين» وقد هربت ابتسامة رقيقة من بين شفتيها، وهي تدّعي أنها تحاول تذكُّره:

- صوتك ليس غريبًا عليّ، لكني لا أستطيع تذكره.

فقال لها «عبد الرحمن» باستفزاز:

- يبدو أن عندك مشكلة في ذاكرتك أو في الوفاء.

زفرت «نورسين» في ضيق لكلماته ولم ترد، فأحس أنها قد غضبت بالفعل، فاستطرد:

- أنا لم أقصد ما قلت يا «نورسين».. أنا آسف.

ردت عليه «نورسين» بحزن وجدية:

- عرفت اسمي أخيرًا! ماذا تريد مني يا «عبد الرحمن»؟

رد عليها «عبد الرحمن» بطريقة مضحكة:

- أريد خروفًا لآكله على العشاء، لكني أريده وسيمًا أبيض اللون، ويا ليته يكون أزرق العينين.

ضحكت «نورسين» رغمًا عنها، مع أن دعابته لم تكن جيدة إلى هذا الحد.. وعندما تضحك على الدعابات السيئة فأنت قد وقعت في حب قائلها، قالت له وابتساماتها لا تزال تزين ثغرها:

- يبدو أنك كثير الأكل.

شجّعه ضحكها ودعابتها فقال لها ملمحًا لحبه لها:

- لو كانت الخراف خرافك فيمكنني أكلها جميعًا.

أحست أنه بهذا المعدل قد يقبّلها بعد قليل، فقررت أن تعيده عند الحد الذي كانت قد وضعته له فقالت له بجدية مفاجئة:

- ماذا تريد حقيقةً مني يا «عبد الرحمن»؟

أجابها برقة:

- أريد أن أطمئن عليك.

ردت عليه «نورسين» وقد تورد وجهها بحمرة الخجل:

- لقد اطمأننت، فلتذهب إلى حال سبيلك.

سألها فجأة:

- لماذا تبتعدين عني يا «نورسين»؟

أجابته بسؤال وشفتاها ترتعشان:

- لماذا تقترب أنت؟

أجابها «عبد الرحمن» دون أدنى فرصة للتفكير:

- لأني أحبك.

فقط كلمتان يمكنهما تغيير كل شيء، يمكنهما أن يذيبا كل الجليد ويزيلا كل الحواجز، ازداد احمرار وجهها حتى يظن من يراها أنها قد وضعت طبقة سميكة من مساحيق الزينة، ولم تتكلم.. ألجمت كلماته لسانها، لقد قال لها الكلمة التي ألهمت الشعراء وقامت من أجلها الحروب وبُنيت عليها الأساطير.. «عبد الرحمن» نفسه أحس بشعور غريب عندما قال لها تلك الكلمة.. لحظات من الصمت مرت عليهما وهما جامدان في محلهما حتى قال لها من جديد وقد أحس أنها لن تتكلم بعد ما قاله لها:

- لماذا لم تعودي إلى مكانك الذي كنت ترعين فيه؟

كان يسألها باستجداء لأنه يتمنى عودتها.

أجابته «نورسين» وهي تطرق بوجهها إلى الأرض على الرغم من أنها لا ترى من الأساس:

- لا أحب أن أظل بجانب من أسدى لي معروفًا وأنا أعرف جيدًا أنني لن أستطيع رده.

رد عليها «عبد الرحمن» بصوت متهدج:

- ما فعلته لك ليس جميلًا، وإن اعتبرت أنه كذلك فرؤيتك والاطمئنان عليك يعتبران ردًا للجميل.

كلما تكلّم معها زادت اعترافاته.. كلما تكلم معها ازداد ثقة في صدق مشاعره نحوها، عادت الابتسامة تكسو وجهها وقالت له بدلال لم تكن تقصده:

- أليس ما تفعله معي من باب الشفقة؟

أجابها بسرعة ولهفة:

- بل أنا من يطلب منك أن تنظري إليه بعين الشفقة والرحمة، لماذا لا ترفقين بحالي؟!

ثم استطرد بدعابة جديدة:

- اعتبريني أحد خرافك، وسأعود لأقول لك: ولو من باب الرحمة، أريدك أن تنظري إليّ بعين الشفقة وتعودي إلى مكان رعيك حتى أطمئن عليك.

لم تضحك «نورسين» هذه المرة لدعابته، بل رددت بسخرية حزينة وهي لا تزال تطرق بوجهها إلى الأرض:

- وكيف سأنظر إليك وأنا عمياء؟

أجابها «عبد الرحمن» بصدق:

- ربما يكون بصرك قد كُفّ، لكنك تمتلكين بصيرة وعزة نفس لم أجدهما

عند غيرك.. ثم إن الحب لا يختار أشخاصًا أصحاب أشكال معينة لنا، بل يختار صفات نحبها أو أخلاقًا نحبها أو طباعًا نحبها، أو حبًا بلا سبب.. يكون هدفك الوحيد هو حبك للشخص، أنا لا أعرف يا «نورسين» لماذا أحبك، لكنني أحبك، لم أكن متأكدًا حتى رأيتك بعد أن غبتِ عني، عندما رأيتك لم أكن أنوي أن أقول ما قلت، لكنني لا أعرف ماذا قلت، أو لِمَ قلته، حبك يا «نورسين» أنطقني.

جلست «نورسين» على الأرض بعد أن أثقلت كلماتُه قلبها فجلس إلى جوارها وقال بصوته الحاني:

- أنت لا تعرفين يا «نورسين» الحياة التي أحياها.. حياة صعبة وقاسية.. لم أتخيّل أن أجد جوار السجن الذي تربيت فيه المنفذ الذي ستخرج منه روحي إلى العالم الواسع.

كانت كلماته تسحرها، ربما لصدقه.. مرّ عليهما الوقت بسرعة يحكي لها عن حياته التي مضت.. والده ووالدته اللذين قُتلا وهو صغير.. عمه الذي باعه.. «خورشيد» الذي لم تقبل زوجته عيشه معها.. التدريبات القاسية في القلعة.. «سلام» رفيقه.. الذي وصل الآن وهو يبحث عنه.

وجده «سلام» يجلس بجانب «نورسين» يتكلم معها، بينما لم يشعر به «عبد الرحمن» إلا وهو واقف أمامه على الجواد.. نظر إليه «عبد

الرحمن» بدهشة في بادئ الأمر ثم تلفَّت حوله وقد فهم أن الوقت قد تأخر.. سأله «سلام» بشفقة:

- لماذا تأخرت يا «عبد الرحمن»؟

قام «عبد الرحمن» بسرعة من على الأرض وهو يجيب:

- لا شيء، هيا بنا.. أين الجواد؟

كان الجواد يأكل ويمرح بحريّة في المرعى مستغلًا انشغال صاحبه، فذهب «سلام» وأحضره له، بينما قال هو لـ«نورسين» قبل أن يذهب:

- هل ستأتين في الغد؟

ردت عليه بسؤال:

- آتي إلى أين؟

أجابها بتوتر وهو يرقب «سلام»:

- للرعي في الوادي عند القلعة.

ابتسمت «نورسين» ولم تُجِب، فاستطرد بسرعة:

- أنا أراك من كوة غرفتي في القلعة.. أرجوك، لا تحرميني من ذلك، وربما استطعتُ أن أقابلك لو سنحت الفرصة.

هزت «نورسين» رأسها بطريقة لم يفهم منها هل ستأتي أم لا وقالت له بابتسامة باهتة:

- إلى اللقاء يا «عبد الرحمن».

هنا تدخل «سلام» وقال بضجر:

- هيا يا «عبد الرحمن».. لقد قالت لك إلى اللقاء.

فركب «عبد الرحمن» جواده وهو يقول لها:

- إلى لقاء يا «نورسين».

اكتفت «نورسين» بانفراجة أوسع لابتسامتها ولم ترد، بينما لكز «عبد الرحمن» صديقه وهو يقول له:

- هيا بنا يا مفرّق الجماعات.

ابتسم «سلام» وهز رأسه بتعجب دون أن يرد، وانطلقا إلى السوق ليأخذا البضاعة ويعودوا بها إلى القلعة.

زيارة الفردوس

في تلك الليلة، غلب النوم «عبد الرحمن» وهو يفكر في «نورسين»، لكنه استيقظ فزعًا في الصباح وأسرع إلى الكوة ليراها هل جاءت اليوم أم لا.. شعر بسعادة بالغة عندما رأى الخراف تجري وتلعب وكأنها فرحة بعودتها إلى جوار القلعة، لم يكن يتوقَّع أنه من الممكن في يوم من الأيام أن تسعده رؤية الخراف لهذه الدرجة..

ارتدى عباءته وخرج من الغرفة ليمارس عمله اليومي، لكنه كان يبدو عليه الفرح والسعادة أكثر من أي يومٍ مضى.. وقف يراقب تدريب مجموعة الصبية المسئول عنهم عندما جاء «سلام» وألقى عليه السلام، فرد «عبد الرحمن» وقال له:

- لقد حضرَت اليوم.

سأله «سلام» بعدم اكتراث:

- من التي حضرت اليوم؟

أجابه «عبد الرحمن» بفرح:

- «نورسين».. لقد عادت للرعي عند القلعة.

هز «سلام» رأسه وقد تذكر للتو وقال بلا مبالاة:

- آه.. نعم.. لقد تذكرتها.

ثم تردد قليلًا قبل أن يضيف سائلًا باستنكار:

- ما الذي يعجبك في هذه الفتاة؟ هي جميلة، ربما.. لكن يوجد مَن هي أجمل منها بكثير.. ثم إنها كفيفة، وكيف يمكن أن تتزوجها على كل حال؟ كما قلت لك من قبلُ، لسنا مثل باقي الناس.

نظر إليه «عبد الرحمن» قليلًا قبل أن يقول له بصوت هادئ:

- هل اخترتَ شكلك يا «سلام»؟

أجابه على الفور:

- بالطبع لا.. لقد خُلقت هكذا.

عاد «عبد الرحمن» يسأله:

- هل اخترت والدك أو والدتك؟

أجاب «سلام» هذه المرة بضيق:

- لو كان من الممكن لما اخترت والدي الذي لا يطيق رؤيتي.

فقال له «عبد الرحمن» وقد تذكر حكايته مع والده:

- من الجيد أنك ذكرت موضوع والدك هذا.. هل تكره والدك لما فعله بك؟

هز «سلام» رأسه نافيًا وهو يقول:

- بل أتمنى له كل خير.

فقال له «عبد الرحمن» وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

- ربما لو كان الأمر باختياري لاخترت فتاة سهلة المنال.. لو كان بإرادتي لاخترت الأجمل، أو اخترت فتاة مبصرة.. الأمر ليس كذلك.. الحب لا يعرف المقاييس المنطقية التي تتحدث عنها.. أنا أحبها.. ربما أحصل عليها أو لا.. ربما أراها مرة أخرى أو لا.. ربما تكون لي أو لغيري.. لكن هذا لن يغيِّر ما أشعر به نحوها.

حتى لو لم يكن كلامه قد أقنع «سلام» الذي اكتفى بهز رأسه في صمت، إلا أنه نقل ما يشعر به نحوها وأفهمه صاحبه.. استطرد «عبد الرحمن» مغيرًا دفة الحديث:

- وكيف حال عملك الجديد؟

ابتسم «سلام» في فخر وأجابه:

- بخير والحمد لله.. لقد قمت مبكرًا لأشرف على الحراس الذين وقفوا على البوابة.. عمل مريح.. أشرف فقط على الحراس.. أقف فقط على البوابة بمفردي بعد العصر بقليل لأنهم يذهبون لإحضار طعامهم.

قال له «عبد الرحمن» مؤكدًا كلامه وقد قفزت فكرة مفاجئة إلى رأسه:

- حسنًا.. سوف تقف بمفردك بعد العصر بقليل، هل أنت متأكد؟

رد عليه «سلام» بحذر مؤمِنًا على كلامه، وقد خشي أن تكون الفكرة التي قفزت إلى رأس صاحبه هي ما يظنه الآن:

- نعم.. هذا هو الوقت الوحيد الذي سأقف فيه بمفردي.

فكر «عبد الرحمن» قليلًا قبل أن يقول:

- ولكنك يمكن أن ترسل الحارس الذي سيكون معك إلى أي مكان وتكون بمفردك أيضًا عند الغروب.

نظر إليه «سلام» بمزيد من القلق وسأله وهو يتمنى ألا يطلب منه صاحبه ما يظن أنه سيطلبه:

- ولماذا أفعل ذلك؟ فالحارس...

لكنه لم يكمل جملته واتسعت عيناه عندما رأى تلك النظرة في عيني صاحبه، نظرة الأمل في اللقاء، عرف «سلام» ما يريده منه صاحبه.. أشار إليه بإصبعه وقال له بتوتر شديد:

- لا يا «عبد الرحمن».. لا يمكن أن أفعل ما تفكر فيه.

نظر إليه «عبد الرحمن» بتوسل:

- أرجوك يا «سلام».. أرجوك.

أدار «سلام» ظهره إليه وبدأ في الابتعاد عنه فتبعه صاحبه وهو ما زال

يتوسل إليه، فقال له «سلام» وهو ما زال يفر منه:

- أنت لا تعرف ماذا سيحدث لنا لو عرف أحد.

رد عليه «عبد الرحمن» مشجعًا:

- لن يعرف أحد.. لا تخَف.

توقَّف «سلام» وقال له بحزم لم يعتده «عبد الرحمن»:

- «عبد الرحمن».. يمكنني أن أفعل لك أي شيء غير هذا.. لا يمكن أن أوافق على طلبك هذا.. على الأقل ليس خوفًا على نفسي، بل عليك أيضًا.. يكفي ما حدث لك من قبلُ بسببها.. يمكنك رؤيتها عندما نخرج لشراء المؤن من «خورشيد».. لكن ما تفكر فيه انسَه تمامًا، لا يمكن لما تفكر به أن يحدث.. لا يمكن.

* * *

- أقبِّل يديك وقدميك.. لا تتأخر.

قالها «سلام» لـ«عبد الرحمن» بتوسل وهو موشك على البكاء وهو يفتح له فرجة صغيرة في البوابة ليخرج منها.. رد عليه «عبد الرحمن» مطمئنًا إياه وهو يخرج مسرعًا:

- لا تخَف، سوف أعود قبل الموعد وأنتظر أن تفتح البوابة كما اتفقنا.

أسرع «عبد الرحمن» بالخروج فأغلق «سلام» البوابة خلفه كما كانت وعاد إلى مكانه.

كان على «عبد الرحمن» تضييع بعض الوقت في الدوران حول تلة صغيرة حتى لا يراه الحراس على البوابة الرئيسة، ثم بعدها ينزل من على مكان مرتفع إلى منتصف الطريق المنحدر المؤدي إلى القلعة.

الوقت الذي ضيّعه في الاختفاء كان يتمنى أن يقضيه مع «نورسين»، لكن قضاء القليل من الوقت معها أفضل من لا شيء على الإطلاق، هو كذلك لا يريد أن يتأخر حتى لا يفتضح أمره، وحتى يرضى «سلام» بفعل ما فعله مرة أخرى.

عندما وصل «عبد الرحمن» إلى المنحدر بدأ الجري إلى أسفل حتى رأى الخراف التي كانت تجري وتلهو كعادتها.. أحيانًا كان يحسدها على الحرية وراحة البال التي كانت تنعم بها وتعيش فيها، بالإضافة إلى قربها من «نورسين» التي قبل أن يصل إليها بدأ في الكفّ عن الجري حتى تهدأ أنفاسه قليلًا، يكفي التوتر الذي يصيبه ودقات قلبه التي تتسارع بمجرد وقوع عينيه عليها، عندما رآها كانت مشرقة أكثر من ذي قبل.. جميلة في عينيه أكثر من أي وقت مضى.. كيف يستكثره «سلام» عليها؟! بل هو يرى أنها كثيرة على أي أحد.

بمجرد أن رآه «فريح» جرى نحوه وبدأ ينبح في سعادة.. هو كذلك لم ينسه، كان يحمل له قطعة لحم ألقاها له فبدأ في أكلها هو والكلاب الصغيرة التي كانت معه.. تنبهت «نورسين» لوجوده بسبب نباح كلبها السعيد فنادت عليه في تساؤل تفوح منه رائحة الأمل:

- أهذا أنت يا «عبد الرحمن»؟

لم يرد «عبد الرحمن»، بل نظر في صمت إليها حتى نادت عليه مرة أخرى، فأجابها بسرعة لأنها بدأت تفزع:

- نعم يا «نورسين».. هذا أنا، لا تفزعي.

فقالت له في لوم وشفتاها تختلجان:

- لماذا لم ترد مباشرة عندما ناديتك أول مرة؟ هل تريد أن تفزعني وتسخر مني؟

أجابها «عبد الرحمن» بحنان وهو يتنهد:

- كنت أريد أن أسمع اسمي منك مرة أخرى.. لم أعرف أنه بهذا الجمال إلا عندما سمعته منك.

ابتسمت «نورسين» بخجل زاد من جمالها، وجلست مرة أخرى في مكانها بعد أن كانت قد قامت.. جلس «عبد الرحمن» بالقرب منها قدر المتاح،

بينه وبينها مسافة ليست بالكبيرة حتى تستطيع سماعه جيدًا.. سألها وهو يتأملها:

- كيف حالك يا «نورسين»؟

أجابته وهي مطرقة نحو الأرض خجلًا، فعلى الرغم من أنها لا تراه فإن ذلك كان عادة فيها عندما تخجل:

- الحمد لله.. بخير.

عاد يسألها وقد تذكر أنه لا يعرف عنها غير القليل:

- لقد حكيت لك بالأمس قصتي حتى مقابلتي لك، فما حكايتك أنت؟

تنهدت «نورسين» في ضيق وأجابته:

- أنا ابنة أبي الكبرى.. كما قلت لك من قبلُ كنا ندرب الكلاب ثم أضفنا الرعي إلى عملنا.. أبي كان يعمل ليل نهار ليوفر لنا حياة كريمة.. كان لي أخ أصغر مني مباشرة لكنه مرض ومات.. كان هو الذي يساعد والدي، لكن بعد وفاته صرت أنا من أساعده.. بعد ذلك بدأ بصري يضعف بالتدريج.. لم أعرف علاجًا لمرضي أنا الأخرى حتى فقدت بصري تمامًا.. بعدها وقع والدي من فوق تلة وهو يطارد كلبًا بريًا.. كاد يموت، لكنه ظل حيًا قعيد الفراش لا يستطيع الحركة.. لي أخان صغيران ربما عندما يكبران قليلًا يساعدانني في العمل.

تمنى «عبد الرحمن» ساعتها لو كان حرًا.. لو كان يستطيع هو مساعدتها.. لم يعقِّب على حديثها بل تركها تكمل في حزن:

- أنا لم أعد أتذكر شكلي.. لم أعد أتذكر الألوان وأشكال الأشخاص الذين عشت معهم وأعرفهم.. لم أعد أتذكر أي شيء.

شعر «عبد الرحمن» بالشفقة نحوها، كان الأمر يحتاج منه إلى مجهود خرافي حتى لا يضمها إلى صدره، قال لها بصوت عندما سمعته أحست بمدى حبه لها، فألمه لألمها كان واضحًا في صوته:

- لست وحدك من تشعرين بهذا الشعور.. منذ أن دخلت القلعة وأنا أشعر كأني في سجن كبير، يا ليتني كان يمكنني مساعدتك يا «نورسين»، يا ليتني كان يمكنني خدمتك، ليس مساعدتك.

قالت له «نورسين» متسائلة بشك:

- ألا يمكن أن يكون شعورك نحوي مجرد شفقة على حالي؟

رد عليها «عبد الرحمن» بابتسامة لم ترَها:

- هل يمكن أن أغامر بحياتي من أجل الشفقة؟ أنت لا تعرفين العقاب الذي عوقبته بسبب خروجي من القلعة المرة السابقة لإنقاذك.

سألته «نورسين» عن الذي حدث له فحكى لها عن عقاب «نسيم» له، وما

إن أنهى حديثه حتى تنبّه لمرور الوقت بسرعة، فقام من مكانه وقال لها بتوتر:

- يجب أن أذهب الآن.

سألته «نورسين» بسرعة دون تفكير:

- لماذا ستذهب بسرعة هكذا؟!

ثم تنبهت لاندفاعها، فعادت تضيف بصوت متلجلج:

- أقصد أنك لم تسترِح بعدُ.

كانت تريد أن تخبره كم هي ممتنّة لما فعله معها. فرح عندما شعر أنها تود لو يجلس معها مزيدًا من الوقت، لكنه كان يجب عليه الذهاب حتى لا يتأخر على «سلام» فقال لها:

- لو كان الأمر بيدي لما تركتك لحظة واحدة.. لكن كما تعلمين فقد خرجت خلسة دون أن يراني أحد.. صديقي «سلام» فقط هو من يعرف بخروجي.. يجب أن أعود قبل أن يلحظ أحد غيابي.. خذي كيس التمر هذا.. هديتي التي لم تقبليها من قبلُ.. هل ستقبلينها الآن؟

ابتسمت وأخذت منه الكيس وهي تقول له:

- شكرًا يا «عبد الرحمن».

رد عليها وهو يضحك:

- شكرًا على ماذا؟ هذا شيء بسيط، بل أنا من يجب أن يشكرك لأنك تقبلين التحدث إليّ والجلوس معي.

فقالت له وهي تبتسم بحياء:

- أنا لا أشكرك على التمر فقط.. بل أشكرك على كل شيء.

فنظر إليها «عبد الرحمن» بعشق وقد فهم ما تعنيه بـ«كل شيء».

* * *

كان «عبد الرحمن» سعيدًا وهو في طريق عودته، لكنه كان قلقًا من أن يكون أحد قد اكتشف غيابه عن القلعة.. كان طريق العودة أصعب؛ لأن عليه الصعود.. فالطريق إلى القلعة مرتفع، كما أن عليه التخفي والالتفاف حتى لا يراه أحد.

وصل إلى المكان الذي اتفق مع «سلام» أنه سوف ينتظر فيه.. وصل قبل الموعد بقليل.. أحس بوجود حركة عند البوابة.. سمع صوت «سلام» من الداخل.. بعد قليل هدأ الصوت وخفتت الحركة ثم فُتحت فرجة في الباب ظهر منها رأس «سلام» يبحث عنه.. لم يكن «سلام» يمكنه أن يراه، لكن «عبد الرحمن» بمجرد تأكده من أنه «سلام» انطلق نحو البوابة فدفعه برفق ثم دخل.

كان «عبد الرحمن» يلهث من الجري بينما «سلام» يلهث من الخوف..
ظل «سلام» يتفرّس وجهه وكأنه يتأكد من أنه هو، ثم ردد بمزيج من القلق والفرح والتوتر:

- الحمد لله.. الحمد لله.. لقد عدت في الوقت المناسب.

سأله «عبد الرحمن» في قلق:

- هل حدث شيء؟

أجابه «سلام» مُطَمْئِنًا:

- لا تخَف.. لقد سأل السيد «نسيم» عنك.. لكن منذ وقت قصير.. أنا قد أرسلت الحارس ليراك في غرفتك وقلت له إنني سأقف هنا حتى يعود.. بالطبع لن يجدك هناك؛ لذلك من الأفضل أن تذهب بسرعة إلى «نسيم» حتى لا يشك في الأمر.

عاد «عبد الرحمن» يسأله:

- أين ينتظرني؟

أجابه «سلام» بلهجة توحي بالخطورة:

- في بيت الإمام.. يبدو أن هناك شيئًا مهمًا.

شعر «عبد الرحمن» بمزيج من القلق والتوتر، لماذا ينتظره في بيت الإمام؟! ربما يعني ذلك أن هناك مهمة صعبة سوف يكلفونه بها.. جرى

إلى بيت الإمام حتى لا يتأخر عليهم.. لم يكن يخشى أي مهمة مهما كانت صعبة أو خطرة، لكن ما يخشاه هو أن يبتعد عنها.. «نورسين»، التي غيّرت نظرته للحياة على الرغم من أنها هي نفسها لا ترى أي شيء من حولها.

ترك «عبد الرحمن» صديقه «سلام» يزفر في ارتياح وقد تأكد أنه لم يرَ أحدٌ أيّ شيء.. لكنه لم يفطن لوجود «أبدس» الذي كان يراقب البوابة منذ أن خرج «عبد الرحمن» منها.. كان يكره «عبد الرحمن».. ربما هي مجرد غيرة، وربما تحوّل كره معلمه «رستم» لـ«نسيم» إلى كره من «أبدس» لـ«عبد الرحمن»..

بعد أن ذهب «عبد الرحمن» ليرى ما الذي يريده «نسيم» أسرع «أبدس» إلى معلمه حتى يخبره بما رأى، سأل «رستم» تلميذه بعد أن أنهى حكايته:

- هل أنت متأكد من أنه هو «عبد الرحمن»؟

أجابه «أبدس» مؤكدًا بيقين:

- بالطبع يا سيدي.. هل هذا شيء سوف أخطئ فيه؟!

داعب «رستم» لحيته القصيرة وهو يفكر، ثم قال لـ«أبدس»:

- هذه ليست المرة الأولى التي يخرج فيها من القلعة دون إذن.. لقد عاقبه «نسيم» على خروجه قبل ذلك، وربما ليست المرة الأولى التي يخرج فيها خلسة.. لا تقُل لأحد ما رأيت اليوم.. لكن في المرة المقبلة أريد أن أعرف إلى أين يذهب.

في تلك الأثناء، كان «عبد الرحمن» قد وصل إلى بيت «حسن الصباح».. كان أكثر بيت متواضع في القلعة.. ينفق «حسن الصباح» معظم وقته في القراءة والتأمل، عندما رآه الحاجب على باب البيت عرفه وقال له على الفور:

- إنهم في انتظارك بالداخل.

أدخله الحاجب في ساحة كبيرة أمام الغرفة التي يعتاد «حسن الصباح» الجلوس فيها وقال له:

- تفضل بالجلوس حتى أخبرهم بوصولك.

جلس «عبد الرحمن» يلتقط أنفاسه، بينما غاب الحاجب قليلًا ثم عاد بكأس فيها بعض العصير وهو يقول له:

- تفضل اشرب.. سوف تدخل بعد قليل.

أخذ «عبد الرحمن» الكأس وشربها دفعة واحدة.. لقد كان عطشًا بعد أن جاء جريًا.. ليس فقط من عند البوابة، بل من عند «نورسين»..

جلس «عبد الرحمن» ينتظر أن يناديه أحد للدخول، لكن لم يخرج أحد من الغرفة.. الحاجب عاد إلى مكانه عند باب البيت لا يلتفت إليه من الأساس.. بدأ يشعر بالتعب، ربما بسبب المجهود الذي قام به اليوم.. لكن أي مجهود؟! يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك بكثير.. لماذا يشعر أن رأسه ثقيل؟ إنه يشعر بالنعاس.. لن يكون جيدًا أن ينام هنا.. ماذا لو خرج «نسيم» ليجده نائمًا.. لا، لن ينام.. يجب أن يظل مفتوح العينين.. حاول النهوض حتى لا يغلبه النعاس، لكنه فجأة وقع على الأرض وغاب في عالم آخر.

* * *

عندما استيقظ «عبد الرحمن» كان رأسه ثقيلًا.. لا يدري كم مر من الوقت.. تذكّر أنه كان ينتظر الدخول إلى الإمام فجلس فزعًا.. كان يتمنّى ألا يكون الإمام رآه وهو على هذا الحال..

لكن مهلًا.. هو ليس نائمًا على الأرض.. إنه على فراش وثير.. هذه حتى ليست غرفته.. أين هو؟

جلس «عبد الرحمن» على الفراش الذي لم يجلس على أكثر لينًا منه طوال حياته.. كان نائمًا في خيمة جوانبها من الحرير اللامع البراق.. رائحة

البخور والعطر تملأ المكان.. صحائف موضوع عليها ألوان وأشكال من الفاكهة.. شابتان

تجلسان تحت قدميه لم يرَ أجمل منهما في حياته ترتديان ملابس خفيفة شفافة..

أين هو؟ سؤال دار بخلده، هو لم يرَ مثل هذا النعيم والجمال من قبلُ..

كان يتوقَّع الجواب.. لكنه على الرغم من ذلك سأل إحدى الفتاتين حتى يتأكد فردت عليه بصوت جميل ناعم:

- أنت في الجنة يا سيدي.

عاد «عبد الرحمن» يسألها بدهشة:

- كيف أتيت إلى هنا؟

أجابته الفتاة بذلك الصوت الساحر الذي يسلب الألباب:

- لقد أرسل الإمام ملائكته وأحضرتك إلى هنا.

نظر «عبد الرحمن» إليها بفرح وسألها فجأة:

- حسنًا.. أين يمكنني أن أجد أبي وأمي؟

نظرت إليه الجارية بدهشة، فلم تكن تتوقع أبدًا أن يكون هذا مراده من دخول الجنة، لكنها قالت له على الفور حتى لا يشك في الأمر:

- هذه الجنة لفرسان القلعة فقط.. من الممكن أن يكونوا في مكان آخر.

ثم اقتربت منه حتى أصبحت رائحة عطرها الفواح تقتحم فتحتَي أنفه وقالت بدلال:

- يجب ألا نضيِّع الوقت في مثل هذا الكلام.

أبعدها «عبد الرحمن» عنه برفق وقال لها بلين:

- سوف أخرج لأتفقد المكان.

خرج «عبد الرحمن» من الخيمة وسط دهشة الجارية وحيرتها.. وقف أمام الخيمة ينظر إلى المكان من حوله.. لم يرَ مكانًا بهذا الجمال من قبل: مروج خضراء.. ما يشبه أنهارًا صغيرة تجري هنا وهناك تستحم بها بعض الجاريات.. الجواري يرقصن ويلعبن في كل مكان..

خرج «عبد الرحمن» من الخيمة وتمشَّى قليلًا حولها يتفقد المكان الذي كانت تكسوه الأشجار والخضرة في كل اتجاه.. خرجت الجارية التي تحدثت معه في الخيمة على أثره.. تنبه لها «عبد الرحمن» فسألها بتعجب:

- هل تريدين مني شيئًا ما؟

أجابته الجارية بأدب وخضوع وهي تنحني:

- بل أنا التي في خدمتك يا سيدي؟

رد عليها «عبد الرحمن» بهدوء:

- شكرًا، لا أريد منك أي شيئًا.

عادت الجارية تقول له بلهجة خبيثة:

- لكن يمكنني أن أفعل لك كل ما تريد.

رد عليها «عبد الرحمن» بصدق:

- لكني لا أريد منك شيئًا.. أشكرك.

عادت تسأله هذه المرة بين الإغواء والدهشة:

- ألا تريد ما يريده الرجال من النساء؟

كان «عبد الرحمن» يفهم ما ترمي إليه، لكنه ظن أن رفضه لها قد يجرحها؛ لذلك كان يماطلها.. لكنه هذه المرة رد عليها:

- قد يريد الرجال من النساء الكثير من الأشياء.

ضحكت الجارية بطريقة ماجنة وقالت له:

- لكني أجيد أهم شيء يريده الرجال.

عاد «عبد الرحمن» يسألها:

- وما أعلمك أن ما تجيدينه هو أهم شيء عند الرجال كلهم؟

بدأت الضحكة تختفي من على شفتيها، لكنها أصرّت على أن تظل لهجتها ممتلئة بالدلال وهي ترد عليه:

- لأن ما أقدمه لهم هو أشهى ما يحبونه.

ابتسم «عبد الرحمن» ونظر حوله ثم قال لها:

- هل ترين هذه الأشجار كلها من حولنا؟

أجابته الجارية بدهشة:

- نعم.. ماذا بها؟

أجابها «عبد الرحمن»:

- ليس بها شيء، ولكن ماذا لو لم تكوني جائعة؟ هل ستأكلين ما عليها؟

ردت الجارية:

- بالتأكيد لا.

عاد «عبد الرحمن» يسألها:

- هل هذا يعني أنك لا تحبين الفاكهة؟

أجابت الجارية بالنفي.. فعاد «عبد الرحمن» يسألها:

- هل هذا يعني أن الفاكهة ليست شهية؟

أجابت مرة أخرى بالنفي، وقد فهمت ما يرمي إليه فسألته:

- هل أنت متزوج أو عندك من الجواري في الخارج ما أشبعك؟

أجابها «عبد الرحمن»:

- لا.. كل الذين في مثل سني بالقلعة لم يتصلوا بالنساء، ومعظمهم لم يروهن منذ سنوات.

عادت الجارية تسأله:

- فما الذي يجعلك تشعر بعدم حاجتك فيهن؟

أجابها «عبد الرحمن»:

- لأن قلبي مشغول بواحدة في الخارج.

لم يعلم «عبد الرحمن» هل هذه النظرة التي رآها في عيني الجارية نظرة عطف أم شفقة.. حزن أم غيرة.. قالت له الجارية:

- أنت في الجنة! أمامك الكثير من الجواري.. اخترَ من تريد منهن.. لو لم أعجبك أمامك السمراء، أمامك الممتلئة والنحيفة.. اختر من تشاء.. كلنا هنا في خدمتك.. هل التي تحبها في الخارج أجمل منا جميعًا؟!

أجابها «عبد الرحمن» وهو يبتسم؛ لأن صورة «نورسين» حضرت من ذاكرته أمامه الآن وهو يتحدث عنها:

- هي في نظري كذلك.. المحب لا يرى الجمال إلا في محبوبته.. ولا يرى أي عيب فيها، وحتى لو رأى عيبًا سيحبه.

نظرت الجارية في الأرض ولم تتكلم.. لأول مرة تشعر أنها سلعة بائرة..

أحس «عبد الرحمن» بالشفقة نحوها فسألها:

- من أين أنتِ؟ وأين أنا؟

أجابته الجارية بقلق:

- أنت في الجنة.

عاد «عبد الرحمن» يقول بخيبة أمل:

- لكني كنت أعتقد أن في الجنة سيجد المرء راحة البال، لكني أفتقدها في هذا المكان على الرغم من جماله وسحره.

توترت الجارية وقالت له:

- تعالَ لتأكل إذًا.. أنت لم تأكل منذ فترة طويلة.

كان «عبد الرحمن» يشعر بالجوع فاتبع الجارية إلى الخيمة، جلس على الفراش قليلًا حتى جاءه الطعام.. كانت هناك الكثير من الصحائف وعليها مختلف الأصناف.. أكل «عبد الرحمن» القليل قبل أن يغلبه النعاس من جديد..

وقفت أمامه الجارية التي كان يتحدث إليها وقد جاءت بجانبها جارية أخرى قالت لها سائلة:

- ما حكاية هذا الشاب؟

أجابتها الجارية التي كانت تتحدث مع «عبد الرحمن»:

- حكايته غريبة.. يجب أن نخبر «نسيم» بما حدث معه.

ثم أضافت وهي تضع عباءة ثقيلة على ثيابها الشفافة:

- أظن أن هذا الشاب لن يأتي إلى هنا مرة أخرى.

وظلت تنظر إلى «عبد الرحمن» الذي غرق في سبات عميق.. كانت تنظر إليه في مزيج من الدهشة والإعجاب.

* * *

خرجت الجارية من باب صغير ضيق يؤدي إلى رواق طويل عليه مجموعة من الحراس نظروا إليها فعرفوها على الفور وهزوا رؤوسهم لها باحترام.

كانت الجارية نفسها التي تحدث إليها «عبد الرحمن».. مشت في الرواق الطويل حتى وصلت إلى نهايته.. في نهايته كان هناك جناح كبير موجود به مغطس في وسطه وأرائك منتشرة في كل مكان.. كان المكان يختلف عن بقية الأماكن بالقلعة؛ حيث كانت تتسم بالتقشف والزهد ظاهريًا..

تحركت الجارية بخفة وصوت كعب حذائها يبدو جليًا على الأرض المغطاة بالقرميد مع صوت الخلخال المطوق لنهاية ساقيها.

ركعت على الأرض خلف رجل كان ينظر من نافذة في أحد الجوانب، ويبدو أنه كان شاردًا؛ لذلك لم ينتبه لقدومها وقالت باحترام:

- لقد وصلت يا سيدي.

التفت الرجل الذي لم يكن سوى «نسيم» في جناحه الذي يستريح فيه بعيدًا عن أنظار تلاميذه.. سألها بشك:

- هل انتهيت منه بهذه السرعة؟

كانت الجارية تحاول أن تبحث عن إجابة مناسبة تصف بها ما حدث مع «عبد الرحمن» فقالت بتلعثم:

- ليس بالضبط يا سيدي، ولكن حدث معه شيء غريب.

نظر إليها «نسيم» بضجر وقال:

- كلي آذان مصغية.

سردت له الجارية ما حدث مع «عبد الرحمن» بالتفصيل.. فبدأت ملامحه تتبدل شيئًا فشيئًا.. حتى إذا انتهت كان القلق يبدو واضحًا عليه فسألها بحيرة وقلق:

- هل تعتقدين أنه قد فهم حقيقة المكان؟

أجابته الجارية بثقة:

- لا أظن ذلك.. لكنه في الوقت نفسه غير مقتنع.. يبدو أنه يحب فتاةً ما لدرجة كبيرة.

سألها «نسيم» مرة أخرى:

- من تلك الفتاة؟ وأين قابلها؟ ألم يتحدث معك عنها؟

هزت الجارية رأسها بالنفي، فسألها «نسيم» مرة أخرى:

- أين هو الآن؟

ردت الجارية:

- مُخدَّر، وسيتم نقله إلى بيت الإمام.

قال «نسيم» كأنه يتكلم إلى نفسه:

- لو علم الإمام بما حدث فسوف يطلب منه أن يثبت ولاءه بالقفز من فوق سور القلعة.. يجب أن أخبر «عبد الرحمن» بقبول المهمة على الفور.

خرج «نسيم» مسرعًا وهو يقول للجارية:

- عودي أنتِ الآن.. ولا تحكي ما حدث مع «عبد الرحمن» لأي أحد.. سوف أرسل إليك إذا احتجتك.

هرول «نسيم» بين أروقة القلعة في تلك المنطقة التي لا يدخلها غير الخاصة حتى وصل إلى بوابة أخرى صغيرة مثل التي دخلت منها الجارية.. لكن تلك كان عليها حراسة أشد.. خرج منها «نسيم» ليقابل مجموعة من الحراس وقفوا فور رؤيته لكنه لم يلتفت إليهم.. مشى بعدها في منطقة تشبه الوادي قبل أن يصل إلى بوابة أخرى أوصلته إلى رواق طويل ومجموعات من الحراس عبرهم حتى وصل إلى المنطقة المأهولة من القلعة.. أكمل «نسيم» سيره المجد حتى بيت «حسن الصباح».. وجد الحاجب يخرج من الداخل فسأله فور رؤيته:

- هل وصل «عبد الرحمن»؟

أجابه الحاجب بهز رأسه كناية عن الإيجاب.. فعاد «نسيم» يسأله بلهفة:

- هل قابل الإمام؟

رد عليه الحاجب:

- لا.. الإمام لم يقابله حتى الآن.

فدخل «نسيم» بسرعة ليجد «عبد الرحمن» ما زال نائمًا وإن كان قد بدأ يتململ.. جلس «نسيم» إلى جواره ينتظره أن يستيقظ.. كان «نسيم» يرى أن «عبد الرحمن» أفضل تلميذ عنده.. كان يراه أفضل صنعته.. إنه الأقوى والأسرع.. الأذكى والأدهى.. لكن هل يكون الأوفى؟ هذا ما يقلقه.. هذا الشاب نفسه طواقة لشيء بعيد.. شيء لم يعرفه «نسيم» هذه السنوات كلها، وربما «عبد الرحمن» نفسه لا يعرفه..

بدأ «عبد الرحمن» يتقلَّب وهو على وشك الاستيقاظ، فنظر إليه «نسيم» بترقُّب وقد ألقى أفكاره التي كان غارقًا فيها وراء ظهره مؤقتًا.

فتح «عبد الرحمن» عينيه ليجد نفسه في المكان نفسه الذي نام فيه قبل أن يتم نقله إلى الجنة.. جلس على الأرض ليجد «نسيم» يجلس إلى جواره، فقال له بفرح:

- سيد «نسيم».. كيف حالك؟

رد عليه «نسيم» بقلق:

- بخير.. كيف حالك أنت؟ بالطبع فرحت في الجنة.

أجابه «عبد الرحمن» بخيبة أمل:

- هي جميلة بالطبع.. لكن ينقصها شيء واحد.

سأله «نسيم» على الفور:

- ما هذا الشيء؟

لم يكن «عبد الرحمن» يستطيع أن يقول له «نورسين» فلم يرد.. استطرد «نسيم» وقد فهم أن تلميذه لا يريد الكلام:

- سوف يطلب منك الإمام القيام بمهمة.. اقبلها على الفور.

كان «نسيم» يخشى أن يظهر «عبد الرحمن» بمظهر الفاشل؛ لأن ذلك سوف يؤثر عليه في النهاية.. فـ«عبد الرحمن» تلميذه على كل حال، وفشله أو تمرده فشل له في النهاية.. ردَّ عليه «عبد الرحمن» صادقًا:

- المهمة التي سيكلفني بها الإمام شرف لي، ولو كان فيها موتي.

أحس «نسيم» بالراحة لرد «عبد الرحمن».. بعد قليل جاء الحاجب وأخبرهما أن الإمام ينتظرهما..

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها «عبد الرحمن» الإمام.. كان وقورًا مهيبًا ذا نظرة ثاقبة، على الرغم من أنه لا ينظر كثيرًا إلى من يتحدث إليه.. قال بصوت رخيم:

- إمام الجامع الكبير في أصفهان.. كل همه وعمله أن ينفِّر الناس منا ومن عقيدتنا.. يسخر من كل معتقداتنا ليل نهار.. يفتن حتى الذين دخلوا في ديننا.. ماذا يجب أن نصنع معه؟

رد «نسيم» على الفور:

- يجب التخلص منه يا إمام.

فقال «حسن الصباح» مرة أخرى:

- هل هناك رجل يستطيع أن يخلِّصنا منه؟

فوضع «عبد الرحمن» يده على صدره كناية عن الموافقة، فأعطاه «حسن الصباح» خنجرًا وهو يقول له:

- حسنًا يا «عبد الرحمن».. اقتله وأرِح الناس من شره.. ولو قُتلتَ سوف أرسل ملائكتي لتنقلك إلى الجنة التي كنت فيها.

ابتسم «عبد الرحمن» ابتسامة شاحبة وهو يأخذ الخنجر ويدسه في ثيابه، ثم انحنى احترامًا للإمام وانصرف مع «نسيم».. كان «عبد

الرحمن» يريد أن يطلب منه شيئًا آخر غير الجنة التي كان بها، لكنه لم يجرؤ على ذلك.

* * *

خرج «عبد الرحمن» مع «نسيم» ليتفق معه على الخطة التي سوف يتبعها لقتل إمام الجامع الكبير «علم الدين»، شيخ «أصفهان».. قال له «نسيم»:

- سوف تتخفى في ثياب طالب علم من مدينة «سافا».. أنا اخترت هذه المدينة لأنك منها وعاداتها لا تختلف كثيراً عن عاداتنا هنا، لكن الأهم أن ملامحك قريبة من ملامح أهل «سافا» أكثر، وذلك الرجل عنده من علم الفراسة ما يجعله يعرف موطنك من ملامحك، وربما اضطررت للحديث معه أو التقرب إليه حتى تقضي عليه؛ فـ«علم الدين» محاط بتلاميذه طوال اليوم لا يتركونه أبدًا.

لم يكن «عبد الرحمن» خائفًا من المهمة أو يلق لها بالًا، فمن يمكنه حماية «علم الدين» منه؟ حتى مَن حوله من تلاميذه.. هم في النهاية طلبة علم، ليس لهم في القتال والدفاع عن أنفسهم.. ستكون مهمة سهلة عليه، لكن عليه أن يختار الوقت المناسب فلا يلتف الناس من حوله ولا يستطيع الفرار.. معظم من قُتل من الحشاشين كان بهذا السبب.

لم تكن المهمة تشغل بال «عبد الرحمن» بقدر ما سيأتي بعدها لو نجح فيها.. سأل «عبد الرحمن» معلمه بحذر:

- ماذا لو نجحت في المهمة يا سيدي وأردت شيئًا آخر غير دخول الجنة؟

كان «نسيم» يعرف ما يريده، لكنه فضَّل ادعاء الجهل، فقال له مستنكرًا:

- وهل يوجد أفضل من الفردوس؟!

هز «عبد الرحمن» رأسه نافيًا وقال:

- بالطبع لا، لكن بالنسبة لي أريد شيئًا آخر غير الفردوس.

فسأله «نسيم» وهو يضيق عينيه:

- وما هذا الشيء؟

أجابه «عبد الرحمن» بحذر:

- أريد الزواج من فتاة أعرفها.

كان «نسيم» يخشى من هذا المطلب؛ فالحشاش يجب ألا تكون له أسرة يخاف عليها أو تجعله يتردد إذا ما كان ذاهبًا للموت؛ لذلك فلا يتزوج أي واحد من الذين يذهبون لأداء تلك المهام.. سأله «نسيم» بدهشة حقيقية:

- وهل هي أجمل من النساء اللاتي رأيتهن في الفردوس؟

أجابه «عبد الرحمن» دون تفكير:

- الأمر لا يتعلق بالأجمل في عيون الناس يا سيدي، هي في نظري أنا الأجمل.

لم يُرِد «نسيم» الاستطراد في هذا الأمر؛ فهو لن يبلغه بالرفض الآن على كل حال حتى لا يؤثر عليه وهو ذاهب لأداء المهمة؛ لذلك قال له حتى ينهي النقاش في هذا الأمر:

- حسنًا، سوف نتكلم في هذا الأمر بعد عودتك.

فهز «عبد الرحمن» رأسه موافقًا وقال:

- حسنًا، ولكن لي طلبًا آخر.

سأله «نسيم» بضجر هذه المرة:

- وما هو؟

أجابه «عبد الرحمن» بتوسل:

- أريد الذهاب إلى «خورشيد» لأودعه قبل الذهاب إلى «أصفهان»، ربما تكون هذه آخر مرة أراه فيها.

نظر إليه «نسيم» قليلًا نظرة شاردة قبل أن يضحك ويقول بسخرية:

- أنت تُشعرني أنك ذاهب للحج!

فرد عليه «عبد الرحمن» بدهاء وهو يبتسم:

- الذهاب إلى الحج عبادة وقتل ذلك الرجل عبادة أيضًا.

اختفت الابتسامة التي كانت على وجه «نسيم» فجأة وعادت الجدية تكسو ملامح وجهه وهو يقول له:

- حسنًا.. اذهب في الغد للقائه، واشترِ منه بعض البضاعة قبل سفرك.. لكن لا تخبر أحدًا أنك مسافر.. فهمت؟ أي أحد.

ففرح «عبد الرحمن» وعاد سعيدًا إلى غرفته.. كان يريد بالفعل أن يودع «خورشيد»، لكن ما كان يشغله أكثر «نورسين»..

يجب أن يراها قبل سفره.

* * *

أسرع «عبد الرحمن» في الصباح إلى «سلام» ليأخذه معه في رحلته المعتادة إلى متجر «خورشيد»، خرج «عبد الرحمن» هذه المرة مطمئنًا ليس كالمرة السابقة التي خرج فيها خلسة..

كان «عبد الرحمن» يحكي لـ«سلام» ما حدث له في الفردوس وكل واحد منهما يتهادى على جواده، أخبره كذلك بنيّته في طلب الزواج من «نورسين» مكافأةً له، هذا لو عاد حيًا، بمجرد أن سمع «سلام» ذلك ضرب كفًّا بكف في حيرة وهز رأسه في دهشة وهو يقول لصاحبه بعدم فهم:

- تدخل الجنة ثم تعود لتطلبها، لقد كنت في الفردوس يا «عبد الرحمن»!

ردّ عليه «عبد الرحمن» بصوت يملؤه الشجن:

- بل هي الفردوس يا «سلام».. هي الفردوس.. الفردوس أراه في عينيها وحبها هبة الله لي.

لم يدرِ «سلام» ماذا يقول له، كان خائفًا عليه، زفر في ضيق وهو يقول له بقلق:

- أراك هالكًا بعشقك هذا يا «عبد الرحمن»!

رد عليه «عبد الرحمن» برضا:

- هلاكي في بُعدي عنها.

ثم استطرد بحماس مفاجئ:

- هيا بنا نجدّ السير ولا نضيع المزيد من الوقت.

كان يريد أن يستغل أكبر قدر من الوقت يمكنه فيه الجلوس مع «نورسين».. كانت قد وصلت مبكرًا كعادتها يجري حولها كلبها «فريح» ويلعب في كل مكان، حتى رأى «عبد الرحمن» فجرى نحوه وهو يتوقع أن يعطيه الطعام مثلما فعل في المرة السابقة، وكان «عبد الرحمن» عند حسن ظن الكلب به.

أحست «نورسين» بقدومه فتوجّهت نحو صوت خطواته وابتسمت، كان «عبد الرحمن» قد نزل من على جواده بينما ظل «سلام» على جواده منتظرًا وقال له:

- لا تتأخر يا «عبد الرحمن».. أمامنا الكثير لنفعله قبل سفرك.

أومأ «عبد الرحمن» برأسه وأسرع إليها.. كان «عبد الرحمن» يريد رؤيتها اليوم ليس فقط لأنه اشتاق إليها، بل كان الأهم من ذلك رغبته في إخبارها أنه سوف يغيب عنها حتى لا تقلق أو تظن به الظنون، وعندما أخبرها أنه لن يستطيع مقابلتها الأيام المقبلة تغيّر وجهها وعبست بعدما كانت مشرقة.. سألها «عبد الرحمن» بقلق عن سبب تجهمها فقالت له:

- لو كنت تعتقد أنك تسرعت فيما قلت لي فلا تقلق، يمكن أن...

قاطعها «عبد الرحمن» بسرعة:

- لا تقولي مثل هذا الكلام مرة أخرى.. سوف أخبرك حتى لا يقع الشك في قلبك.

ثم سكت ليسترد أنفاسه قبل أن يضيف:

- لقد أرسلوني في مهمة.

ظهر الذعر عليها فجأة ومدّت يدها نحوه كأنها تريد الإمساك به لكنها أحجمت.. كانت تسمع عن الاغتيالات التي يقومون بها، وقد مات الكثير من الحشاشين بعد أداء مهامهم؛ لذلك قالت له بخوف:

- لا تذهب يا «عبد الرحمن».. لا تذهب.

شعر «عبد الرحمن» بالسعادة عندما رأى خوفها عليه وقال لها متسائلًا بطريقة أخجلتها:

- هل تخافين عليّ لهذه الدرجة؟

كانت «نورسين» توشك على البكاء وهي تجيب:

- وكيف لا أخاف عليك يا «عبد الرحمن» وقد صرتَ أهم شيء في حياتي؟!

أحس «عبد الرحمن» بمزيج من الحب والفرح، شعر كأنها طفلته المتعلقة به ولا تريده أن يذهب ويبتعد عنها.. قال لها وهو يحاول أن يبث الأمل فيها:

- أولًا: لا يمكنني رفض مهمة كلّفني بها الإمام «حسن الصباح».. ثانيًا: هناك شيء أهم جعلني أقبل بهذه المهمة.

ثم سكت، منتظرًا أن يثير فضولها فتسأله عن ذلك الشيء، لكنها لم تتكلم لأنها كانت مشغولة عليه، فسألها هو في دهشة:

- ألا تريدين أن تعرفي ما هو؟

أجابته في ضيق:

- لا أريد غير سلامتك.

فردّ عليها «عبد الرحمن»:

- ولكني أريد أن أظل معك طوال العمر، لو عدت سوف أطلب من سيدي أن أتزوجك.

تورّد وجهها بحمرة الخجل وقالت له في دلال:

- ومَن قال لك إنني سوف أوافق؟

أجابها وهو يضحك:

- قلبي أخبرني بذلك.. أريد منك خدمة قبل رحيلي.

- وما تلك الخدمة؟

- أريدك أن تقولي لي أحبك مرة واحدة قبل رحيلي.

ازدادت حمرة الخجل على وجهها وهمّت بالتمتمة، لكن فجأة سمعا صوتًا أجشَّ ينادي على «عبد الرحمن».. كان «سلام» قد ملَّ من انتظاره فنادى عليه وقال:

- هيا يا «عبد الرحمن»، هل سنظل هنا طوال النهار؟

ذهبت حمرة الخجل فجأة ورد عليه «عبد الرحمن» بغيظ:

- حسنًا يا «سلام»، أنا قادم.

ثم نظر إلى «نورسين» وقال لها قبل أن يرحل:

- إلى اللقاء يا حبيبتي.

لم ترد «نورسين» واكتفت بابتسامتها البريئة، لكن عندما ذهب تمتمت بصوت منخفض لم يسمعه غيرها:

- إلى اللقاء يا حبيبي.. سوف أنتظرك هنا كالمعتاد.

* * *

رحّب «خورشيد» بـ«عبد الرحمن» كعادته وأرسل الصبي ليحضر الطعام من المنزل على الرغم من اعتراض «عبد الرحمن».. جلس «عبد الرحمن» و«سلام» معه كآخر مرة يتفقان على البضائع ويحضرانها حتى يعود الصبي.. كان «سلام» هو الآخر قد تعرف على الدكان عندما ساعد «خورشيد» في آخر مرة، تلك المرة التي نسي «عبد الرحمن» أن يسأله فيها عن حال ابنته «زهرة»؛ لذلك كان يريد أن يسلم عليه ويسأل عنها قبل سفره.. قال له «خورشيد»:

- حالها أحيانًا يتحسن، وكثيرًا تظل واهنة ضعيفة.

رد عليه «عبد الرحمن» متعجبًا:

- كيف لم يستطع أطباء المنطقة كلهم علاجها؟ شيء عجيب.. هل الأمر سببه عزوفها عن الطعام؟

أجابه «خورشيد» بحزن وحيرة:

- ليس ذلك فقط.. هي حتى عندما تأكل تتقيأ معظم ما تأكل.. ربما لو بقي الطعام في معدتها لتحسنت.

زفر «عبد الرحمن» في ضيق وقال له:

- أرجو أن يشفيها الله.

فرد عليه «خورشيد» بأسى:

- وأنا أيضًا.. لم نعد نملك غير الدعاء.

أنهى «عبد الرحمن» و«سلام» ما جاءا من أجله، وعند عودتهما كانت «نورسين» تستعد للرحيل لتأخُّر الوقت، فلم يستطع «عبد الرحمن» أن يستوقفها كثيراً..

دخل «عبد الرحمن» القلعة.. لن يبيت ليلته فيها، فسوف يسافر بعد قليل متخفيًا، مستعينًا برداء الليل الأسود حتى لا يراه أحد..

بعد قليل، عاد شاب ضخم دخل من الباب نفسه الذي دخل منه «عبد الرحمن» منذ قليل..

بالطبع لم يعلم أحد أن ذلك الشاب كان قد خرج على أثر «عبد الرحمن» يراقبه.. لم يعلم أحد أن «أبدس» قد رأى «عبد الرحمن» وهو جالس مع «نورسين»..

لكنه سوف يخبر معلمه «رستم» بكل ما رآه بعد قليل.

إلى «أصفهان»

في الليل.. حيث يجلس العشاق يجافيهم النوم يفكرون في محبوباتهم.. حيث يقوم العُبّاد بين يدي خالقهم يتعبدون ويتضرعون.. حيث ينام المتعبون من كد النهار، وحيث يخرج القتلة يترصدون فرائسهم..

خرج «عبد الرحمن» متخفياً في الليل حتى يضمن ألا يراه أحد من أهل القرية ولو من باب المصادفة.. كان الجو شتاءً، والشتاء في تلك المنطقة برد وثلج، خاصة منطقة القلعة التي كانت مرتفعة عمّا حولها.

فتح الحراس باب القلعة له وكان «سلام» في وداعه.. ظل «سلام» أمام باب القلعة المفتوح يلوّح له حتى اختفى عن ناظريه.. خرج «عبد الرحمن» على جواده يركب أمامه نسره «ريان» الذي أخذه معه ليساعده على الصيد في الطريق.. لم يُرِد «عبد الرحمن» أن يأخذ معه الكثير من المؤن حتى لا يثقل على الجواد.. خاصة أن الجو بارد والطريق إلى «أصفهان» وعر وقفر.

كان «عبد الرحمن» يسير بالليل لا يخاف الظلمة ولا يخشى اللصوص أو قطاع الطرق.. تذكر والده الذي قتله أحد قطاع الطرق.. يتمنى لو يقابل قاتل والده الآن.. لكن حتى لو قابله لن يتعرف عليه!

بالنهار كان يصطاد أي شيء صالح للأكل بمعونة «ريان» ويختبئ في أي كهف مع الجواد يشوي ما اصطاده النسر بعد أن يعطيه أجزاء منه.

ظل على هذا الحال حتى وصل إلى أطراف «أصفهان».. كان «نسيم» قد أخبره أن يستأجر بيتًا على أطراف المدينة.. سوف يكون رخيص الثمن وبعيدًا عن الأنظار..

سأل «عبد الرحمن» عن بيت مناسب حتى أخبروه أن هناك رجلًا يُدعى «سليمان» لديه بيت للإيجار.. ذهب «عبد الرحمن» حيث أخبره الناس فوجده رجلًا كبيرًا في السن نحيفًا لديه لحية طويلة بيضاء.. كان «عبد الرحمن» لديه لحية صغيرة، لكنه تركها تكبر حتى يشبه طلبة العلم هنا في «أصفهان»..

نزل «عبد الرحمن» من فوق الجواد وترك النسر مربوطًا على ظهره وربط الجواد هو الآخر إلى شجرة حتى لا يبتعد عنه.. اقترب من الرجل وسأله بأدب جم:

- هل حضرتك السيد «سليمان»؟

نظر إليه الرجل الذي كان جالسًا في حقله على الأرض ثم أشاح عنه بوجهه وهو يرد عليه بصوت وقور:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كأن الرجل يريد أن يقول له: نعم أنا «سليمان»، لكن يجب أن تلقي علي السلام أولًا.. أحس «عبد الرحمن» بالإحراج فقال له بصوت مبحوح:

- كنت أريد أن أستأجر بيتك.

ابتسم الرجل بوقار من جديد، كان رجلًا وقورًا في كل شيء، حتى في ابتسامته، قال له محذرًا:

- لو ظللت على هذه الطريقة فلن أعطي لك البيت.

سأله «عبد الرحمن» بدهشة:

- وما هذه الطريقة؟

أجابه الرجل على الفور بالابتسامة نفسها:

- أنا لا أحب الجيران الذين لا يلقون السلام.

ابتسم «عبد الرحمن» على الرغم من أنه كان يريد أن يظل صارمًا مع الرجل حتى يظل هناك حاجز بينهما، لكن طريقة الرجل الودود والمضحكة لم تسمح له بذلك.. قال له «عبد الرحمن» وهو يبتسم:

- حسنًا.. سوف أتذكر ذلك في المرة المقبلة.

قام الرجل بصعوبة من على الأرض وهو يقول:

- الدار التي سوف أعطيها لك، لو أعجبتك ستكون ملاصقة لداري.. هي قريبة من هنا، فكما ترى أنا رجل عجوز لا أقدر على السير طويلًا فبنيت الدارين بالقرب من الأرض واستأجرت مَن يعمل في الأرض.. بعد زواج أولادي وتفضيلهم العيش في قلب المدينة والعمل بالتجارة صرت أؤجر الدار الصغيرة وأستفيد من ثمنها.

كان «عبد الرحمن» قد بدأ يشعر بالضجر.. هو لا يريد أن يسمع قصة حياة الرجل، لكنه كذلك لا يريد أن يكون فظًّا معه، خاصة أن الطيبة تبدو عليه.. ترك «عبد الرحمن» الرجل ينهي حكايته ثم قال له برفق:

- ألن نذهب إلى الدار؟ أنا متعب من السفر وأريد أن أستريح.

بدأ الرجل في السير ببطء شديد فقال له «عبد الرحمن» بتعجب:

- هل معك دابة؟

أجابه الرجل بلا مبالاة:

- المسافة لا تحتاج إلى دابة؛ فالبيت قريب.

كان الرجل يسير ببطء شديد.. حتى لو كان البيت قريبًا، قدَّر «عبد الرحمن» أنهما سوف يقضيان اليوم كله في السير بهذا البطء.. ذهب «عبد الرحمن» إلى جواده المربوط وأحضره إلى الرجل وهو يقول:

- تفضل يا سيدي، اركب جوادي وأنا سوف أسير بجانبك.

كان «عبد الرحمن» يريد أن يُنهي الأمر بسرعة، رد عليه الرجل معترضًا ومتحرجًا منه:

- لا يصح يا ولدي!

عاد «عبد الرحمن» يقول له مصرًا:

- أقسم عليك بالله أن تركب.

ثم أضاف بصوت لم يسمعه الرجل:

- حتى نصل اليوم.

ركب الرجل الجواد بصعوبة بعد أن ساعده «عبد الرحمن».. هو في الحقيقة لم يساعده فقط، بل حمله حملًا.. ظل الرجل يلهث بعض الوقت ويسترد أنفاسه بصعوبة، و«عبد الرحمن» ينظر إليه بترقب يريد أن يخبره الطريق.. هدأت أنفاس الرجل قليلًا ثم قال بصوت تعب:

- هيا يا بني سر إلى الأمام.

أمسك «عبد الرحمن» بلجام الجواد وسار به قليلًا قبل أن يقول له «سليمان» بوهن:

- هل يمكنك أن تبطئ قليلًا يا بني؛ فظهري يؤلمني؟

أبطأ «عبد الرحمن» قليلًا وهو يعزي نفسه بأنهما حتى لو سارا ببطء سيكون ذلك أفضل من أن يسير على قدميه.. سأله الرجل وقد بدأ يسترد عافيته بعد المجهود الكبير بالنسبة إليه، الذي بذله في صعوده الجواد:

- ما الذي أتى بك إلى «أصفهان»؟

أجابه «عبد الرحمن» الذي كان يتوقع السؤال:

- جئت في طلب العلم.. يقولون إن الإمام «علم الدين» يرد على شبهات الشيعة كلها.

ابتسم «سليمان» وهو يرد عليه بفخر وكأن الإمام قريبه:

- هو كذلك، وأكثر بكثير.

أحس «عبد الرحمن» بالغيظ من طريقة كلام الرجل عنه، وأن ذلك الإمام بالفعل فتنة كما قال عنه «حسن الصباح».. عاد «سليمان» يسأله:

- ومن أين أنت؟

أجاب «عبد الرحمن» بسرعة:

- من مدينة «سافا».

هز «سليمان» رأسه وهو يردد:

- «سافا» مدينة جميلة وكبيرة.. لماذا لم تبقَ بها؟ إن بها الكثير من العلماء.

ردَّ عليه «عبد الرحمن» بثقة لأنه كان قد حضَّر إجابات معظم الأسئلة المتوقعة:

- هي كذلك.. لكن وجود الشيعة بكثرة هناك جعل البعض متأثرًا بهم، وهم بالطبع لا يمكن مقارنتهم بالإمام «علم الدين».

ظل «سليمان» يهز رأسه موافقًا على كلامه وهو يسأله:

- هل لك أي قريب هنا؟

شعر «عبد الرحمن» أن هذا الرجل كثير الكلام وكلامه معه يمكن أن يوقعه في المشاكل، لكنه لا يستطيع ألّا يرد عليه؛ لذلك أجاب وهو يخشى من السؤال المقبل:

- لا، ليس لي أي أحد هنا.

فعاد الرجل يسأله:

- ومن أين سوف تنفق؟ هل وجدت عملًا؟

أجابه «عبد الرحمن» بتردد هذه المرة:

- لقد وصلت اليوم، لكني سوف أبحث عن عمل في الغد بجانب حضور دروس العلم.

بالطبع لم يقُل له «عبد الرحمن» إن معه من المال ما يكفيه في المدة

التي سيمكثها حتى يتخلص من «علم الدين».. همّ «سليمان» بقول شيء آخر، لكن «عبد الرحمن» قاطعه بضجر:

- هل ما زال الطريق طويلًا إلى البيت؟

نظر الرجل حوله كأنه كان قد نسي أمر البيت، ثم أشار بيده إلى بيت صغير أمامهما وهو يقول له:

- هذا هو البيت.

نظر إليه «عبد الرحمن» بشك ثم سأله:

- هل أنت متأكد؟

كان الرجل يبدو عليه أنه فاقد للوعي، ما أثار الريبة في قلب «عبد الرحمن»، لكن الرجل قال بإصرار مستنكرًا السؤال:

- بالطبع متأكد.. هل سأنسى بيتي؟!

كان «عبد الرحمن» يريد أن يقول له إنه يبدو عليه أنه ينسى نفسه.. لكنه آثر الصمت ومشى خلفه بعد أن أنزله بصعوبة من فوق الجواد حتى وصلا إلى باب البيت، ظل الرجل يحاول فتح باب البيت والباب لا يتحرك.. عاد «عبد الرحمن» يسأله بشك من جديد:

- هل هذا هو البيت؟!

رد «سليمان» هذه المرة بغضب قائلًا:

- لو سألت هذا السؤال مرة أخرى فلن أؤجر البيت لك.. لا أدري لماذا لا يريد الباب أن يُفتح!

نظر «عبد الرحمن» إلى الباب بعد أن اقترب من خلف «سليمان»، ثم دفع الباب بيده فتحرك على الفور، و«عبد الرحمن» يقول:

- لأن الباب كان مفتوحًا.

لم يعلق «سليمان» على ما حدث، بل دخل على الفور وهو يشير إلى البيت:

- البيت ليس واسعًا.. لكنه كبير بالنسبة لشاب يعيش بمفرده.

كان «عبد الرحمن» يريد أي مكان هادئ يختبئ فيه عن أعين الناس؛ لذلك لم يهتم كثيراً بشكل الدار.. كانت هناك أريكة يمكنه النوم والجلوس عليها.. كذلك هناك منضدة عليها بعض الأواني.. كان ذلك في ساحة الاستقبال التي كانت صغيرة ومربعة بها فتحة لباب غرفة صغيرة فيها مضجع وبعض الأغطية.. كان ما رآه كافيًا بالنسبة إليه وزيادة؛ لذلك خرج ليحضر متاعه القليل الذي تركه على الجواد والنسر قبل أن يتفق معه على الإيجار.. كان يعلم أنهما لن يختلفا على شيء.. كان «سليمان» يتكلم ويصف البيت وكيف تم بناؤه.. لم يلحظ خروج «عبد

الرحمن» وعودته، لذلك عندما وجد النسر مربوطًا إلى حديد النافذة الصغيرة الموجودة في الجدار سأل «عبد الرحمن» بدهشة:

- ما هذا؟

أجابه «عبد الرحمن» بضيق:

- هذا نسر كما ترى.

عاد الرجل يقول بضيق:

- نعم أعرف أنه نسر، لكن ماذا يفعل هنا؟

أجابه «عبد الرحمن»:

- إنه يساعدني على الصيد.

نظر إليه «سليمان» وقال له بشك:

- أول مرة أرى طالب علم يربي نسورًا.

فكَّر «عبد الرحمن» في أن الكلام الكثير مع هذا الرجل سوف يكشفه قبل أن تبدأ المهمة من الأساس؛ لذلك قال له:

- هذه هواية قديمة، وعلى العموم أشكرك يا عم «سليمان».. خذ، هذا إيجار شهر كامل.

نظر «سليمان» للمال ولم يفهم، بل تمتم مستغربًا:

- هل اتفقنا على الإيجار؟!

فأكمل «عبد الرحمن» حتى يتخلص منه:

- بعد إذنك.. أريد أن أستريح قليلًا.

ظل «سليمان» جامدًا في مكانه قبل أن يقول:

- نعم.. نعم.. لقد فهمت.. حسنًا.. سوف أتركك الآن.. إذا احتجت لأي شيء أنا أقطن في البيت الذي إلى جوارك.. السلام عليكم.

أغلق «عبد الرحمن» الباب خلفه بالمنضدة.. هذا الباب يحتاج إلى مزلاج من الداخل حتى يتم قفله بإحكام.. جرى بعد ذلك «عبد الرحمن» إلى الغرفة ونام بعد أن وضع طعامًا للنسر.. على الرغم من تعبه الشديد والخطر المحدق به لو تم اكتشاف أمره.. كان كل ما يشغل باله ويؤرقه هو التفكير في «نورسين» التي صار يفتقدها ويريد الانتهاء من مهمته سريعًا حتى يعود إليها ويظفر بها.. كان يسأل نفسه: هل هي أيضًا مشتاقة إليّ مثلما أشتاق إليها؟ ولم يكن يعلم أنها هي الأخرى تسهر الليل تفكر في الفارس الذي أخذ قلبها وسار به بعيدًا.. تفكر في «عبد الرحمن».

* * *

استيقظ «عبد الرحمن» على صوت طرقات على باب البيت فقام فزعًا.. تحسس الخنجر الذي وضعه تحت وسادته فأخذه وقام مسرعًا.. وقف

خلف الباب وسأل عن الطارق فسمع «سليمان» من الخارج يرد عليه بصوت متعب:

- أنا «سليمان».. افتح الباب بسرعة.

فتح «عبد الرحمن» الباب بسرعة بعد أن خبأ الخنجر في ثيابه ليجد «سليمان» يقف بالخارج يحمل صحيفة عليها طعام.. كان «سليمان» بالكاد يستطيع حملها؛ لذلك أسرع «عبد الرحمن» وأخذها منه، وهو يقول له:

- ما هذا يا عم «سليمان»؟

رد عليه «سليمان» وهو يلهث:

- طعام الإفطار.

أحس «عبد الرحمن» بالسرور لما قام به «سليمان»؛ فهو يشعر بالجوع بعد أن نام طويلًا.. وضع الطعام على الطاولة وهو يقول له مجاملًا:

- لم يكن هناك داعٍ لذلك يا عم «سليمان».

رد عليه «سليمان» وهو يجلس على الأريكة:

- كيف ذلك؟! إنك تبدو متعبًا وجائعًا.. حتى إنك لم تستيقظ لصلاة الفجر.

لم يقل له «عبد الرحمن» بالطبع إن الإمام قد أسقط من عليه التكليف، فلم يعد عليه صلاة أو صيام، أو غير ذلك من العبادات؛ لذلك رد عليه وقد تذكر أن عليه أن يبدو كطالب علم سُني:

- نعم، لقد كنت متعبًا لدرجة أنني لم أسمع الفجر.

ثم أضاف حتى يحبك دوره:

- سوف أكون شاكرًا لك لو أيقظتني لصلاة الفجر، هذا لو لم أستيقظ بمفردي.

هز «سليمان» رأسه في حبور وقال بسعادة:

- على الرحب والسعة.. أفضل شيء أن أجد رفيقًا لي وأنا ذاهب للصلاة.

ثم نظر إلى صحيفة الطعام وقال:

- هيا نأكل، فقد مر الضحى ونحن لم نأكل بعدُ.

جلس «عبد الرحمن» بجانبه بعد أن حمل الطاولة وما عليها لتكون أمامهما على الأريكة وبدآ في الأكل.. كان الطعام بسيطًا، لكن «عبد الرحمن» شعر فيه بلذة غريبة لم يشعر بها من قبل، وبدأ يشعر بألفة نحو ذلك العجوز الجالس إلى جواره.. كان الرجل لا يتوقف عن الكلام، يملك مخزونًا هائلًا من الذكريات يفرغه كله في أذني «عبد الرحمن» الذي أصبح يجده مسليًا.. ظلا على ذلك الحال حتى أوشك وقت الظهر أن

يحين.. كلام وكلام حتى بعد أن انتهيا من الطعام.. قال له «سليمان» وقد شعر أنه تأخر اليوم على حقله:

- يجب أن أذهب الآن لمباشرة الحقل؛ فالعمال الذين أستأجرهم ليس عندهم أمانة.. يتكاسلون في عدم وجودي حتى يقوموا بعمل ما ينتهي في يوم واحد في أيام كثيرة حتى يأخذوا المزيد من الأجرة.. لو أجد شابًا أمينًا يعمل معي أعطيه كل ما يريد.

كان الرجل يلمّح إلى «عبد الرحمن» أنه يريد أن يعمل معه، فقد أحبه ووثق به على الرغم من أنه لم يرَه إلا الأمس.. فهم «عبد الرحمن» مراد الرجل لكنه يعلم أن وجوده بالمدينة مؤقت؛ لذلك ادعى أنه لم ينتبه لمراده.. عاد الرجل يقول متسائلًا:

- ألست تبحث عن عمل؟

أجابه «عبد الرحمن» وقد علم أن الرجل سوف يحيط به بأسئلته كالعادة:

- بلى أبحث، ولكني لا أفهم أي شيء في الزراعة.

ردّ عليه «سليمان» مشجعًا:

- لا يهم.. سوف أعلمك.

ردّ عليه «عبد الرحمن» وهو يدعي أنه مستعجل للخروج لصلاة الظهر بالجامع الكبير:

- نتكلم في هذا الموضوع عند عودتي.. سوف أذهب الآن لصلاة الظهر في الجامع الكبير.. الجامع قريب، أليس كذلك؟

أجابه «سليمان»:

- بالنسبة إليك، هو قريب.. لن تحتاج الجواد ويمكنك تركه في الحظيرة خلف داري.

شكره «عبد الرحمن» وخرج مسرعًا من الدار حتى لا يتحدث معه مرة أخرى حول عمله معه.. وضع الجواد في الحظيرة وذهب سيرًا على القدمين.. كان الجو دافئًا على الرغم من أنهم كانوا في الشتاء.. لكنه نهار الشتاء عندما تطلع فيه الشمس فتدفئه.. لم يشعر «عبد الرحمن» بالتعب، بل كان فرحًا لتجوله وسط الناس.. سأل أكثر من مرة حتى لاح الجامع أمامه.. لم يرَ مثله من قبل.. كان كبيرًا ومهيبًا.. عندما اقترب كان المؤذن قد صعد ليؤذن لصلاة الظهر.. صوت جميل كأنه قادم من عالم آخر.. لم يسمع مثل هذا الصوت من قبلُ.. جلس في ركن من المسجد يستمع إلى الأذان ويراقب الذين جاءوا من كل حدب وصوب للصلاة، لم

يكن متوضئًا ولن يتوضأ، فهو لن يصلي حقيقة، هو فقط يريد مكانًا قريبًا من الصف الأول ليرى الإمام ويتعرف إليه.

* * *

انتهت الصلاة التي ادعاها «عبد الرحمن».. وقد توقَّع بعدها أن يجلس الإمام ليعطي الناس درسًا، لكن الوقت مر وبدأ الناس في الانصراف من المسجد بعد أن أنهوا صلاة النافلة.. لم يتقدم أحد للجلوس على كرسي الإمام ولم يبقَ بالمسجد غير من يستريح أو من تأخر عن صلاة الجماعة الأولى.. تلفَّت حوله حتى وجد شابًا في مثل عمره يجلس مستندًا إلى أحد أعمدة المسجد يقرأ القرآن.. ذهب إليه فألقى عليه السلام ثم سأله:

- ألن يأتي الشيخ «علم الدين»؟

أجابه الشاب وهو ينظر إلى أعلى، فقد ظل جالسًا:

- بل سيأتي بإذن الله.

عاد «عبد الرحمن» يسأله:

- أين هو إذًا؟

سأله الشاب وقد توقع أن «عبد الرحمن» غريب عن المدينة:

- هل هذه هي أول مرة تحضر فيها درس الشيخ؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو يجلس أمامه:

- هو أول يوم لي بالمدينة.

عاد الشاب يسأله:

- من أين أنت؟

أجابه «عبد الرحمن» بقلق:

- من «سافا».

قال له الشاب بفرح:

- أنا أعرف الكثيرين من شيوخ «سافا».. مَن شيخك هناك؟

كان هذا ما يوتِّر «عبد الرحمن».. أن يستطرد في الحديث مع أحدهم فيسأله سؤالًا لا يعرف إجابته، مع أن المفترض أن يكون عكس ذلك.. قال له «عبد الرحمن» حتى يشوش على سؤاله:

- متى يأتي الشيخ «علم الدين»؟

أجابه الشاب:

- هو لا يأتي قبل صلاة العصر.. يصلي الفجر والظهر بمسجد قريب من منزله.. من الفترة التي بعد الضحى إلى قبل العصر بقليل يقوم بمداواة المرضى في بيت بجانب منزله خصصه لمداواة المرضى والكشف عليهم...

قاطعه «عبد الرحمن» في دهشة:

- كيف يداوي المرضى؟!

أجابه الشاب بفخر:

- الشيخ عنده من العلم الكثير.. فهو ليس فقيهًا فقط، بل يعلم الكثير عن علوم الطب أيضًا.

بمجرد أن سمع «عبد الرحمن» ذلك قفزت إلى ذهنه فكرة.. يمكنه أن يتصنّع المرض ويذهب إليه فيقتله ثم يهرب.

استطرد الشاب:

- يأتي ليصلي العصر في المسجد الكبير ثم يعطي درسًا في الفقه أو التفسير أو كليهما حتى المغرب.. من المغرب للعشاء يكون الدرس الذي يرد فيه على افتراءات الشيعة.. بالتأكيد سمعت عن هذا الدرس.

هز «عبد الرحمن» رأسه وقال بلهجة ذات مغزى:

- بالطبع سمعت.. أنا لم آتِ إلا من أجل ذلك.

استطرد الشاب بفرح:

- ثم يجلس بعد العشاء للإجابة عن أسئلة تلاميذه ويعود بعدها إلى داره.

أحس «عبد الرحمن» أن هذا الشاب ثرثار أكثر من اللازم وخشي أن يورطه في الحديث معه من جديد، فقام وهو يقول له:

- أشكرك كثيراً.. سوف أذهب الآن وأعود قبل العصر.

قال له الشاب بصوت عالٍ، بعد أن ابتعد «عبد الرحمن» عنه مسرعًا:

- لا تتأخر، فالمسجد يمتلئ قبل العصر.

لم يرد عليه «عبد الرحمن»؛ فإنه كان قد ابتعد كثيراً عنه، لكنه فكَّر في أن المسجد لن يكون ممتلئًا بعد أن شاهده شبه فارغ بعد صلاة الظهر.. قرر أن يستغل الوقت ويسأل عن بيت الإمام الذي كان يعرفه كل مَن هو من أهل «أصفهان».. وصل «عبد الرحمن» إلى البيت من دون عناء.. كان أبعد عن المسجد من دار «سليمان».. بيت صغير متواضع.. لا يختلف كثيراً عن البيت الذي استأجره.. هو أكبر منه فقط.

فكر «عبد الرحمن» قليلًا.. هل يدخل ويقتله الآن؟ لكن كيف سيدخل ويقتله دون أن يلحظه أحد؟! الناس يدخلون ويخرجون من دون توقف.. يبدو عليهم المرض والتعب.. هذا هو إذًا المكان الذي يداوي فيه المرضى، وعلى ما يبدو أن البيت الذي إلى جواره هو داره.. تلك الدار التي خرج منها شاب نحيف يرتدي قميصًا أبيضَ متسخًا ويحمل بين يديه الكثير من القارورات.. كان يحملها بالكاد، حتى إن إحداها كادت تسقط منه.. كان ذلك الشاب متوجهًا إلى البيت الذي حوّله «علم الدين» مزارا للمرضى.. انطلق «عبد الرحمن» نحوه وحمل عنه بعض القوارير وهو يقول له:

- دعني أساعدك.

كان «عبد الرحمن» يجدها فرصة للدخول معه ورؤية «علم الدين».. رد عليه الشاب بحفاوة:

- شكرًا يا أخي.

حمل عنه «عبد الرحمن» بعضها وهو يسأله:

- هل أنت تعمل مع الإمام «علم الدين»؟

نظر إليه الشاب بدهشة قليلًا ثم رد عليه مبتسمًا:

- تبدو غريبًا عن المدينة.

توقَّف «عبد الرحمن» ونظر إليه في ذهول وهو يقول:

- هل أنت الإمام؟

ضحك الشاب وأجابه:

- لا.. أنا ابنه «عبد الرزاق».. لكنني أساعده في كل شيء وأرافقه من الصباح حتى المساء، فكل من يعرف الإمام يعرفني؛ لذلك تعرفني «أصفهان» كلها.

دخل «عبد الرحمن» معه فوجد أن المنظر بالداخل يختلف كثيراً عن الخارج.. الناس يجلسون على أرائك يظهر عليهم التعب.. صوت التأوهات هو الغالب على المكان.. ستارة معلقة يقف خلفها «علم

الدين» ليكشف على المرضى.. وقف «عبد الرحمن» بالقوارير يحاول أن يختلس النظر إلى الإمام، لكن دون جدوى.. حتى وجد أمامه «عبد الرزاق» يمد يده وهو يبتسم ليأخذ منه القوارير ويقول له:

- أشكرك كثيراً يا أخي.

ابتسم «عبد الرحمن» ابتسامة صفراء واتجه نحو الباب.. فسأله «عبد الرزاق» وهو خارج:

- لم أتشرف باسمك يا أخي!

أجابه «عبد الرحمن» وهو أمام الباب:

- «عبد الرحمن».

فضحك «عبد الرزاق» وقال:

- كلانا «عبد الله».. السلام عليك يا «عبد الرحمن».

واختفى بالداخل ليساعد والده.. بينما ذهب «عبد الرحمن» ليضيع الوقت حتى حلول العصر.. موعد مجيء الإمام إلى المسجد الكبير.

* * *

لم يتوقَّع «عبد الرحمن» أنه عندما يذهب إلى المسجد في الصلاة العصر سوف يجده قد امتلأ عن آخره، حتى إنه دخل بالكاد وجلس في آخره.. كان الجميع ينتظر درس الإمام.. بعد الصلاة خرج بعض المصلين من

الذين لن يستمعوا إلى الدرس، فاستطاع «عبد الرحمن» أن يتقدم قليلًا..

كان الشيخ «علم الدين» يجلس على كرسي الدرس.. كان رجلًا مسنًّا، ذا لحية طويلة بيضاء مخضبة بالحناء التي حوّلت لونها إلى الاحمرار.. كان أبيض الوجه.. لكن في وجهه نورًا لم يكن سببه لون بشرته البيضاء.. يرتدي عباءة ثقيلة وعمامة.. بدأ حديثه بذكر الله والصلاة على رسوله وآله والثناء على أصحابه ثم قال:

- كان من المفترض أن نكمل اليوم حديثنا عن أحكام البيوع، لكني آثرت أن أعود فأتكلم عن الصلاة؛ فقد لاحظت أن كثيرًا من الناس لم يعودوا يعرفون قدر الصلاة وحقها.. يقومون بها بلا اكتراث أو مراعاة لها.. الصلاة التي هي عماد الدين وغرة الطاعات.

بدأ «علم الدين» يتحدث عن الخشوع في الصلاة وقيمته.. كان «عبد الرحمن» يستمع إليه في البداية ليتعرف على شكله ويتأكد من شخصه، لكن مع مرور الوقت بدأ يعجبه الحديث، والإمام يتحدث عن أسرار الخشوع في الصلاة وفضله.. ومن الأشياء التي علقت في ذهنه: حديث الإمام عن الخشوع لله في السجود.

ربما تشعر بذلك الإحساس مرة في حياتك، وربما تشعر به عدة مرات، وربما لا تشعر به أبدًا.. شعور الاقتراب.. اسجد واقترب.. السجود يجعلك

قريبًا من الله.. الذل لله.. العبودية لله.

ثم بدأ الإمام يتحدث عن حكم تاركها وأن الصلاة لا تسقط عن المسلم ما دام حيًا، إلا في أضيق الظروف.

عندما أنهى «علم الدين» كلامه كان «عبد الرحمن» قد نسي تمامًا ما جاء من أجله وبدأ يفكر في كلامه.. لماذا لا يجرب أن يصلي؟ لماذا بدأ يشعر برغبة في الصلاة؟ لماذا يشعر الآن بأهميتها؟ لماذا أسقط الإمام «حسن الصباح» الصلاة من عليه؟

ذهب «عبد الرحمن» فتوضأ ليصلي المغرب، فقد دخل وقته وصعد المؤذن ليرفع الأذان.. صوت المؤذن الذي يأسره كلما سمعه.

هذه المرة صلى «عبد الرحمن» بالفعل، ليس كالظهر والعصر.. صوت القرآن في المسجد تردده الجدران خلف الإمام فيدخل مباشرة إلى القلب دون المرور على الأذن.. لم يشعر بالسجود كما شعر به الآن.. لم يشعر بالراحة كما شعر بها الآن.. لم يشعر بالخشوع كما شعر به الآن.

انتهت الصلاة وهو يشعر برغبة في البكاء.. لا يدري السبب، لكنه يريد البكاء.. جلس في مكانه الذي أصبح أقرب من ذي قبل فلمح «عبد الرزاق» يجلس عن يمين والده على الأرض.

بدأ الإمام حديثه بالذكر كما فعل في المرة السابقة، لكنه عندما جاء على ذكر الصحابة قال:

- ولعنة الله على كل من يلعن أصحاب رسول الله.. حَمَلة هذا الدين وحَفَظته.. الذين اختارهم الله لرسوله.

كان «عبد الرحمن» يعرف أن «علم الدين» يريد بذلك الكلام الشيعة.. فشعر بالضيق بعدما كان قد شعر ببعض الراحة.. فكر في الخروج من المسجد والعودة للبيت، لكنه تذكر أنه هنا من أجل قتل ذلك الرجل، كان قد بدأ يشعر نحوه ببعض العاطفة بعد كلامه عن الصلاة؛ لذلك أراد أن يجلس ويسمعه وهو يتحدث عن الشيعة فيوغل صدره عليه من جديد.

لكن كلام «علم الدين» الذي قاله عن الصحابة كان مقنعًا.. لقد كان يتحدث عن كيفية نقل الخبر وأهمية صدق ناقله؛ فلو كان الصحابة كفرة وفسقة وكاذبين كما يدّعي الشيعة.. فكيف نأمنهم على نقل ديننا؟ ولو لم يحسن الرسول انتقاء أصحابه وحملة رسالته من بعده فماذا يبقى له بعد ذلك؟

ثم بدأ يتكلم عن نقل الخبر وكيفية نقله وعلم الرواية والحديث بالتفصيل.

كان «عبد الرحمن» يصدق كل ما يسمعه من الإمام «حسن الصباح» بلا سند أو دليل، لكن كلام «علم الدين» محكم ومرتَّب بطريقة لا تدع معه مجالًا للشك أو الجدال.

الوقت بين المغرب والعشاء قصير؛ لذلك يكون الكلام في الشيعة أقل وقتًا من الدرس بعد العصر.. انتهت صلاة العشاء وبدأ الناس يخرجون من المسجد.. أراد «عبد الرحمن» أن يراقب «علم الدين»، لكنه وجد تلاميذه يلتفون من حوله ليسألوه في ما بدا لهم أن فيه بعض الغموض من كلامه.

كان «عبد الرحمن» يشعر ببعض التعب.. يشعر أن حرارة جسده مرتفعة وعظام جسده كلها تؤلمه.. لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك.. عليه العودة للبيت ليستريح قليلًا.

سارع إلى البيت، وكل ما يفكر فيه في الطريق هو الكلام الذي سمعه طوال اليوم بالمسجد.. لماذا كان يعتبر أنه على الحق طوال تلك السنوات كلها وهو لم يسمع إلا قولًا واحدًا فقط؟ لقد تعلم الكثير من فقه أهل السنة، لكنه كان يتعلمه من باب معرفة العدو.. أول مرة يسمع فيها منهم ولا يكتفي بأن يسمع عنهم.

لا.. لا يمكن أن تتأثر بذلك الكلام يا «عبد الرحمن».. هذا الرجل شيطان

يسيطر على كل من يستمع إليه.. إنه يأسرهم بجميل كلامه ودقة منطقه.. إنه يسحرك كما سحر الناس هنا.

يسحرك؟! لكن الكافرين قالوا مثل هذا الكلام عن الأنبياء.. يسحرون كل من يؤمن بهم.. كيف أعرف أنني لست مسحورًا؟ كيف أعرف أنني لست نائمًا؟ كل هذا يمكن أن يكون حلمًا.. عندما تحلم يكون يقينك أن ما تفعله حقيقي.

شعر بالتعب والحرارة.. لماذا أحس وكأن البيت قد ابتعد عمّا كان عليه في الصباح؟

أخيرًا لاح البيت أمامه فشجعه على حثّ الخطى كأنه يناديه.. سوف يتوقف عن كل شيء هذه الليلة، غير الراحة.. كان هذا ما يريده، لكنه تذكر «نورسين».. هو لم ينسها، لكنها كانت قد اختبأت قليلًا في إحدى الغرف المظلمة في عقله، بعيدًا عن قلب الحدث.

دخل البيت ليجد النسر قد أحسّ بوجوده فحرك جناحيه سعادة بعودته.. لم يكن له رغبة في الأكل، وعلى كل حال فلا طعام بالبيت.

أغلق باب البيت جيدًا، وذهب مباشرة إلى مضجعه.. كان يشعر بالبرد الشديد وبدأ يرتعش.. أخرج بعض ثيابه وارتداها.. ثم أخرج عباءة أخرى غير التي كان يرتديها ليتدثر بها مع الأغطية.. على الرغم من ذلك

كان يشعر بالبرد.. الجو بارد، لكن ليس إلى هذا الحد.. هل هو مريض؟ هو لم يمرض من قبل.. بدأ يشعر كأن هناك شيئًا ثقيلًا يحاول أن يغلق عينيه.. هو لا يريد مقاومته.. بل رحّب به، فقد كان في أمسّ الحاجة للراحة.. لكنه كان يفكر فيها قبل نومه..

«نورسين»، التي أغلق على صورتها عينيه قبل أن يغرق في سبات عميق.

الإمام

كان الجو شديد الحرارة.. كلما اقترب من الجسر شعر بشدة حرارة النيران التي تجري في النهر من تحته.. رجل أسود الوجه لا يتعرف إلى ملامحه يشير إليه بالذهاب إلى الجهة الأخرى من نهر النيران هذا، وكانت «نورسين» في الجهة الأخرى من النهر.. كانت تجلس في حزن واضح عليها.. لكنها كانت تراه.. كانت تستغيث به.. تردَّد في عبور الجسر.. لو وقع سيقع مباشرة في النهر، لكنها «نورسين».. لن يتركها بأي حال.. تحرّك بحذر.. تحسس أرض الجسر قبل أن يضع قدمه عليها.. بضع خطوات وبدأ الجسر يهتز بشدة قبل أن ينهار، ويجد «عبد الرحمن» نفسه في الهواء في طريقه إلى النار..

فجأة توقف في الهواء.. يد باردة تمسك بيده وتعلقه في الهواء.. ينظر فوقه ليرى منقذه فلا يجد غير النور، وصوتًا رخيمًا يسأله بلوم:

- لماذا تريد قتلي يا «عبد الرحمن»؟

نظر إليه «عبد الرحمن» برعب وسأله:

- من أنت؟

أجابه الصوت:

- أنا المقتول بلا ذنب.

رد «عبد الرحمن» بفزع:

- لكني لم أقتل أحدًا.

عاد الصوت يقول له:

- لكنك تريد قتلي.

رد عليه «عبد الرحمن» وهو يحاول أن يفلت منه:

- هذا واجبي.. أنا أفعل ذلك كله من أجل «نورسين».

عاد الصوت يسأله:

- وهل تعتقد أنك ستحصل عليها بهذه الطريقة؟

لم يرد عليه «عبد الرحمن»، بل ظل يحاول الإفلات منه، فقال له الصوت:

- تحاول أن تفلت مني؟! لكني لو تركتك ستقع في النار!

لم يرد «عبد الرحمن» لأنه كان قد أفلت منه بالفعل، ووجد نفسه متجهًا مباشرة نحو نهر النار.

* * *

استيقظ «عبد الرحمن» فزعًا غارقًا في عرقه بعد ذلك الحلم الغريب الذي رآه.. كان ما زال يشعر بالبرد الشديد.. أزاح الغطاء برفق ووضع

عباءة على كتفيه ثم خرج من الغرفة.

كانت الشمس قد طلعت، ويبدو أن وقت الظهر قد اقترب.. غسل وجهه ويديه ثم جلس يستريح ويفكر فيما سيفعله اليوم.. كان عليه بداية أن يجد ما يأكله هو والنسر، لو لم يكن يشعر بالمرض والتعب لكان قد خرج للصيد، فهو في شوق شديد لذلك، لكنه في حالة صحية لا تسمح له بالصيد.. كان غارقًا في تفكيره عندما سمع الطرقات على الباب.. فتح الباب وكان كما توقع وتمنى.. كان «سليمان» ممسكًا بالطعام كما فعل بالأمس.. عندما رآه تذكر أنه لم يأكل في المدينة غير الطعام الذي يجلبه له «سليمان».. حمل الطعام منه ووضعه على الطاولة كما فعل بالأمس..

قال له «سليمان» وهو يجلس على الأريكة:

- لقد حاولت أن أوقظك لصلاة الفجر لكنك لم تسمع طرقي على الباب.. يبدو أنك ما زلت متعبًا من السفر.

رد عليه «عبد الرحمن» بصوت واهن:

- لست متعبًا من السفر.. لكني أشعر بتوعك.

نظر «سليمان» في عينيه ثم وضع يده على رأسه وقال:

- إن رأسك يغلي.. كُل ويجب أن تستريح اليوم.

جلس «عبد الرحمن» إلى جواره وبدأ الرجل في ثرثرته المعتادة.. لم يكن «عبد الرحمن» ينصت إليه، بل كان كل ما يشغله «علم الدين».. إنه يشعر بحمل ثقيل على عاتقه يريد أن يتخلص منه.. يريد أن يقتل ذلك الرجل وينتهي من تلك المهمة ليعود إلى بلدته.. هي في الحقيقة ليست بلدته، لكن ما دامت «نورسين» فيها فهي بلدته.. إنه يشعر أن «نورسين» هي وطنه وأهله.. كان موعد صلاة الظهر قد حان عندما أنهى «سليمان» طعامه فقال له:

- سوف أذهب للصلاة.. يجب أن تستريح أنت بالبيت اليوم.

أومأ «عبد الرحمن» برأسه موافقًا.. لكنه كان ينوي الذهاب إلى المسجد الكبير بعد العصر.

* * *

لم يستطع «عبد الرحمن» الخروج من البيت إلا بعد صلاة المغرب.. كان ينوي أن يراقب «علم الدين» اليوم ليرى مَن يمشي معه إلى البيت.. كان «عبد الرحمن» قد بدأ يشعر ببعض التحسن.. خرج من البيت ملتحفًا بعباءته نحو المسجد.. كان المصلون قد انتهوا من صلاة المغرب ويجلسون لسماع درس «علم الدين».. نظر «عبد الرحمن» لكل تلك الأعداد التي تنصت للدرس وقال لنفسه: كل تلك الأعداد مفتونة بذلك الرجل!

كان يرى أن من واجبه أن يتخلص بالفعل من ذلك الرجل ويريح الناس من لسانه الذي يسحرهم.. حتى إنه هو نفسه كان قد بدأ يتأثر بكلامه.

لم يمر وقت طويل من الدرس حتى بدأ الصداع يعاود طرق رأسه بمطرقته التي لا تعرف الرحمة.. الشعور بحرارة جسمه التي بدأت ترتفع.. الرؤية لم تعد واضحة أمامه.. يشعر برغبة في القيء.

لم يكن عليه الانتظار أكثر من ذلك.. أحس أن عليه العودة فورًا إلى البيت.. كان المؤذن يستعد لرفع أذان العشاء.. سوف يقوم «عبد الرحمن» ويدعي أنه سيخرج من المسجد لرؤية شيء ما ثم ينصرف.. بدأ المؤذن رفع الأذان، فقام «عبد الرحمن» وتحرك نحو باب المسجد، لكنه أحس وكأن الأرض تتحرك من تحته، أو أن قدميه لا تستطيعان حمله.. جاهد بشدة حتى لا يسقط على الأرض.. هو لا يريد أن يقع الآن وسط هؤلاء كلهم.. لقد كان يخبئ الخنجر في ثيابه كعادته.. لو وقع الآن ربما يراه أحد.. سوف يقاوم حتى يعود للبيت.. لكن المرض ينتصر في النهاية.. مهما كانت قوة البدن وصحة العقل وشدة القلب.

وقع «عبد الرحمن» على الأرض فيما يشبه الغيبوبة.. يرى الناس ظلالًا تلتف من حوله.. أحس «علم الدين» بالجلبة التي حدثت في المسجد فسأل عن السبب ليجيبه أحد الرجال من آخر المسجد بصوت جهوري:

- لقد وقع أحد الأشخاص مغشيًا عليه يا إمام.. يبدو مريضًا.

أسرع الإمام ومعه ابنه «عبد الرزاق» إلى الرجل المغشي عليه.. فما إن رآه «عبد الرزاق» حتى قال:

- إنه «عبد الرحمن».

فسأله والده وهو يتفرس ملامح «عبد الرحمن»:

- من هذا يا ولدي؟ أنا لم أرَه من قبل.

فأجاب «عبد الرزاق» وهو يضع يده على جبين «عبد الرحمن»:

- إنه غريب ليس من «أصفهان».. لكني قابلته قدرًا عند البيت وساعدني في بعض الأشياء.. إنه يبدو محمومًا.

نظر «علم الدين» حوله وقال:

- هل يعرف أحد منزله؟

لم يجبه أحد فقال لـ«عبد الرزاق»:

- حسنًا.. خذه إلى البيت بسرعة، وأنا سأصلي العشاء ثم آتي إن شاء الله.. لن أتأخر الليلة.

* * *

الأحلام نفسها التي كانت تطارده طوال حياته طاردته في تلك الغيبوبة، لكنها في تلك المرة مجتمعة.. والدته يذبحها اللصوص في الصحراء، بينما والده يرقد ممددًا ميتًا من قبلها.. عمه يلقي به إلى القلعة التي يسقط

من أعلى برج فيها.. الفردوس التي دخلها ليوم واحد ولم يستمتع فيها.. «نورسين» التي أصبحت النور الوحيد في تلك الحياة القاتمة.. «علم الدين» الذي عليه قتله ليحصل على «نورسين».

فتح «عبد الرحمن» عينيه بصعوبة بالغة.. لم يعرف أين هو.. كان الفراش وثيرًا ونظيفًا في غرفة جديدة عليه.. هذا ليس البيت الذي استأجره.. جلس على الفراش بصعوبة بالغة.. كل عظمة في جسده تئنّ.. معدته تصرخ من الجوع.. وقف مترنحًا واتجه إلى باب الغرفة.. فتح الباب بصعوبة، فقد كان يشعر بالوهن الشديد.

خرج من الغرفة ليجد «عبد الرزاق» جالسًا على الأرض في المكان الذي يستقبل فيه «علم الدين» المرضى.. لم يره «عبد الرزاق» في بادئ الأمر، فقد كان منهمكًا في قراءة كتاب بين يديه.. اقترب منه وألقى عليه السلام، فالتفت إليه «عبد الرزاق» وقال له مبتسمًا بفرح وهو ينهض من على الأرض:

- الحمد لله على سلامتك يا «عبد الرحمن».

سأله «عبد الرحمن» وهو يستند إلى الجدار:

- كيف جئتُ إلى هنا؟

أجابه «عبد الرزاق»:

- لقد أغشي عليك وأنت بالمسجد فأمرني والدي بنقلك إلى هنا لعلاجك.

شعر «عبد الرحمن» بالضيق لفعلة «علم الدين» معه.. يا ليته تركه ولم يعالجه.. لقد أتى ليقتله، فعالجه هو.. سأله «عبد الرحمن» مرة أخرى:

- وأين الإمام الآن؟

أجابه «عبد الرزاق»:

- إنه بالمنزل يصلي الضحى وسيأتي بعد قليل، فقد أوشك المرضى على المجيء.. هيا بنا نذهب إليه.

استند «عبد الرحمن» على «عبد الرزاق» في أثناء سيرهما حتى وصلا إلى بيت الإمام.. دخلا فوجدا «علم الدين» قد فرغ للتوّ من الصلاة.. ما إن رأى «علم الدين» الشاب المريض الذي عوفي للتو حتى تهللت أساريره وسأله بمودة:

- كيف حالك اليوم يا «عبد الرحمن»؟

أجابه «عبد الرحمن» بخجل:

- بخير والحمد لله يا إمام.

كان «علم الدين» لا يزال جالسًا على الأرض فقال لابنه:

- خذه ليستحم وأحضر له شيئًا من ملابسك.

فقال له «عبد الرحمن» معترضًا:

- ليس هناك داعٍ لذلك يا سيدي.

رد عليه «علم الدين»:

- كيف ذلك؟ أنت نائم منذ أكثر من يومين وملابسك متسخة.. اعتبرها هدية من «عبد الرزاق».

ثم وجّه حديثه لابنه وهو يستطرد:

- هيا يا «عبد الرزاق» سخن له الماء.. وبينما يستحم أحضر له طعام الإفطار.

أفعال هذا الرجل مع «عبد الرحمن» تُشعره بالذنب تجاهه.. كيف سيقتله الآن بعد كل ما يفعله معه؟ كيف سيغرس الخنجر؟

الخنجر؟! أين الخنجر؟! لقد كان بين طيات عباءته، لكنه لا يجده الآن..

هل وقع منه في المسجد؟ هل وقع منه وهم يحملونه إلى بيت الإمام؟

أخرجه من تفكيره قول الإمام:

- هيا يا «عبد الرحمن».. فيمَ تفكر؟

أجابه «عبد الرحمن» متلعثمًا:

- لا شيء يا سيدي.. لا شيء.. أشكرك كثيرًا.

رد عليه الإمام وهو يقوم من على الأرض:

- لا شكر على واجب يا بني.. بالمناسبة، لقد قال لي «عبد الرزاق» إنك

من «سافا».. أنا أعرف الكثيرين من شيوخها.. مَن الذي كنت تحضر معه دروس العلم؟

أمسك «عبد الرحمن» رأسه وادعى أنه يشعر بالدوار وهو يقول له:

- بماذا كنت مريضًا يا سيدي؟

كان يريد أن يغيّر موضوع الحديث، فأجابه الإمام:

- حُمّى.. ربما أصابتك في سفرك ولم تظهر أعراضها عليك إلا هنا.

ثم أضاف وهو يخرج من الدار:

- السلام عليكم.. يجب أن أخرج الآن حتى لا أتأخر على المرضى.

ابتسم «عبد الرحمن» له ابتسامة شاحبة وحمد الله أنه لم يسترسل معه في الحديث عن «سافا»، وطنه الذي لا يعرف عنه أي شيء.

* * *

بعد أن اغتسل «عبد الرحمن» وأفطر مع «عبد الرزاق»، أحس أنه قد استعاد الكثير من عافيته، وإن كان ما زال يشعر ببعض الدوار الخفيف..

خرج مع «عبد الرزاق» ليسلم على الإمام ويعود إلى البيت الذي استأجره وتغيّب عنه.. لقد ترك النسر لأكثر من يومين مربوطًا في البيت دون طعام.. تُرى ما الذي حدث له؟

دخل «عبد الرحمن» إلى البيت الصغير الذي جعله الإمام ملاذًا للمرضى،

والذي كان فيه «عبد الرحمن» في الأيام الماضية.. ليجده مكتظًا بالمرضى..

دخل «عبد الرزاق» خلف الستارة التي يكشف خلفها الإمام على المرضى واستأذنه أن يُدخل «عبد الرحمن» ليسلم عليه فأذن له.. دخل «عبد الرحمن» خلف الستارة ليجد رجلًا هزيلًا ممددًا على طاولة وسمع الإمام يقول لشاب يبدو أنه ابن الرجل:

- مشكلة والدك في معدته.. كل الطعام الذي يأكله لا يستقر فيها ويتقيؤه على الفور.. لو استقر الطعام في معدته ستتحسن حالته بإذن الله.

ثم أضاف وهو يعطيه قارورة صغيرة:

- يأخذ من هذا الدواء قبل الأكل، ويُكثر من شرب اللبن الطازج البارد، وأحضره بعد أسبوع.

خرج الرجل الهزيل مستندًا إلى ابنه وهو يدعو للإمام.. نظر إليه الإمام وتمتم بصوت منخفض سمعه «عبد الرحمن»:

- أرجو أن يتقبل الله منك.. الحمد لله الذي وفقني لخدمة عبيده.

ثم التفت إلى «عبد الرحمن» وقال:

- لماذا تريد الذهاب بهذه السرعة يا «عبد الرحمن»؟

أجابه صادقًا:

- لقد أثقلت عليك.. جزاك الله عني خيرًا يا سيدي.

فهز الإمام رأسه في خجل وتواضع وقال:

- وجزاك يا «عبد الرحمن».. استرِح هذه الأيام.. أنت ما زلت ضعيفًا، ولو احتجت لأي شيء في أي وقت أنا تحت أمرك.. اطلب ولا تتردد.

فهز «عبد الرحمن» رأسه وابتسم إليه بخجل قبل أن ينصرف.

عند باب البيت، توقف قليلًا يستمع إلى كلام الناس عن الإمام.. عرف أن الإمام لا يأخذ أجرًا من أحد.. بل إنه يقبل هدايا الأمراء لينفقها على الفقراء.

هذا الإمام صورة مختلفة تمامًا عن الصورة التي عرفها.. بشر مثله لا يملك قدرات خاصة.. لا يملك فردوسًا خاصة به.. هذا دين آخر غير الذي يدين به «عبد الرحمن».

كان «عبد الرحمن» يقارن بين «حسن الصباح»، الذي يتبعه الناس لأنهم يعتقدون أنه باب من أبواب الجنة، وأن طاعته فرض عليهم وكل ما يفعله وحي وحق.. الإمام صار أفضل من الأنبياء والرسل، وبين «علم الدين»، الرجل المتواضع الذي اتبعه الناس بحب واحترام وحجة ساطعة.

ما هذا الذي تقوله يا «عبد الرحمن»؟

إنها الحقيقة التي لا يمكن إنكارها..

هل كفرت بالإمام؟

بل آمنت بحقيقة الإمام.. الإمام الحقيقي..

وما الذي أدراك أن «علم الدين» هو الذي على الحق؟ ما دمت شككت في «حسن الصباح» بعد أن تربيت في قلعته وعلى منهجه فمن الأولى أن تشك في كل شيء..

وهذا ما سأفعله.. سوف أبدأ من الآن.. أنا عندي الكثير من المعلومات عن منهج السنة وآرائهم.. معي المال الذي سأنفقه في شراء كتبهم.. سوف أعكف على القراءة والمطالعة حتى أصل لقرار نهائي وأعرف أيهما إمامي.

* * *

عندما وصل «عبد الرحمن» إلى البيت كان الباب مفتوحًا.. أول ما تبادر إلى ذهنه أن هناك من سرق المال القليل الذي يحتفظ به تحت الفراش.. دخل مسرعًا ليجد «سليمان» يضع الطعام للنسر.. ما إن رآه «سليمان» حتى صرخ باسمه في فرح وجرى عليه وهو يسأله:

- أين كنت يا «عبد الرحمن»؟

جلس «عبد الرحمن» على الأريكة ثم قصّ عليه ما حدث له، فرد عليه «سليمان» الذي كان ينصت إليه باهتمام:

- هذه هي أخلاق الإمام «علم الدين».. إنه رجل نادر الوجود.

قال «عبد الرحمن» لنفسه: وجئت أنا لقتله!

قام «سليمان» وسار نحو الباب المفتوح وهو يقول:

- لا تؤاخذني على الدخول من دون استئذان، لكني قلقت عليك.

رد عليه «عبد الرحمن»:

- بل أشكرك لأنك اهتممت بالنسر حتى عودتي.

خرج «سليمان» وبقي «عبد الرحمن» بمفرده ينظر إلى النسر.. كان يأكل في أمان، لكن الحزن يبدو عليه جليًا.. رأسه دائمًا منكّس إلى الأرض.. هو يملك القوة لكنه لا يملك حريته.

قام «عبد الرحمن» وربت عليه ثم فك الحبل الذي كان مربوطًا به، وحمله برفق ثم وضعه أمام النافذة.. لم يصدِّق النسر أنه الآن حر يمكنه الطيران.. كان «عبد الرحمن» يعلم أن النسر يمكنه الذهاب بلا عودة؛ لأن هذا المكان ليس هو المكان الذي تم تدريبه به، لكنه بدأ يشعر بعبير الحرية ولا يمكنه أن يظل آسر النسر أكثر من ذلك.. لو أراد العودة بإرادته أو فليذهب حيث يشاء.

جلس «عبد الرحمن» وحيدًا بعد أن أطلق النسر يفكر في الخنجر الذي وقع منه.. هل وجده أحدهم؟ هل يشك فيه أحدهم؟ هل هو الآن

مُراقب؟ لا يمكن أن يظل الإنسان يعيش في ذلك القلق إلى الأبد، والآن عليه البحث عن إجابة شافية عن سؤال جديد عليه: هل هو على الحق؟ فكر «عبد الرحمن» من أين يبدأ، كيف يمكن أن يتأكد من صدق الخبر! علم أن عليه أن يبحث في علم الحديث، الذي هو علم الرواية والرواة.. ما الذي يجعل هذا الحديث صحيحًا والآخر ليس كذلك؟ بدأ في القراءة وحضور دروس العلم لعلماء تخصصوا في الرواية.. علم أن لكل كلام سندًا: القرآن له سند.. أحاديث الرسول لها سند.. أقوال الصحابة والعلماء لها سند.. وبتتبع السند تعرَّف أنه لا يمكن الكذب على الأقوال.

هذا العلم لم يجده عند أئمتهم المعصومين الذين يقولون بلا سند ولا دليل غير وحي السماء.

ظل على هذا الحال ينفق القليل ويأكل القليل ويتعلم الكثير.. كلما قرأ وفهم أنار جزء في عقله وقلبه.. أجاب عن سؤال شارد في ذهنه.. أحس بطمأنينة القلب.. بدأ يواظب على الصلاة ومختلف شعائر أهل السنة التي كان «حسن الصباح» قد أعفاه منها.. أحس في تلك الشعائر براحة لا يمكن وصفها بكلام أو حدها بصفات.

علم في قرارة نفسه أنه ابتعد كثيرًا عن القلعة.. ابتعد عن كل ما تعلمه فيها.. ابتعد عن دينها ومنهجها.. لكن ما زال الشك يعصف به..

الفردوس التي زارها ليوم واحد.. حتى لو لم تعجبه فهي فردوس على كل حال.

كان غارقًا في تأملاته بمفرده في الليل عندما سمع ذلك الصوت.. صوت جلبة وشيء يُكسر.. ربما باب يُفتح.. ربما يكون «سليمان».. لكن ما الذي سيجعل «سليمان» يستيقظ في ذلك الوقت؟ إذًا ربما يكون هذا لصًا جاء لسرقته.

وهل يمكن أن يترك «عبد الرحمن» هذا الأمر يمر هكذا دون تحقيق؟ بالطبع لا.. لذلك خرج ببطء من الباب ليلمح ذلك الظل يدخل إلى بيت «سليمان» من النافذة.

لم يفكر طويلًا، انطلق كالسهم نحو النافذة التي صارت مفتوحة الآن، لكنه قبل أن يصل إليها لمح ذلك الرجل الضخم يقترب منه وفي يده هراوة ثقيلة.. يبدو أنه كان يراقب المكان لمن دخل بيت «سليمان».

تفادى «عبد الرحمن» الضربة بسرعة، ثم كال له لكمة أوقعته على الأرض قبل أن ينزل بركبته في معدته.. تأوّه الرجل بصوت عالٍ أربك من دخل بيت «سليمان» وأيقظ صاحب البيت.. كان بالداخل رجلان غير الذي ضربه «عبد الرحمن» عند النافذة.. خرجا مسرعين من الباب، لكن «عبد الرحمن» كان في انتظارهما.. كانا أضخم منه؛ لذلك اعتقدا أنهما

يمكنهما القضاء عليه بسهولة.. لكنهما قبل أن يفكرا في التقدم نحوه كانت الهراوة التي حصل عليها من ثالثهما على رأس أحدهما تشجه قبل أن يتفادى ضربة من الآخر ويكيل له ركلة تسقطه فيقوم ليجري هاربًا.

خرج «سليمان» في فزع يسأل عن الذي يحدث أمام بيته فحمل «عبد الرحمن» الرجل الذي شُج رأسه على النهوض وهو يسأل «سليمان»:

- هل تعرف هذا الرجل؟

نظر إليه «سليمان» بعينيه الضيقتين قبل أن يجيب:

- إنه يعمل عندي في الحقل.

ترك «عبد الرحمن» الرجل وهو يقول له:

- لو رأيتك صدفة مرة أخرى سوف أقتلك.

لم يصدق الرجل أن «عبد الرحمن» قد سمح له بالذهاب فجرى على الرغم من رأسه الذي ينزف.. قال «عبد الرحمن» لـ«سليمان»:

- لقد كان يحاول سرقتك هو ورجلان غيره.

هز «سليمان» رأسه في أسى وقال:

- لقد قلت لك من قبلُ ولكنك لم تصدق.

سأله «عبد الرحمن» بدهشة:

- قلت لي ماذا؟

أجاب «سليمان» بلوم:

- لقد قلت لك إنهم يسرقونني، وأريدك أن تعمل معي.

فرد عليه «عبد الرحمن»:

- لكني لا أعرف شيئًا عن الزراعة.

رد «سليمان»:

- سوف أعلمك، ولن أقبل منك رفضًا بعد الآن.

كان المال الذي مع «عبد الرحمن» قد نفد على كل حال وكان عليه البحث عن عمل، وأمام إصرار الرجل وحاجته للمال كان عليه القبول.

* * *

أنهى «عبد الرحمن» عمله في الحقل بعد الظهيرة بقليل.. لم يكن «سليمان» يتوقع أنه سوف يتعلم بهذه السرعة، بالإضافة إلى قوته وجلده وصبره على العمل.. لم يعد «سليمان» في حاجة لأحد غيره للعمل في الحقل.

كان «عبد الرحمن» يصلي الفجر كل يوم مع «سليمان».. يذهبان للفطور معًا في بيت «سليمان».. ثم يذهبان للحقل.. كان يعمل بالحقل حتى وقت الظهيرة أو بعده بقليل، لينهي عمله قبل موعد درس الإمام «علم الدين» الذي صار هو من علاماته المميزة بجلوسه في الصفوف الأمامية

بجانب «عبد الرزاق».

عندما أنهى عمله في ذلك اليوم أسرع إلى البيت فاغتسل وذهب إلى الجامع الكبير.. لم يعد يفكر نهائيًا في أمر اغتيال الإمام، بل كل ما يشغل باله الآن كيف يعود ليأخذ «نورسين» دون أن يشعر به مَن بالقلعة أو يعرف بوجوده!

كانت «نورسين» هي كل ما يشغل تفكيره ويربطه بتلك الأرض التي أضلته.. ربما يفكر أحيانًا في «خورشيد» الذي ساعده أو حاول في يوم من الأيام.. هل يعود إلى القلعة ويخبرهم بفشله في المهمة؟ سوف يرسلون غيره لقتل «علم الدين».. هذا لو لم يقتلوه هو شخصيًا؛ فالحشاش إما أن ينجح في مهمته وإما أن يُقتل.. لكنه لا يعود دون أداء المهمة.

وصل «عبد الرحمن» إلى الجامع قبل صلاة العصر.. كان الجامع لا يزال هادئًا لم يزدحم.. دخل بسرعة.. كان متوضئًا فجلس في الصفوف الأولى حتى يكون قريبًا من الإمام، الذي جلس كعادته بعد صلاة العصر يلقي درسه اليومي.

كان «علم الدين» يتكلم في ذلك اليوم عن ثواب الطاعة، فكان من حديثه الكلام عن الجنة.. انتبه «عبد الرحمن» بشدة لكلامه.. فالجنة

غايته التي يبتغيها وعمل من أجلها مع «حسن الصباح»، وظن أنه دخلها.. قال لهم «علم الدين»:

- ولا تظنوا أن الجنة هي مضاجعة النساء وأكل الطعام فقط.. أنا لا أنكر أن النعيم الجسدي موجود، لكن هناك ما هو أعظم من ذلك بكثير.. فالسلام النفسي وراحة البال ونقاء الروح أعظم بكثير.. وأعظم النعم وأفضلها على الإطلاق رؤية الله عز وجل.. في الجنة لن تشعر أنك ينقصك أي شيء.. فمجرد شعورك بالحرمان عذاب.. فمثلًا لو كنت تحب شخصًا في النار هل ستعذب لفراقه وأنت في الجنة؟ لا لن تشعر بافتقاده أو شوق إليه، ومن صبر في الدنيا نال في الآخرة.

كانت كلماته تأسر الحضور جميعًا، تجعل القلوب تهفو للآخرة والعيون تدمع من ذكر الله.. عندما كان ينتهي الدرس كان «عبد الرحمن» يعود إلى البيت في حال غير الذي كان فيه.. يعود أطيب روحًا وأهدى نفسًا.

عندما اقترب «عبد الرحمن» من باب البيت شعر أن هناك مَن بالبيت.. لم يكن مختبئًا بل كان يتحدث بصوت مرتفع.. صوت «سليمان» هو الذي يظهر من الداخل يتحدث إلى شخص ما.. فكر «عبد الرحمن».. ما الذي يجعل «سليمان» يتحدث مع شخص ما في البيت الذي من المفترض

أنه صار بيته.. دخل «عبد الرحمن» ليتوقف «سليمان» عن الكلام وينظر إليه مبتسمًا وهو يقول له:

- لماذا تأخرت الليلة يا «عبد الرحمن»؟ أقرباؤك ينتظرون منذ وقت طويل.

نظر «عبد الرحمن» حيث أشار «سليمان» وقد جفت الدماء في عروقه لتقع عيناه في تلك العيون الجامدة ذات النظرات الباردة.. كان في انتظاره «بجرت» و«فراز»، اللذان كانا من أشرس الحشاشين وأمهرهم على الإطلاق.. اقترب منهما «عبد الرحمن» واحتضنهما كأنه يسلم عليهما وقال لهما في همس:

- ماذا قلتما للرجل؟

نظر «بجرت» لـ«سليمان» وهمس في أذن «عبد الرحمن»:

- تخلص منه حتى نتكلم على راحتنا.

التفت «عبد الرحمن» لـ«سليمان» وقال له وهو يوصله للباب:

- أشكرك يا عم «سليمان» على استضافتهما.. اذهب للنوم فقد تأخر الوقت.

حاول «سليمان» المقاومة وهو يقول:

- لا.. يمكنني السهر أكثر من ذلك.

فقال له «عبد الرحمن»:

- هما متعبان، سوف ينامان.. صحبتك السلامة.

ثم أغلق الباب بعد أن أصبح «سليمان» بالخارج.. جلس «عبد الرحمن» أمامهما يترقب الذي سيخبرانه به.. كانت تظهر عليهما القسوة والشراسة.. هما أكبر منه جسدًا وسنًا وخبرة في القتال.. سأله «بجرت» بلهجة ساخرة:

- كيف حالك يا «عبد الرحمن»؟

أجاب «عبد الرحمن» بصوت خرج مرتجفًا رغمًا عنه:

- بخير والحمد لله.

فهزّ «بجرت» رأسه وقال متهكمًا وهو يغمز بعينه لـ«فراز»:

- أرى ذلك جيدًا.. لقد اشتغلت بالفلاحة، وهذا شيء عظيم.

قال «عبد الرحمن» محاولًا الدفاع عن نفسه:

- ليس الأمر كما يبدو، ولكنه...

قاطعه «بجرت» قائلًا:

- وكيف يبدو الأمر؟ هل يبدو كأنك تعيش هنا حياتك دون أن تفكر في أداء المهمة المقدسة التي كلفك بها الإمام؟

رد عليه «عبد الرحمن» بخوف حقيقي:

- لا يا «بجرت»، ليس الأمر كذلك.

رد عليه «فراز» هذه المرة بقسوة:

- عندما نعود إلى القلعة أخبر الإمام بما تريد.

أحس «عبد الرحمن» ببعض الهدوء.. على الأقل تم إلغاء المهمة.. سأله «بجرت»:

- أين الخنجر الذي أعطاك إياه مولانا؟

لم يعرف «عبد الرحمن» ماذا يقول فآثر الصمت.. فنظر إليه «بجرت» طويلًا قبل أن يضيف في سخرية:

- هل أضعته، أم ماذا؟

لم يرد «عبد الرحمن» فأضاف «بجرت»:

- لا أعرف ما الذي حدث لك! كيف تحولت إلى ذلك الكائن الخانع الضعيف؟ لقد كنا جميعًا نتوقع أنك ستكون أفضل منا جميعًا.

أطرق «عبد الرحمن» ببصره إلى الأرض فأضاف «بجرت»:

- ربما يكون حبك للراعية حوّلك لذلك العاشق الأبله.

اتسعت عينا «عبد الرحمن» في رعب.. كيف عرفا بأمر «نورسين»؟ ألجمت المفاجأة لسانه وشلت تفكيره.. لكنه اتخذ قرارًا مهمًا عندما سمع «بجرت» يقول:

- سوف نقتل «علم الدين» الليلة.. أنت ستظل هنا.. سنعود إليك بعد التخلص من «علم الدين» لنرجع جميعًا إلى القلعة.

كان القرار الذي اتخذه «عبد الرحمن» له علاقة أيضًا بـ«علم الدين».

* * *

لم يؤذَّن لصلاة الفجر بعدُ.. الظلام الحالك يلف الشوارع التي يسير فيها «علم الدين» وابنه في الطريق إلى المسجد.. ذلك الظل الأسود يراقبه.. يقفز من فوق أسطح البيوت.. ينزل أحيانًا ليختبئ خلف أحد الجدران.. يتحسس سيفه ليتأكد من أنه جاهز للخروج في أي وقت.. ينظر صاحب الظل الأسود لـ«علم الدين».. يقترب منه ببطء حتى يصير على مقربة منه.. يتحفز لينطلق، وفجأة يجري نحو «علم الدين».

لم يكن ينطلق نحو «علم الدين» ليؤذيه بل ليصد تلك الضربة التي نزلت عليه من سيف «بجرت».. وبدأ النزال.

كان «بجرت» يتوقع وجود مَن يدافع عن الإمام، لكنه لم يكن يتوقع أن يكون بتلك البراعة.. يصد كل ضربة سيف ثم يعود فيضرب بقوة وسرعة.. كان ملثمًا فلم يستطع «بجرت» معرفة مُنازِله.

بينما كان «بجرت» يقاتل الرجل المجهول، اقترب «فراز» من الإمام

ليقتله، لكن المقاتل المجهول لاحظ اقتراب «فراز» من الإمام فدفع «بجرت» بعيدًا عنه وجرى نحو «فراز» فطعنه طعنة نافذة في ظهره.

استشاط «بجرت» غضبًا وانقضَّ على المقاتل بكل ما أوتي من قوة.. كان «عبد الرزاق» قد أمسك هراوة واندفع نحو «بجرت» يحاول مساعدة المقاتل الذي أنقذ حياة والده.. لكن «بجرت» تفاداها بمنتهى السهولة ونزل عليه بالسيف، لكن المقاتل اندفع ليقف جسده وسيفه بين سيف «بجرت» و«عبد الرزاق».

أصيب المقاتل في صدره وسقط اللثام عن وجهه.. اتسعت عينا «بجرت» في دهشة وقال للمقاتل:

- «عبد الرحمن»! ما الذي تفعله أيها الخائن؟

لم ينتظر «بجرت» إجابة؛ فقد بدأ الناس في التجمع بعد أن استنجد الإمام بأقرب البيوت وعلا صراخ النساء.. اختفى «بجرت» في ثوانٍ تاركًا «فراز» الذي فارق الحياة و«عبد الرحمن» الذي ينزف بشدة.

سقط «عبد الرحمن» بين يدي «عبد الرزاق» وقال له:

- سامحني يا أخي.

دمعت عينا «عبد الرزاق» وهو يقول له:

- علامَ يا أخي؟ أنت من أنقذ حياتنا.

أحس «عبد الرحمن» بالدنيا تظلم من حوله وآخر ما رآه وجه الإمام.. الإمام «علم الدين».

الطبيب

فتح «عبد الرحمن» عينيه ليجد نفسه في الغرفة نفسها التي كان يعالجه فيها الإمام «علم الدين» من قبلُ، لكن هذه المرة كان الإمام وابنه ينامان على الأرض إلى جوار فراشه.

أحس «علم الدين» بحركته فقام من فوره من على الأرض وقفز إليه وهو يقول:

- «عبد الرحمن».. كيف حالك؟

رد عليه بصوت واهن يكاد يكون كالهمس:

- بخير والحمد لله.

شعر «عبد الرحمن» بألم شديد في جرحه عندما تكلم، فوضع يده على الجرح بحركة لا إرادية ليجد الضمادات التي وضعها «علم الدين» على الجرح.. قال له «علم الدين» بامتنان:

- لا أستطيع أن أوفيك شكرك يا «عبد الرحمن».. لقد أنقذت حياتي وحياة ابني.

رد عليه وهو يلهث بصوت لا يكاد يكون مسموعًا:

- يجب أن أخبرك بشيء مهم يا سيدي.. حتى إذا مت أكون قد خلصت ذمتي.

رد عليه «علم الدين» بقلق:

- تفضل يا «عبد الرحمن».. كلي آذان مصغية.

كان «عبد الرزاق» قد استيقظ وجلس إلى جوار والده ليسمعا قصة «عبد الرحمن» من البداية، بكل صدق وتفصيل.. لم ينسَ «عبد الرحمن» أي شيء أو يغفل عن شيء.. لم يتعمد عدم ذكر شيء أو يخبئ شيئًا: والده.. عمه.. «خورشيد».. «سلام».. «نسيم».. «نورسين».. الفردوس.. «أبدس».. «بجرت» و«فراز».

انتهى «عبد الرحمن» من البوح بكل ما يريد.. بدأ يشعر ببعض الراحة وكأن صخرة كانت جاثمة فوق صدره قد أزاحها الآن، لكن الغريب أن «علم الدين» لم يندهش أو تبدُ عليه علامات التعجب مثل «عبد الرزاق»، بل قام من فوره بعد أن أنهى «عبد الرحمن» حكايته وغاب في الخارج قليلًا قبل أن يعود ومعه الخنجر.. خنجر «حسن الصباح» الذي أعطاه لـ«عبد الرحمن» لقتل الإمام «علم الدين».

أمسك «علم الدين» بالخنجر أمام عيني «عبد الرحمن» وقال له:

- هذا هو الخنجر الذي أعطاك إياه «حسن الصباح»؟

نظر «عبد الرحمن» للخنجر ثم قال بترقب:

- نعم يا سيدي.. هو.

استطرد «علم الدين»:

- لقد وجدته في ثيابك في المرة الأولى.. كنت قد سمعت عن أفعال الحشاشين وشككت في أمرك، وفرحت عندما وجدت أنك بدأت تتغير بالفعل؛ لذلك فقد كان ذلك الرجل يعرف اسمك.

هزَّ «عبد الرحمن» رأسه موافقةً لكلام «علم الدين» وهو يقول:

- أرجوك، سامحني يا سيدي.

نظر إليه «علم الدين» بإعجاب وقال:

- أسامحك على ماذا؟! أنت صاحب فضل عليّ.. لقد أنقذت حياتي.

رد «عبد الرحمن» بخجل:

- العفو يا سيدي.. لا تقُل هذا الكلام.

فقال «علم الدين» بلهجة لا مجاملة فيها:

- بل هو الحق والعدل يا «عبد الرحمن».

لم يرد «عبد الرحمن».. كان يشعر براحة لم يشعر بها من قبل.. كان يريد البكاء.. كان يريد الضحك.. أحس أن ألمه قد زال، وأنه يمكنه أن يبدأ الآن حياة جديدة، لكن هناك شيئًا واحدًا يربطه بتلك القرية: «نورسين»..

يجب أن يعود من أجلها؛ لذلك قال لـ«علم الدين» عندما سأله عن نيته فيما سيفعله في حياته الآن بعد أن أصبح مطارَدًا من الحشاشين هو الآخر:

- سوف أعود إلى القرية.

سأله «علم الدين» بطريقة تحذيرية:

- هل ستذهب إليهم بقدميك وأنت تعلم أنهم أصبحوا يريدون رأسك؟

أجابه «عبد الرحمن»:

- يجب أن أذهب من أجل «نورسين».. يجب أن أعود بها إلى «أصفهان».

رد عليه الإمام بسؤال:

- وما أدراك أنها سوف تأتي معك؟

أجاب «عبد الرحمن»:

- سوف أحاول.. لا أريدها أن تظل على الضلالة هناك.. من أحب شخصًا أحب له الهداية.. ثم إن هناك أمرًا آخر.

سأله الإمام وهو يفكر في أمر عودته إلى القرية:

- وما هو؟

رد «عبد الرحمن» الذي كان يبدو عليه أنه قد نسي جرحه تمامًا.

- «زهرة» ابنة «خورشيد» المريضة.. سوف أحاول أن أقنعه أن يأتي بها إلى هنا لعلاجها، لقد رأيتك تقوم بعلاج الكثير من الحالات الشبيهة بمرضها.

داعب «علم الدين» لحيته الطويلة وهو يردد بشرود:

- لو أصررت أنت على الذهاب فلن يكون على «خورشيد» أن يأتي بابنته إلى هنا لعلاجها.

فسأله «عبد الرحمن»:

- ماذا تقصد يا سيدي؟

هز «علم الدين» رأسه وأشار إليه بيديه أن يستريح وهو يقول:

- لا شيء.. يجب أن تستريح أنت الآن لتستعيد عافيتك، وبعد ذلك يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

لم يفهم «عبد الرحمن» ماذا يقصد الإمام.. لكنه سيعرف بعد أيام عندما ينوي العودة إلى القرية الجاثمة على النهر بجانب القلعة.. قلعة «ألموت».

* * *

شعر «سليمان» بالحزن الشديد وأمسك دمعة كانت تريد الفرار من بين جفنيه وهو يسأل «عبد الرحمن» بتوسل:

- هل ستعود إلى «سافا» الآن؟

أجابه «عبد الرحمن» بعطف:

- نعم.. لكني سأعود بسرعة إن شاء الله.

فعاد «سليمان» يردد بحسرة:

- وسأعود أنا للعيش بمفردي؟! من سيعمل في الأرض معي؟!

عاد «عبد الرحمن» يقول له:

- قلت لك إنني لن أتأخر.. شيء مهم يجب عليّ إنهاؤه.. ربما بعدها أعود إلى هنا للعيش بقية حياتي.

تهللت أسارير «سليمان» وعاد الأمل يشرق على وجهه وهو يسأله:

- هل بالفعل ستعود للعيش هنا بقية حياتك؟

رد عليه «عبد الرحمن»:

- إن شاء الله.. لو كان فيها بقية.

شعر «سليمان» أن صوته يحمل الكثير من اليأس والقلق فسأله:

- هل لي أن أسألك عن المهمة التي ستقوم بها في «سافا»؟

بالطبع لم يكن «عبد الرحمن» في حالة تسمح له باختلاق قصة جديدة، فرد عليه وهو يحمل زاد رحلته:

- لقد تأخرت.. يجب أن أذهب الآن.. عندما أعود سوف تعرف كل شيء.

مد «عبد الرحمن» يده نحو «سليمان» ليسلِّم عليه، لكن ذلك الآخر احتضنه وأبقاه بين ذراعيه، حتى إن «عبد الرحمن» شعر أنه لن يتركه يسافر.. أفلت منه برفق وربت على كتفه بحنان ثم خرج مسرعًا.

كان الجواد الذي لم يركبه منذ فترة طويلة في انتظاره.. وضع متاعه عليه ثم قفز فوقه فاهتز الجواد وصهل كأنه كان مشتاقًا لرحلة جديدة.

لكن هذه المرة الرحلة أخطر من أي مرة.. سوف يعود إلى معقل الحشاشين.. الحشاشين الذين قتل أحدهم.. بالتأكيد «بجرت» قد عاد وأخبر الجميع بما حدث.. هو لم يعد يهمه أي شيء.. لم يعد يهتم بمن في القلعة، فقط «نسيم» الذي علَّمه القتال وعامله معاملة حسنة تلك السنوات كلها، وصديقه «سلام».. رفيق دربه من القرية إلى القلعة.. لكن ما موقفهما منه الآن بعد أن عرفا ما فعله؟ هل ما زال المعلم على رفقه والصديق على وفائه؟

لم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ.. فقد خرج «عبد الرحمن» في سفره بعد صلاة الفجر مباشرة.. يحب دائمًا في خروجه ودخوله أن يتستر بالظلمة.. ظل يسير بجد فترة قصيرة حتى أصبح خارج «أصفهان».. لم يسر طويلًا؛ فبيت «سليمان» أصلًا كان على طرف المدينة.. ظل يتلفَّت حوله حتى وجد ظلين يقفان في الظلام ينتظرانه.. يبدو أنهما رجلان واقفان أمام

جواديهما.. تحرك نحوهما بجد ثم وقف أمامهما وسألهما قبل أن ينزل من على الجواد ليتأكد:

- هل أنت الإمام «علم الدين»؟

رفع الإمام اللثام من على وجهه وهو يقول له:

- نعم.. هيا بنا يا «عبد الرحمن».

ركب الإمام على جواده بمساعدة ابنه الذي قال له:

- هل ما زلت مصممًا يا أبي على الذهاب؟

رد عليه «علم الدين» بإصرار:

- يجب أن أرى بعض الأشياء بنفسي.. يجب أن أتأكد من بعض المعلومات والعقائد التي سأبني عليها أحكامًا مهمة تخصهم.

عاد «عبد الرزاق» يقول له بخوف:

- لكنهم لو عرفوك لقتلوك.

رد عليه الإمام بثقة:

- يكون أجلي يا بني.. سوف آخذ بأسباب السلامة وقدر الله نافذ.. لقد أتى إليّ الموت.. لكن أجلي لم يكُن قد حان.

سأله «عبد الرزاق»:

- ولماذا لا تريد أن تأخذني معك؟

أجابه «علم الدين» بصبر نافد:

- لقد تكلمنا في هذا الأمر من قبل.. عليك مساعدة المرضى حتى عودتي إن شاء الله.

ثم أمسك بلجام الجواد وهو يقول:

- السلام عليك يا «عبد الرزاق».. يجب أن نبتعد قبل أن يرانا أحد، وكما قلنا لو سألك أحد عني فقل له إنني ذهبت لعلاج قريبة صديق لي في بلدة قريبة.

سلم «عبد الرزاق» على والده وقال لـ«عبد الرحمن»:

- حافظ عليه يا «عبد الرحمن» قدر استطاعتك.

رد عليه «عبد الرحمن»:

- لو أصابه مكروه فاعلم أنني مت قبل ذلك.. وعلى كل حال فالله خير حافظًا.. إلى اللقاء يا «عبد الرزاق».

تحرك الجوادان في رحلتهما نحو القلعة، وظل «عبد الرزاق» يراقبهما حتى اختفيا من أمامه.

* * *

كان «خورشيد» يمشي ببطء.. يبدو عليه التعب والإنهاك.. ربما يكون الحزن أيضًا هو سبب تلك المشية الشاردة.. وصل إلى داره التي كانت

«زهرة» قديمًا تملؤها فرحًا ولعبًا في حديقتها.. الآن صار كل شيء كئيبًا وصامتًا، لكن ما هذا الصوت؟ كأن هناك من ينادي عليه بصوت هامس منخفض.. تلفَّت حوله لكنه لم يجد أي شيء.. ظن أنه يتخيل، لكن لحظات وشعر بتلك اليد على كتفه.. شعر «خورشيد» لوهلة أن رجليه سوف تخذلانه وأنه سوف يقع على الأرض، لكنه تماسك واستطاع أن ينظر لوجه صاحب اليد.. اتسعت عيناه في ذعر ووضع يده على فمه وهو يقول بدهشة:

- «عبد الرحمن»! لماذا عدت؟ إنهم يبحثون عنك.

ردَّ عليه بسرعة:

- هيا ندخل أولًا حتى لا يرانا أحد.

أسرع «خورشيد» بفتح الباب، فقال له «عبد الرحمن» وهو يدخل:

- معي صديق.. هل يوجد أحد غريب بالبيت عندك؟

أجابه «خورشيد»:

- لا يوجد غيري أنا وزوجتي والخادمة.. وبالطبع «زهرة» مريضة كعادتها.

قال له «عبد الرحمن» وهو يدخل ويدفع الإمام دفعًا إلى الداخل:

- من أجل ذلك جاء معي هذا الصديق.. إنه طبيب.

سأله «خورشيد» وهو يُقفل الباب بإحكام:

- وماذا سيفيد؟ لقد أحضرت لها الكثير منهم.. لم يكن عليك المخاطرة بالمجيء وهم يريدونك حيًا أو ميتًا.

أجابه «عبد الرحمن» بحذر:

- لكنه ليس من هنا، إنه...

لم يكمل «عبد الرحمن» جملته بعد أن عرف من الذعر الذي ظهر على وجه «خورشيد» أنه قد فهم.. سأله «خورشيد» بخوف:

- هل هو سُنِّي؟

أومأ «عبد الرحمن» برأسه كناية عن الإيجاب فدار «خورشيد» في قلق حول نفسه كأنه يبحث عن شيء ما فأمسك به «عبد الرحمن» من كتفيه وقال له بشدة:

- اهدأ يا «خورشيد».. ليس أمامنا الكثير من الوقت.. لقد عدت في مهمة معينة وأتى معي هذا الطبيب لعلاج ابنتك.. لو عرف أحد بوجودنا لقتلونا، وربما يقتلونك معنا.. لو كنت لا تستطيع استضافتنا سننصرف.. لكن تذكر ابنتك التي أتيت بالطبيب من أجلها.

هدأ «خورشيد» قليلًا ثم قال باستسلام:

- سوف أذهب لأوقظ زوجتي والخادمة فقد تأخرت في العمل اليوم ويبدو أنهما قد نامتا.

سأله «عبد الرحمن»:

- هل ما زالت «فاطمة» هي التي تعمل عندك؟

أجابه «خورشيد»:

- نعم.. أنا لا أحب أن أغيّر من يعمل عندي.

عاد «عبد الرحمن» يسأله:

- هل تثق فيها؟

عاد «خورشيد» يجيبه:

- لقد عاشت معنا عمرها كله، كيف لا أثق فيها؟! إنها واحدة منا.

همّ «خورشيد» بالذهاب لزوجته ثم توقف وسأل «عبد الرحمن»:

- ما اسم الطبيب؟

أجابه «عبد الرحمن» على الفور:

- «عبد الرزاق».. كلنا عباد الله.

هزّ «خورشيد» رأسه وتمتم وهو يبتعد:

- أعرف أنه ليس اسمه.. لكن لا بأس.

وذهب ليوقظ زوجته والخادمة.. بينما انتظره «عبد الرحمن» والطبيب بالأسفل.

* * *

لم تفهم «وجد»، زوجة «خورشيد»» في بادئ الأمر سبب إيقاظه لها.. ثم سمعت اسم «عبد الرحمن».. لم تكن تعلم بأي شيء عن الذي فعله «عبد الرحمن» لأنها لم تكن تخرج من المنزل، لكنها تذكرت بغضها له فسألته بغضب:

- وما الذي أتى به إلى هنا الآن؟

أجابها «خورشيد» وهو يضع يده على فمها برفق حتى يسكتها:

- لقد أحضر معه طبيبًا ماهرًا يمكنه علاج ابنتنا.

نظرت إليه المرأة بشك وهي تسأله:

- وما الذي يختلف في هذا الطبيب عن غيره؟ لقد أحضرنا لها كل طبيب في المنطقة.

رد عليها «خورشيد»:

- وهذه هي المشكلة.. الطبيب ليس من هنا.. إنه من منطقة السُنَّة.

اتسعت عيناها في رعب وهي تردد:

- هل هو سُنِّي؟

فهز «خورشيد» رأسه وبدأ في سرد ما كان يسمعه في الأيام الماضية بالسوق من خيانة «عبد الرحمن» لإمام القلعة وقتله لأحد الحشاشين..

بدأ القلق يسري إلى فؤاد الأم التي تريد الشفاء لابنتها.. سكتت قليلًا ثم قالت له بعزم:

- يقولون إن الأطباء عندهم مهرة.. يجب أن نحافظ عليه حتى يعالج «زهرة».

ثم أضافت بصوت يملؤه التمني:

- وأرجو أن يستطيع..

رد عليها «خورشيد» وهو يقوم من جانبها:

- حسنًا.. أيقظي «فاطمة» وأخبريها أن تنظّف الغرفة الفارغة لـ«عبد الرحمن» والطبيب.

وترك زوجته تقوم من على الفراش بينما توجه هو لباب الغرفة، لكنه توقف فجأة وابتسم ثم قال لها دون أن يلتفت إليها:

- هي الغرفة نفسها.

سألته زوجته بعدم فهم:

- أيّة غرفة؟

أجابها «خورشيد»:

- الغرفة التي سكنها «عبد الرحمن» أيامًا.

أطرقت الزوجة بنظرها إلى الأرض ولم تجب فتنهد «خورشيد» وقال لها وهو يخرج من الغرفة:

- المهم، تأكدي من أن «فاطمة» لن تخبر أحدًا عن الضيفين.

فردت عليه الزوجة بثقة:

- لا تخَف، سوف أؤكد عليها.

فأضاف «خورشيد» وهو يبتعد:

- وأنا كذلك.

وخرج وزوجته تستعد للنزول إلى الخادمة.

* * *

كان «علم الدين» في الغرفة يجهز الأوراق التي سيكتب فيها الملحوظات التي جاء من أجلها.. بينما جلس «عبد الرحمن» في أحد أركان الغرفة يترقّب، عندما سمعا طرقات متتالية سريعة على باب الغرفة.. انتفض «عبد الرحمن» واقفًا بينما سأل «علم الدين» عن الطارق فسمعا صوت «فاطمة» يقول لهما بأدب:

- لو الطبيب مستيقظ، هل يمكنه أن يأتي إلى غرفة سيدتي «زهرة»؟

رد عليها «علم الدين»:

- سوف آتي على الفور.

قام «علم الدين» من على الأرض وهو يقول لـ«عبد الرحمن»:

- ابقَ أنت هنا.. سوف أعود على الفور.

هزّ «عبد الرحمن» رأسه ولم يرد.. كان مشغولًا بالتفكير في «نورسين».. كيف سيقابلها ويراها؟ هل ما زالت ترعى عند القلعة؟ كيف سيصل إليها دون أن يراه أحد؟ أشياء كثيرة تشغله وتجعله شاردًا ومتحفزًا طوال الوقت.

وصل «علم الدين» إلى غرفة «زهرة» التي عرفها لوقوف والدها أمامها.. تقدم «خورشيد» إلى الغرفة وتبعه «علم الدين» إلى الداخل.

كانت آثار القيء في كل مكان من حولها.. فتاة نحيفة وهزيلة وشاحبة.. تلتقط أنفاسها بالكاد.. اقترب منها «علم الدين» ونظر إلى القيء الذي كانت «فاطمة» تمسحه عن الأرض بخرقة بالية.. بينما جلست «وجد» بجانب ابنتها تبكي بصوت مكتوم.. نظرت «وجد» إلى «علم الدين» بتوسل وأمل.. كأنها تقول له: هل تستطيع فعلًا أن تفعل لها شيئًا؟!

نظر «علم الدين» إلى الفتاة قليلًا قبل أن يسأل «خورشيد»:

- منذ متى وهي على هذا الحال؟

أجاب «خورشيد» بيأس:

- أكثر من أربع سنوات.. بدأ الأمر قبل ذلك، لكنه لم يشتد عليها إلا منذ أربع سنوات.

عاد «علم الدين» يسأله:

- عرفت أنك أتيت إليها بالكثير من الأطباء.. هل عندك شيء من الدواء الذي كانت تأخذه؟

نظر «خورشيد» إلى الخادمة وهو يقول:

- بالطبع عندنا.. أحضري الدواء يا «فاطمة».

تحركت الخادمة بسرعة إلى طاولة عليها بعض الزجاجات فأتت بإحداها..

أخذ «علم الدين» الزجاجة فوضعها أمام أنفه يشم ما فيها ثم تذوقه..

ظهرت على وجهه علامات عدم الرضا ثم قال:

- لا تعطوها من هذا الدواء مرة أخرى.

ثم قال لـ«خورشيد»:

- أريدك أن تشتري لي بعض الأعشاب التي سأستخدمها.. أظنك ستجدها في القرية، أنا قد أحضرت معي ما يمكن ألّا أجده هنا.

ثم قال للخادمة:

- أحضري لبنًا طازجًا.

فقال له «خورشيد»:

- لقد سبق أن سقيناها لبنًا.. كانت أحيانًا تقبله وأخرى تتقيؤه.

ابتسم «علم الدين» وقال:

- هذا طبيعي بالنسبة لحالتها.. لكن هذه المرة سوف تشربه بعد أن نضيف إليه بعض الأشياء.

* * *

بدأت «زهرة» تتحسن.. لكن ليس هذا فقط ما أدهش «خورشيد» وزوجته وأسعدهما، بل سرعة التحسن.. في تلك الأيام كان «علم الدين» يقضي معظم الوقت في كتابة ما يسمعه من «عبد الرحمن» عن الذي تعلمه في القلعة وعن فرقة القَتَلة التي كان منها.. سمع أيضًا من «فاطمة» التي لم تكن عالمة، لكنها كانت تعبر عن رأي العامة ونظرتهم للإمام القابع في القلعة.

حتى كان ذلك اليوم الذي جاء فيه «خورشيد» متوترًا إلى البيت قبل موعده المعتاد.. كان يرتجف من الخوف.. لم يرد على الخادمة التي سألته إذا كان يريد الطعام.. لم يدخل ليطمئن على ابنته التي أصبحت تجلس الآن على فراشها وتتجول بالغرفة أحيانًا بعد أن تحسنت، بل انطلق مباشرة إلى غرفة «عبد الرحمن» فدخلها دون استئذان.. انتفض

«عبد الرحمن» الذي كان يجلس على الفراش، بينما نظر إليه «علم الدين» بتساؤل، فقال «خورشيد» بخوف:

- لقد أتى «سلام» اليوم.

كان «عبد الرحمن» قد أخبر «علم الدين» عن صديقه «سلام» لذلك لم يسأل عن كنهه.. سأل «عبد الرحمن» «خورشيد» بقلق:

- وما سبب مجيئه؟

أجابه «خورشيد»:

- لقد جاء ليشتري مني ما يحتاجون بالقلعة كعادتهم.

رد «عبد الرحمن» وهو ينظر إلى «علم الدين» كأنه يستلهم منه الطمأنينة:

- وماذا في هذا؟ هذا شيء طبيعي.

رد عليه «خورشيد»:

- نعم، لكنه شعر بالشك عندما لم أرسل الصبي ليحضر الطعام كعادتي؛ فأنا لا أريد أن يراكما الصبي الذي يعمل عندي.. ثم فجأة سأل عنك، كأنه يعرف أني أعرف مكانك.

ابتلع «عبد الرحمن» ريقه بصعوبة ونظر إلى «علم الدين» يطلب مشورته.. قال له «علم الدين» وهو يداعب لحيته:

- ربما هي مصادفة.. أظنهم لو عرفوا أنك هنا لهاجموا البيت.

هزْ «عبد الرحمن» رأسه موافقًا.. لكنهم جميعًا فزعوا عندما سمعوا تلك الطرقات السريعة على الباب.. خرج «خورشيد» مسرعًا ليمنع الخادمة من فتح باب البيت وجرى خلفه «عبد الرحمن» و«علم الدين»، لكن الخادمة كانت قد فتحت الباب.

دخل «سلام» مسرعًا.. نظر يمينًا ويسارًا كأنه متأكد من أنه سيجد ما يبحث عنه، لكن ما كان يبحث عنه وجده عندما نظر للأعلى.. كان «عبد الرحمن» يقف أعلى الدرج.. تلاقت عيونهما في لحظات من الصمت قبل أن يسأله «عبد الرحمن»:

- كيف عرفت أنني هنا؟

رد عليه «سلام»:

- عاشق مثلك لن يترك محبوبته.. من يرفض الفردوس التي لا يجد فيها من يحب بالتأكيد سيعود، ومَن غير «خورشيد» لك في هذه القرية؟ لقد رأيت جوادك في حظيرة «خورشيد».. أنا لا أنسى جوادك أبدًا.

كان «سلام» يبتسم في مودة وهو يتكلم.. علم «عبد الرحمن» أن صاحب تلك الابتسامة لا يريد به شرًا.. صاحب تلك الابتسامة ما زال صديقه.. نزل «عبد الرحمن» الدرج مسرعًا وارتمى في حضن صاحبه الذي

احتضنه بمودة.. نزل «علم الدين» الذي كان أكثر حذرًا فسلَّم على «سلام» وعرّف نفسه على أنه طبيب.. سأل «عبد الرحمن» «سلام»:

- كيف حال القلعة؟

أجابه «سلام»:

- لو كنت تقصد حكايتك، فالقلعة مقلوبة.. لأول مرة أسمع صراخ «حسن الصباح» في «نسيم».. لقد كلف «رستم» بالحصول عليك.. إنهم يبحثون عنك في «أصفهان» الآن.

نظر إليه «عبد الرحمن» بشك، فسأله «سلام»:

- لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟

فرد عليه «عبد الرحمن» بسؤال:

- وأنت؟

فأجابه هو الآخر باستفسار:

- وأنا ماذا؟

فوضّح «عبد الرحمن» سؤاله:

- ألا تريد رأسي؟

ضحك «سلام» وقال له:

- لماذا؟ هل تعتقد أنني ما زلت أصدق ذلك الدعي المدعو «حسن الصباح»؟ لولا أنني متأكد من عودتك لتركت القلعة منذ أن عرفت الحقيقة.

تحفّز «علم الدين» وشعر بأن «سلام» سوف يخبرهم بشيء مهم فسأله على الفور:

- حقيقة ماذا؟

أجابه «سلام»:

- حقيقة الفردوس.

فسأله «عبد الرحمن»:

- هل دخلتها؟

فأجاب «سلام»:

- لا.. ولكني صدفة سمعت من يُدخلون الحشاشين إليه وهم يتكلمون.

فسأله «علم الدين»:

- ماذا تعني بمن يُدخلون الحشاشين هؤلاء؟

أجابه «سلام»:

- الأمر ليس فيه جنة ولا نار.. الأمر بمنتهى البساطة أنهم يخدّرون من يريدون أن يوهموه أنهم أدخلوه الفردوس ثم ينقلونه إلى واد موجود خلف القلعة.

فسأله «عبد الرحمن» بفرح:

- هل أنت متأكد؟

أجابه «سلام» بثقة:

- نعم متأكد.

تنهد «عبد الرحمن» وحمد الله في سعادة.. كان الإمام يعرف سر راحة «عبد الرحمن» فسأله:

- هل تأكدت الآن؟

هز «عبد الرحمن» رأسه وقال:

- بل اطمأن قلبي.

ثم قال لـ«سلام»:

- ماذا سنفعل الآن؟

فهز «سلام» رأسه وقال له:

- لا أعرف، أنا أنتظرك لنرى ماذا سنفعل.

لم يعقب «عبد الرحمن» على كلام صاحبه.. بل ظل يفكر حتى قال له «سلام»:

- «نورسين» ما زالت تأتي عند القلعة.

سأله «عبد الرحمن» بقلب وجل:

- وكيف حالها؟

أجابه «سلام»:

- هي بخير.. أنا أمر عليها كلما خرجت من القلعة وهي تسأل عنك باستمرار.. هي قلقة عليك بعد أن عرفت أنك أصبحت من المطلوبين.

فقال له «عبد الرحمن» بحزم:

- يجب أن أراها.

فرد عليه «سلام» محذرًا:

- لا تتهور.. لو عرفك أحد بالقرب من القلعة سوف يقتلونك.. خاصة أنهم يراقبونها.. لقد عرفوا ما دار بينكما.

فسأله «عبد الرحمن»:

- من الذي ورّطها في الأمر؟

أجابه «سلام» مفكرًا:

- أظنه «أبدس».. يجب أن تتوخى الحذر.. إنهم يعدون أشرس المقاتلين للقضاء عليك.. «أبدس» و«بجرت» على رأسهم.

فهز «عبد الرحمن» رأسه في عدم اقتناع وقال:

- لكني أريد أن أراها.. ربما أقنعها بالهروب معي إلى «أصفهان».

تدخل «علم الدين» في الحديث فقال:

- صديقك على حق يا «عبد الرحمن».. يجب ألا نقترب من القلعة.. بل يجب أن نجهز أنفسنا للرحيل ما دمت قد عرفت ما أريد وحالة «زهرة» تتحسن.. سوف أترك لها ما يكفيها من الدواء حتى يكتمل شفاؤها بإذن الله.

لم يرد «عبد الرحمن» لأنه كان ينوي رؤية «نورسين» مهما كان الثمن..

أحس «سلام» بعزم صاحبه فقال له:

- عندي فكرة تجعلك تراها وتكفينا شر المواجهة.

سأله «عبد الرحمن» بلهفة:

- وما هي؟

أجابه «سلام»:

- خطة بسيطة.. لكن يجب بعد أن تراها أن نفر جميعًا من هنا.

وبدأ في سرد الطريقة البسيطة التي سيرى «عبد الرحمن» بها «نورسين».

خيانة

كان «سلام» يعرف جيدًا أن عدم حضور «نورسين» للرعي في المكان المعتاد لها سوف يثير شك من يراقبها؛ لذلك اتفق مع «عبد الرحمن» على الهرب فورًا أو على الأقل الاختفاء بعد رؤية «نورسين» في المكان الذي اتفقوا عليه، والذي ذهبت إليه «نورسين» بعد محاولة سرقتها التي أنقذها منها «عبد الرحمن».

أخبر «سلام» الفتاة بحضور «عبد الرحمن» ورغبته في رؤيتها، لكنه شدد عليها في عدم البوح بنيتها في تغيير مكان رعيها للغنم لأي أحد، حرصًا على حياة صاحبه، وهي على كل حال كانت أشد حرصًا على حياة صاحبه منه.

في ذلك اليوم الذي من المفترض أن تقابل فيه «عبد الرحمن» لم تستيقظ «نورسين»؛ لأنها في الأصل لم تنَم ليلتها.. ظلت طوال الليل تتقلب في فراشها مستيقظة بين الخوف والرجاء.. القلق والتمني.. قامت من على فراشها قبل موعدها المعتاد وبدأت في تجهيز نفسها للخروج.

كانت تتمنى لو تبصر لدقائق معدودة.. تتزين فيها وترى كيف أصبح شكلها.. لا يوجد الآن من يمكنه أن يساعدها على ذلك؛ لذا خرجت من الدار والجميع لا يزال نائمًا، فنادت على كلبها «فريح» الذي يُشعرها بالطمأنينة، إضافة لقيادته لها في الطريق.

ظلت «نورسين» طوال الطريق مترقبة، متوترة، تفكر فيما ستقول لـ«عبد الرحمن» فور رؤيته.. هل تقول له إنها قد افتقدته.. أم تقول إنها تحبه ولا تستطيع العيش من دونه؟

ظلت تفكر فيه حتى وصلت إلى المكان الذي اعتادت أن ترعى فيه خرافها.. كانت أول الواصلين.. الشمس بدأت تشرق على استحياء.. تركت أغنامها تأكل من المرعى في حرية، والكلب بدأ يتجول بسعادة بالغة في المكان الذي لم يأته منذ فترة طويلة.

كانت تعلم أنها جاءت مبكرة عن الميعاد الذي اتفقت عليه مع «سلام»، لكنها لم تستطع أن تنتظر في البيت أكثر من ذلك، وطال بها الانتظار وبدأ القلق يسري إلى قلبها، فكأنه لم يرضَ لها أن يسري القلق في قلبها فوصل.

كان يتسلل.. يتلفت.. يتأكد أنه ليس هناك من يتبعه.. نظر إليها قليلًا وكأنه لم يرَها إلّا الآن.. كلما رآها كأنها أول مرة يراها.. كأنه أول مرة يقع

في حبها.. اقترب منها ببطء فتحفَّز الكلب وبدأ يزمجر ويتحفز للهجوم، لكنه عرفه بعد قليل فبدأ ينبح في سعادة ويتقافز من حوله.. أحست «نورسين» بوجوده فسألت بلهفة ودقات قلبها تتدافع للخروج من صدرها إلى الفضاء الواسع معلنة حبها له:

- من هناك؟ هل يوجد أحد؟

ضحك «عبد الرحمن» وقال لها:

- لقد كشفني «فريح» كعادته.

كان هو «عبد الرحمن».. صوته، وطريقة حديثه التي أصبحت تدمنها.. هل كانت تفكر فيما ستقوله عندما تقابله؟ لماذا إذًا غلبها البكاء فور سماع صوته؟ لماذا ترتجف من الفرح؟ لماذا لا تستطيع النهوض؟

أسرع «عبد الرحمن» فجلس إلى جوارها وربت على كتفها بحنان فأبعدت كتفها بحياء عنه، فخجل «عبد الرحمن» منها.. ما زالت نقية كما هي.. جميلة ومشرقة كما هي.. بعد أن هدأت قليلًا سألته:

- ما الذي حدث؟ يقولون إنك على خلاف مع قادتك في القلعة.

رد عليها «عبد الرحمن»:

- الأمر أكبر من ذلك بكثير.

وبدأ «عبد الرحمن» في سرد سريع لرحلته إلى «أصفهان» دون إغفال التفاصيل المهمة.. لم يكن الغرض من حكايته لما حدث معه أن يخبرها فقط بالأحداث، بل يريد أن تعلم ما توصّل إليه من قناعات.. حتى إنه أخبرها عن الفردوس المكذوبة التي يخدعون بها الحشاشين في القلعة.

كانت «نورسين» تسمع وتصدق على الفور، فهي ربما لم تكن واسعة الاطلاع، لكنها كانت تملك فطرة سليمة، بالإضافة لحبها له الذي جعل كل ما يقوله صدقًا.. بعد أن فرغ من حكايته كان كل ما يشغلها هو أنه من الواضح عدم قدرته على المكوث في القرية فسألته بحزن:

- لم يعد لك مكان في القرية.. أليس كذلك؟

فهز «عبد الرحمن» رأسه وهو يقول لها:

- بل لم يعد لنا.. لن أتركك هنا بمفردك.

فردت عليه «نورسين» والدموع بدأت تتجمع في عينيها:

- لا يمكنني أن أترك أبي المريض وأمي وإخوتي الصغار.

فقال لها «عبد الرحمن» متسائلًا بفرح:

- هل هذا فقط ما يجعلك لا تريدين الرحيل؟

أجابته «نورسين»:

- وماذا غير ذلك؟

فرد عليها «عبد الرحمن» بتعجب:

- ألا تعترضين على عقيدتي الجديدة؟

أجابته «نورسين» بثقة:

- أنت لن تكذب عليّ يا «عبد الرحمن»، وما داموا قد كذبوا في كل ما تقول فلا دين لهم.

منطق بسيط أعجبه وجعله يقول لها:

- لو كانت المشكلة في أهلك فـ«خورشيد» سوف يقوم بحل تلك المشكلة.

سألته بلهفة:

- كيف ذلك؟

أجابها:

- لقد بدأ «خورشيد» منذ الأمس في تصفية تجارته، وسوف يسافر إلى «أصفهان» بعد أن أسافر أنا؛ فهو لم يعد يشعر بالأمان في قريته بعد الآن.. الوطن الذي لا يشعر فيه المرء بأمانه وقضيته لا يعود وطنًا.. يمكنه أن يأخذك أنت وأهلك معه لو طلبت منه ذلك.

سألته بقلق:

- ألا تقول إنهم يراقبونني؟

فأجاب:

- هم يراقبون المرعى عند القلعة.. المكان الذي كنت أقابلك فيه..

«سلام» أخبرني بذلك.. لكنهم لا يراقبون البيت.. أنا تأكدت من أنه ليس

هناك من يراقبك؛ لذلك تأخرت عليك قليلًا.

ابتسمت «نورسين»، فسألها بدهشة:

- لماذا تبتسمين؟

أجابته والابتسامة لا تفارق ثغرها:

- لقد استأت لتأخرك، فقد كنت أتوقع أنك متلهف لرؤيتي، وظننت أنك

تأخرت دون سبب.

فقال لها «عبد الرحمن» بلوم مداعبًا إياها:

- أنا لن أسامحك على سوء ظنك بي.

فردت عليه:

- لا يا «عبد الرحمن»، يجب أن تسامحني.

فقال لها «عبد الرحمن»:

- سوف أسامحك بشرط واحد.

فسألته «نورسين»:

- ما هو؟

أجابها «عبد الرحمن»:

- أن توافقي على الزواج مني.

فابتسمت «نورسين» واحمرت وجنتاها من الخجل، لكن ما لبث أن بدأ

القلق يكسو ملامحها من جديد فسألها «عبد الرحمن»:

- ماذا هناك يا «نورسين»؟ ألا تريدين الزواج مني؟

أجابته:

- ليس الأمر كذلك.. لكني قلقة من أن يرفض والدي السفر.

ابتسم «عبد الرحمن» وقال لها بثقة:

- لا تخافي، فـ«خورشيد» يملك من أساليب الإقناع ما سيجعله يوافق..

سوف يشتري كل أغنامكم لو تطلب الأمر.. أنا متأكد من أن «خورشيد»

سوف يعرض عليه عرضًا لا يمكن رفضه.

هزت «نورسين» رأسها ولم تعقب فقال لها:

- يبدو أنك لا تزالين قلقة.

فقالت له:

- سوف أظل كذلك حتى نخرج من هنا.

كان «عبد الرحمن» يرى أن هذا القلق طبيعي.. الآن عليه العودة إلى

بيت «خورشيد» والانتظار حتى الليل.. الليل الذي سيخرج فيه مع «علم

الدين» للهروب من القرية، بعد ذلك سيتولى «خورشيد» و«سلام» سفر «نورسين» وأهلها..

«نورسين» التي سينتظرها في الطريق وينوي أن يجعل «علم الدين» يزوّجها إياه.. حتى قبل الوصول إلى «أصفهان».

* * *

مرّ اليوم بطيئًا.. كأنه متوقف لا يريد التحرك.. ظلوا جميعًا بالبيت.. لم يخرج سوى «خورشيد» لتصفية بعض الأعمال و«فاطمة» خرجت وقتًا قصيراً لشراء بعض المؤن للرحلة.

كانت «وجد»، زوجة «خورشيد»، تجمع ثيابها وثياب ابنتها التي تحسنت صحتها كثيراً.. لم تكن حزينة لهروبهم من القرية، ففرحها بصحة ابنتها عوّضها عن أي شيء آخر.

ظل الصمت سيد الموقف بين «علم الدين» و«عبد الرحمن».. ينظران إلى بعضهما ولا يتحدثان.. كان «عبد الرحمن» يقوم أحيانًا ليدور في الغرفة قليلًا، أو يتأمل المنظر خارج النافذة.. لقد بدأت الشمس بالمغيب واقترب وقت الرحيل.

سوف يترك هذه القرية إلى الأبد.. بعد رؤية «نورسين» وموافقتها على الرحيل معه لم يعد له أي شيء فيها.

صوت دفع باب الغرفة هو الذي أخرجه من شروده.. ركلة قوية كادت تقلع الباب من مكانه.. انتفض «علم الدين» واقفًا.. بينما أسرع «عبد الرحمن» نحو سيفه، لكنه لم يستطع الوصول إليه لأنه وجد نصل سيف آخر على رقبته.

وقف «أبدس» يبتسم بتشفٍّ.. ينظر إلى «عبد الرحمن» بثقة، بينما صوّب حشاشان آخران سيفيهما إلى صدري «علم الدين» و«عبد الرحمن».

قال له «أبدس» في سخرية:

- كنت تعتقد أننا لن نستطيع أن نقبض عليك!

رد عليه «عبد الرحمن» بطريقة مستفزة:

- لولا عودتي لما استطعتَ أن تقبض عليّ.

فقال «أبدس» للحشاشين اللذين معه:

- أحضراهما إلى الأسفل مع السيدتين.

حمد «عبد الرحمن» الله على أن «أبدس» لم يتعرف على الإمام «علم الدين»، وإلا كان قد قتله على الفور.. نزل «عبد الرحمن» على الدرج والسيف مصوّب نحو ظهره ليجد «زهرة» تبكي في حضن والدتها، بينما يقف حشاش آخر أمامهما.

قال «عبد الرحمن» لـ«أبدس»:

- كنت دائمًا تكرهني لأنني أكثر مهارة منك.

ابتسم «أبدس» بغرور وقال له:

- بل لأنك تحصل على ما لا تستحق، وكانت النتيجة خيانتك لنا.

رد عليه «عبد الرحمن» مستفزًا إياه:

- تقول هذا الكلام وأنت تحمل سيفًا وبيننا هذه الطاولة؛ لذلك أنت مطمئن.

سكت «أبدس» قليلًا ثم ضحك بصوت عالٍ وقال:

- هل تعتقد أنني ساذج وسوف تخدعني بهذه الطريقة؟

فسأله «عبد الرحمن» بجدية:

- هل ستقتلني وأنا أعزل؟

أجابه «أبدس» وهو ما زال يضحك:

- نعم سأقتلك وأنت أعزل.

فرد عليه «عبد الرحمن» وهو يبتسم:

- ومن قال إنني أعزل؟

وجد الحشاش الذي كان يقف خلف «عبد الرحمن» نفسه على الأرض بعد الركلة التي أخذها.. بينما رأى «أبدس» «عبد الرحمن» يطير في

الهواء بعد أن قفز من فوق الطاولة ولاحظ النصل يخرج من كم قميصه.

كان الخنجر الذي أعطاه إياه «حسن الصباح» لقتل الإمام «علم الدين» في كم قميصه دائمًا.. الآن ذلك النصل يتجه نحو رقبة «أبدس» الذي لم يستوعب المفاجأة حتى الآن ليترك النصل ينغرس في رقبته.. أحس «أبدس» برجفة قوية وسقط السيف من يده فأخذه «عبد الرحمن» وغرسه في بطن الحشاش الذي كان واقفا أمام «زهرة» وأمها.

صرخت «زهرة» بخوف وابتعدت عن القتيل وجرت خلفها أمها، بينما قام الحشاش الذي ركله «عبد الرحمن» من على الأرض وظل يمسك بـ«علم الدين» كما هو فقال له الحشاش الآخر:

- اترك هذا العجوز، لا حاجة لنا به.. يجب أن نقتل «عبد الرحمن».. فلنهجم معًا.

دفع الحشاش «علم الدين» على الأرض واستعد للهجوم على «عبد الرحمن» مع زميله.

لمح «عبد الرحمن» «أبدس» الذي كان ممددًا على الأرض فعلم أنه في النزع الأخير، كان «أبدس» هو ما يهمه لأنه يعرف أنه أمهرهم.. انتظر «عبد الرحمن» قليلًا ثم أمسك بالطاولة بيد واحدة وألقى بها على

المهاجم الذي أتى من على يساره.. ثم صد بيمينه ضربة الآخر، لكنه كان قد تأخر قليلًا، كان الوقت الذي تأخره كافيًا ليصيبه سيف بإصابة ليست بسيطة.

لم يشعر «عبد الرحمن» بالألم.. كان كل ما يشغله القضاء عليهما حتى يطمئن على «نورسين».. أصاب «عبد الرحمن» الحشاش الذي كان يقاتله في صدره، بينما قام الآخر الذي سقطت عليه الطاولة ليجد نفسه بمفرده أمام «عبد الرحمن» وقد قرر «علم الدين» مساعدته فأمسك سيفًا ووقف إلى جواره.. أحس الحشاش بعدم الجدوى فخرج مسرعًا من البيت وهو ينوي العودة بالدعم.

أمسك «عبد الرحمن» كتفه التي كانت تنزف بعد أن أصيبت.. اقترب منه «علم الدين» وربطها له حتى يوقف النزيف.. فقال له «عبد الرحمن»:

- يجب أن تتحركوا الآن.. سوف يعودون للقضاء علينا.. لكن هذه المرة سوف يكون عددهم أكبر.

فسأله «علم الدين»:

- وأنت.. إلى أين ستذهب؟

أجابه «عبد الرحمن»:

- سوف أذهب لأطمئن على «نورسين».

حاول «علم الدين» أن يثنيه قائلًا له:

- بالتأكيد مَن أخبرهم بمكانك جعلهم يراقبون بيتها الآن.

رد عليه «عبد الرحمن» وهو يتأوه:

- لا يمكن أن أتركها.

ثم أردف بشك بعد أن فكر قليلًا:

- هل تعتقد أن «سلام» قد وشى بنا؟

هز «علم الدين» كتفيه وأجابه:

- لا أدري.

ثم تلفت حوله وتساءل:

- أين الخادمة؟

هنا لاحظ «عبد الرحمن» اختفاء الخادمة فقال له:

- هل تعتقد أنها هي الواشية؟

كانت الإجابة هذه المرة من زوجة «خورشيد» التي عادت من المطبخ لتقول وهي ترتجف:

- لقد ذبحوا «فاطمة».

لم يكن هناك الكثير من الوقت للهلع؛ لذلك قال لهم «عبد الرحمن» وهو يخرج:

- احملوا ما خف وزنه وارتفع ثمنه.. سوف تجدون «خورشيد» في الدكان.. خذوه وارحلوا.. أنا سوف ألحق بكم.

وخرج مسرعًا إلى دار «نورسين».. يملؤه القلق عليها والشك في «سلام».

* * *

وصل «عبد الرحمن» إلى دار «نورسين» التي كانت فقيرة متهدمة.. كان صوت الخراف واضحًا يخرج من باب الحظيرة الملحقة بالدار.. هي إذًا بالداخل.. اقترب بهدوء من أحد جدران الدار واسترق السمع.. لم يكن هناك أي صوت..

أحس بالقلق.. اقترب من باب الدار فوجده مفتوحًا.. دفعه ببطء ليدخل.. كان الضوء خافتًا، واحتاج الأمر لبضع ثوانٍ ليعتاد الظلام ويبدأ في الرؤية فيه.

تلفت حوله فلم يجد أي شيء.. كل شيء من حوله كان ساكنًا.. لكن ما هذا الشيء الملقى على الأرض؟ شيء متكوم في الظلام كأنه..

كأنه جسد بشري..

خفق قلبه بقوة.. اقترب من الجسد المسجى على الأرض.. نزل على ركبتيه.. تمنى أن يخيب ظنه.. تمنى أن يكذب عليه حدسه.. لكنها كانت هي..

«نورسين»..

صاحبة أجمل عينين لا تريان.. لكنها أرته الدنيا أفضل بكثير..

«نورسين» لم تعد تبتسم تلك الابتسامة الخجول التي كانت تأسره..

لم تعد حتى تتكلم بذلك الصوت العذب الذي يطربه..

«نورسين» لم تعد تتنفس.

وضع رأسها على فخذه وبدأ بالبكاء..

هذه المرة بكى بشدة.. حتى إنه لم يعد يرى بسبب الدموع المنهمرة كأنها الأمطار في أقصى أيام الشتاء.

لم ينتبه «عبد الرحمن» لذلك القادم من الخلف.. لم يشعر «عبد الرحمن» إلا والطعنة مستقرة في ظهره..

مرحبًا بالموت.. إني ذاهب إلى «نورسين».

في انتظار الفردوس

عندما خرجت «فاطمة» في ذلك اليوم الذي ذهب فيه «عبد الرحمن» لمقابلة «نورسين»، كانت هناك الكثير من الأفكار تشغلها.

لقد خدمت عائلة «خورشيد» طوال عمرها.. لم تتزوج.. لم يكن لها أطفال وبيت وأسرة.. هي لا تملك أي شيء في الدنيا.. مر عليها الزمان وكبرت.. ذبل ما كان فيها من جمال.. لكنهم يقولون: إن من يدخل الفردوس يعُد شابًا..

«حسن الصباح» معه مفتاح الفردوس..

هل تخون سيدها؟

لكن المقابل لا يمكن رفضه.. سوف تعود شابة.. جميلة.. صحيحة.. هم أخذوا شبابها وصحتها.

ذهبت «فاطمة» إلى القلعة لتخبرهم بمكان «عبد الرحمن» مع وعد منهم بجعلها تقابل «حسن الصباح»..

كان رد «حسن الصباح» أن من يخون سيده الذي عاش معه طوال تلك السنين يجب أن يموت هو الآخر..

من أجل ذلك ذبحها «أبدس» بعد أن فتحت له باب الدار.

* * *

كان «سلام» يقف عند البوابة الجانبية عندما لمح «فاطمة» وهي تخرج من القلعة.. كان قد رآها في تلك المرة التي ذهب فيها إلى «خورشيد».

بعد قليل أحس بحركة غير عادية.. ذهب «أبدس» ومعه ثلاثة حشاشين إلى بيت «خورشيد» بينما تحرك «بجرت» ومعه حشاش آخر إلى بيت «نورسين».

لم يدرِ «سلام» ماذا عليه أن يفعل.. على كل حال وجوده بالقلعة أصبح خطيراً.. ربما وشت به «فاطمة» كما وشت بسيدها.. انتظر «سلام» حتى تأكد أنه ليس هناك من يراقبه وتسلل من الباب الجانبي للقلعة بعد أن فتحه له الحارس الذي يعرفه جيدًا.

انطلق «سلام» إلى بيت «خورشيد».. ترك جواده عند الباب وأسرع إلى الداخل ليجد آثار المعركة و«علم الدين» و«وجد» و«زهرة» يحملون ما استطاعوا جمعه ليفروا به.. أسرع «سلام» وحمل عن «زهرة» وأمها ما معهما وهو يسأل «علم الدين»:

- أين «عبد الرحمن»؟

أجابه «علم الدين»:

- ذهب ليطمئن على «نورسين».

لم يُطِل «سلام» في الحديث.. ساعدهم في حمل زادهم بسرعة على الجياد وقال لهم:

- انطلقوا أنتم.. لو ظللنا أحياء فسنلحق بكم.

وقفز مرة أخرى على جواده.. طار الجواد في الطرقات مسرعًا نحو دار «نورسين»، وعندما وصل حيث كان السكون سيد الموقف لمح من الباب المفتوح وعلى الرغم من الظلام نصل السيف اللامع يقترب من صديقه..

كان «بجرت» يريد أن يعاجله بطعنة ثانية تقضي عليه.. لكن «سلام» أمسك بقوسه ووضع فيه سهمًا بسرعة ليخترق السهمُ الهواءَ في لحظات قبل أن يستقر في ظهر «بجرت» الذي صرخ من الألم وهو يلتفت إلى «سلام» الذي أرسل إليه سهمًا آخر في صدره.. ثم ثالثًا في بطنه.

السهم الرابع كان من نصيب الحشاش الآخر الذي جاء مع «بجرت» لكنه أخطأه؛ فقد كان يجري فارًا من سهام «سلام».

جرى «سلام» على صديقه فوجده فاقدًا للوعي وجراحه تنزف بشدة.. بينما كانت «نورسين» قد فارقت الحياة.

حاول أن يقلل النزيف قدر المستطاع قبل أن يحمله على جواده ويسرع به.. علّه يلحق بالطبيب.

* * *

دخل «سليمان» يجر قدميه.. يحمل صحيفة الطعام إلى «عبد الرحمن» الذي يأكل في غرفته ولا يقوم من الفراش إلّا نادرًا.. أمره «علم الدين» بالراحة حتى يلتئم الجرح.. لكن اليوم «عبد الرحمن» يريد أن يأكل في الخارج.. كان يحاول القيام من على الفراش عندما قال له «سليمان»:

- إلى أين ستذهب؟

أجابه «عبد الرحمن»:

- لقد مللت من المكوث في الفراش.. لقد مرت أشهر عليّ وأنا في الفراش.

فقال له «سليمان» محذرًا:

- لكن الإمام أخبرك أن عليك الراحة.

رد عليه «عبد الرحمن»:

- لقد تحسنت.. هيا نأكل أمام باب الدار في الهواء.

طاوعه «سليمان» فحمل الصحيفة إلى الخارج وجلس في انتظاره.. كانت أول مرة يخرج فيها «عبد الرحمن» منذ فترة.. يشعر براحة عندما يجلس في الهواء.. بدأ في الأكل وهو يسأل «سليمان»:

- كيف حال «سلام» معك؟

أجابه «سليمان»:

- شاب طيب مثلك.. يحب العمل.. إنه يساعدني ويساعد السيد «خورشيد».

ابتسم «عبد الرحمن» وقال له:

- هو لا يستطيع ألا يساعد «خورشيد».

فضحك «سليمان» وقال له:

- هو والد زوجته.. بالطبع يجب أن يساعده.

سادت فترة قصيرة من الصمت قطعها صوت النسر الذي بنى عشًا على سطح الدار.. نظر «سليمان» إلى الأعلى وسأل «عبد الرحمن»:

- أيضايقك صوت هذا النسر؟

أجابه «عبد الرحمن» وهو يبتسم:

- بالطبع لا.. إن صوته يذكّرني بشخصٍ ما يشبهه كثيرًا.

ونظر إلى السماء حيث الشمس.. التي ألقت شعاعها على الفردوس التي طالما حلم بها..

فردوسه الخاصة.

أعمال الكاتب

- نظرات دمية (مجموعة قصصية)
- حالة توحد (رواية)
- استجواب (رواية)
- الحشّاش (رواية)

تحت الطبع

- (الجزء المتمم لرواية حالة توحد)

***

صفحة الكاتب على الفيس: أدبيات- محمود أمين

https://www.facebook.com/adabiat.mahmoud

صفحة دار بصمة على الفيس: دار بصمة للنشر والتوزيع

https://www.facebook.com/darbasma